النُّورُ السَّائِرُ

مِنْ

خُطَبِ الْمَنَابِرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الطّبْعة الأولى

١٤٤٠هـ /٢٠١٨م

التنسيق والإخراج طالب عفو ربه الأكمل

هشام بن حسين بن علي الأهدل

775 924 328 — 777 966 145

غافق للدراسات والنشر
GAFEQ for studies and publishing

النُّورُ السَّائِرُ مِنْ خُطَبِ المَنَابِرِ

المجموعة الخامسة

تأليف الشيخ :
عبد الله بن عبده العواضي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهذه هي المجموعة الخامسة من سلسلة خطب **"النور السائر من خطب المنابر"** جاءت بعد صدور أربع مجموعات سابقة، انتخبتها من خطب الجمعة التي ألقيتها في جامع ابن الأمير الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد اشتملت هذه المجموعة على ثلاثين خطبة، احتوت على موضوعات متنوعة يحتاجها المسلم في حياته الدينية والدنيوية.

ومما اعتنيت به فيها عناية خاصة: الحديث عن بعض الموضوعات الفقهية في قالب خطابي؛ نظراً لحاجة المجتمع لهذه الموضوعات، كونها مما تقع بين الناس كثيراً، ويكثر السؤال عنها منهم؛ لمعرفة الصواب من الخطأ فيها.

وهناك وجهة نظر لبعض الإخوة الخطباء وغيرهم أن هذه الموضوعات مجالها حلقات الدروس لا أعواد المنابر، ولكنني أحب أن أقول: إن هذه الموضوعات الفقهية ونحوها مهمة في حياة المسلم فهو مفتقر إلى التفقه فيها، والذين يحضرون دروس الفقه من الناس عدد قليل مقارنة بالحاضرين خطبةَ الجمعة، وليس كل الناس حريصًا أو متفرغًا للمداومة على حضور تلك الحلقات؛ لذلك كان من الفعل الحسن تعليمهم بعض الآداب والأحكام الفقهية في خطب الجمعة.

وقد وجدت -بحمد الله تعالى- لهذا الاعتناء بالموضوعات الفقهية أثراً كبيراً بين الحاضرين.

والموعظة في حقيقتها ليست مقصورة على ما يتعلق بالموضوعات البكائية ترغيبًا وترهيبًا فحسب، بل هي شاملة لكل ما يحظ الناس على فعل الخير، ويزجرهم عن فعل الشر.

وقد انتهجت منذ سنوات في خطبة الجمعة وضع خطة لموضوعاتها، فمن ذلك: أنني أنظر إلى أعمالي وأعمال إخواني المسلمين فأرى جوانب القصور أو النقص فأدون موضوعات تعالج ذلك الخلل حتى نصل إلى مرضاة الله تعالى.

ومن ذلك أيضًا: أنني أراقب الموضوعات التي يكثر السؤال حولها، ويزيد جهل الناس بها فأسجل في الخطة موضوعات تتعلق بعلاج تلك الظاهرة، ثم أتحدث عنها في فرصها الملائمة.

أسأل الله أن يكون ما ندعو به إليه خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفعنا بما نقول ونكتب، وأن يجعل ذلك حجة لنا لا علينا، وأن ينفع به عباده، إنه سميع قريب.

وصلى وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه:

عبد الله بن عبده العواضي

إمام وخطيب جامع ابن الأمير الصنعاني.

١٤٤٠/٢/١٤هـ، ٢٠١٨/١٠/٢٢م.

اليمن- صنعاء.

الحياة في ظل معرفة الله، جل جلاله(١)

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدّر فهدى، أحمده على نعم تترى، وآلاء لا أدرك لها حصرا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله واحد، ورب شاهد، ونحن له مسلمون، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد المرسلين، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين، وصحابته المهتدين، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، اعلموا -رحمني الله وإياكم- أن لكل بناء أركانًا يعتمد عليها، وأعمدة ينطلق سمُّوه منها، وقاعدة راسخة يقوم بقاؤه على رسوخها.

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ١٥/٤/١٤٣٨هـ، ١٣/١/٢٠١٧م.

وإن مما لا شك فيه لدى العقلاء: أن النجاة من الأضرار العاجلة والآجلة مطلب من أعظم مطالب الحياة، وهذا المطلب لا يناله الإنسان إلا إذا قام بناؤه **على أركان أربعة:**

صلاح شأن الإنسان مع الله تعالى، وصلاح شأنه مع كتابه الذي أنزله على رسوله، وصلاح شأنه مع رسوله الذي بعث إليه، وصلاح شأنه مع الدين الذي جاء به ذلك الرسول.

ونحن أمةَ محمد -عليه الصلاة والسلام- كذلك؛ فإن نجاتنا قائمة على صلاح حياتنا مع الله تعالى ربنا، ومع القرآن الكريم كتابنا، ومع محمد -عليه الصلاة والسلام-نبينا، ومع الإسلام ديننا.

فهذه معاقد النجاة، وأعمدة صلاح الحياة في الدنيا والآخرة.

وهذه الأصول الأربعة هي التي يجد فيها الناس البعيدون عنها الأجوبةَ الشافية عن الأسئلة الكبرى التي أوصلت بعضهم إلى الشك والحيرة، هذه الأسئلة هي: من أين جئنا؟، ولماذا جئنا؟، وإلى أين نصير؟.

إن مَن فهم هذه الأصول الأربعة الفهمَ الصحيح، وعمل بما تدعو إليه في الباطن والظاهر فإنه يظفر بسعادته ونجاته، في عاجل أمره وآجله.

وهي أصول يدل بعضها على بعض، ويكمل بعضها بعضًا في تحقيق النجاة؛ إذ لا تتم النجاة إلا بها جميعًا.

فالله تعالى ربنا، والقرآن كلامه، ومحمد ﷺ رسوله، والإسلام الذي جاء به هو دينه الذي شرعه، والقرآن يدعو إلى عبادة الله وحده، وإلى اتباع رسوله، والأخذ

بالإسلام، ورسولنا محمد عليه الصلاة والسلام جاء بالإسلام من عند ربه، ونزل القرآن عليه من أجل الدعوة إلى توحيد الله تعالى، والإسلام معناه: الانقياد التام لله تعالى، ولكتابه، ولرسوله عليه الصلاة والسلام.

وبعون الله تعالى سنتناول بالحديث هذه الأصول الأربعة في أربع خطب متتالية، نتحدث عنها وعن الحياة الصحيحة معها، وعن المطلوب منا -نحن المسلمين- نحوها.

ونبتدأ اليوم -بتوفيق الله تعالى- بالحديث عن الحياة مع الله جل جلاله.

أيها المسلمون، إن البشر إذا تحدثوا عن البشر ممن يحبون أو يجلّون قادتْهم الرغبةُ أو الرهبة، أو شغف المصلحة، أو إفراط المحبة إلى المبالغة في المدح والوصف، وساقوا من الذكر والثناء ما يفوق ما يستحقه ذلك الممدوح، فصار ذلك الثناء في حقيقته ذمًا؛ لأنه كشف عن نقص الإنسان، وافتقاره من تلك الصفات؛ لأن الإنسان ملازم للنقص مهما طلب الكمال، ولا يفارقه العيب مهما تنزه عن معيب الأفعال والأقوال.

أما حديث الإنسان عن الخالق تبارك وتعالى حديثَ المدح والثناء فإنه يبقى حديثًا قاصراً عن إدراك كمال صفات الله، ونعوت جلاله، وجميل فعاله، وآيات جماله سبحانه وتعالى؛ وسبب ذلك: أن الله تعالى له الكمال المطلق في ذاته، وصفاته وأفعاله عز وجل.

قال الشاعر:

وإنّ مـديحَ النـاسِ حـقٌ وباطـلٌ وَمَـدْحُكَ حَـقٌّ لَـيسَ فيـهِ كِـذابُ[1]

---

(١) البيت للمتنبي، شرح ديوان المتنبي (٢/٢١٦).

وقال الآخر:

فَلَيْتَـكَ تَحْلُـو، وَالحَيَـاةُ مَرِيـرَةٌ ... وَلَيْتَـكَ تَـرْضَى وَالأَنَـامُ غِضَـابُ

وَلَيْـتَ الَّـذي بَيْنـي وَبَيْنَـكَ عَـامِرٌ ... وبيني وبـينَ العـالمينَ خـرابُ

إذا نِلْـتُ مِنـكَ الـوُدّ فالكـلُّ هَـيّنٌ ... وَكُـلُّ الـذي فَـوْقَ الـتّرَابِ تُـرَابُ[١]

فمهما أثنينا على الله تعالى ووصفناه، وذكرنا كماله ومدحناه؛ فإن حديثنا عن ذلك كقطرة من بحر، أو ذرة في رمل، أو نقطة في صحراء مترامية الأطراف.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[لقمان:٢٧].

لـو كـلُّ شيءٍ في الوجـود تكلّمـا ... بجميـعِ ألـوانِ الثنـاء وأنعمـا

وأتـى بأفنـانِ البلاغـة كلِّهـا ... مـدحًا لمـن بـرأَ الوجـودَ وأحكـما

لم يبلـغِ المعشـارَ مـن أوصـافه ... مهمـا أجـادَ مـن الكـلام ونمنـما

وفي الحديث القدسي: " يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر "[٢].

عباد الله، إن الحديث بالثناء الصادق على الله تعالى حديث يستنهض الأرواح لتسبح في آفاق الاشتياق إلى ربها، وتسارع إلى فعل ما يرضيه في فرصة حياتها، وتسترخص كل عناء في سبيل الوصول إليه، ونيل ما لديه لمن قام بها عليه، من فعل

(١) الأبيات لأبي فراس، لآلئ اللآلي (ص:٤).

(٢) رواه مسلم.

أوامره، واجتناب زواجره، وهو حديث يستحثها أيضًا لتنفض عنها غبار الغفلة، وتَرمَّ معارج المحبة، وتنير طريقها بعد أن خفتت بعض مصابيحها، وتثير خفيات الأشواق لتجدد العهد مع الخلاّق.

ماذا أقول وما يفوه لساني ... وتخطه في المادحين بناني
ماذا أقول عن الذي أوصافه ... جلّت عن الإحصاء كلَّ أوان
اللهُ أجملُ أحرفٍ رددتُها ... وأجلُّ لفظ في فمي وجَناني
الله أحلى كِلْمةٍ وصلتْ إلى ... سمعي وأعذبُ ما جرى ببياني

أيها الأحباب الفضلاء، الله جل جلاله له غاية الكمال ونهايته، فهو ذو الكمال المطلق في ذاته وصفاته، وأفعاله ومقدوراته، ليس به نقص ولا عيب، ولا شين ولا ريب، سبحانه الذي تنزه عن نقصان الخلال، وتفرد بغاية الكمال، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]. وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص:١-٤]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[البقرة:٢٥٥].

والله عز وجل هو ذو الجلال والعظمة، فلا عظيم أعظم من الله، ولا يستحق أحد أن يعظّم كما يعظم الله، ولما كان ربنا تعالى عظيمًا عظمة مطلقة وجب على العباد تعظيمه وتوقيره في القلوب باستشعار الهيبة والقدرة، وفي الجوارح بتعظيم حرماته، والوقوف عند حدوده وتشريعاته.

فمن كان الله تعالى عظيمًا في قلبه هاب أن يخالفه، ومن كان الله تعالى عظيمًا في

جوارحه ساقها إلى مرضاته، وأمسكها عن امتطاء محظوراته، قال بعض الصالحين: "لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه"(١).

والله سبحانه وتعالى ذو القدرة التامة، والقوة الكاملة، فلا ضعفَ ولا عجز يعتري قوة الله تعالى وقدرته.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[فاطر:٤٤].

سبحانه ربنا العظيم، قدَرَ فخلق، وقدر فرزق، وقدر فعلم سرَّ عباده ونجواهم، ومحياهم ومماتهم، ومنقلبهم ومثواهم، وبعثهم من كل مكان تفرقت فيه أجسادهم. ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة:١٤٨].

فما قدرة القادرين أمام قدرة رب العالمين، وما قوة الأقوياء إزاء قوة القوي المتين!.

فأي مخلوق ظلم بقدرته فليتذكر أن الله أقدر على محاسبته، ومن غلب بقوته فليعلم أن الله أقوى على معاقبته، واسترداد الحق منه.

والله تبارك وتعالى هو الذي خلق فأبدع خلقه، وبرأ كل شيء وصوّره، فهو الخالق الخلاق البارئ المصور، بديع السماوات والأرض.فمن تأمل في خلقه عرف إبداع صنعه، وجميل فعله، وحسن تكوينه.

تأمّل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثارِ ما صنعَ المليكُ

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٢٥).

عيـــونٌ مـــن لُجَـــينٍ شاخصـــاتٌ بأحـــداقٍ هـــي الـــذهبُ الســـبيكُ
عـــلى قُضُـــبِ الزبرجـــد شـــاهداتٌ بـــأن الله لـــيس لـــه شريـــك[1]

فتأمل أيها المخلوق في الكون الفسيح؛ لتقرأ إبداع الخالق، بل تأمل في نفسك؛ لترى عجيب صنع البارئ فيك. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[الانفطار:٦-٨].

والله جل وعلا هو الرزاق الكريم الذي تكفل برزق عباده وكفايتهم، فلا رازق لهم سواه، فقد رزق الجن والإنس، والمسلم والكافر، والطائع والعاصي، والصغير والكبير، وكل كائن تدب فيه حياة، فوسع رزقه جميع خلقه، بكرم لا يُحد، وعطاء لا يُعد، حتى رزق الجنين إلى بطن أمه، والحشرةَ إلى باطن الصخرة، فلم ينسَ رزق أحد خلقه في أي مكان صار إليه ذلك المخلوق.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[هود:٦]، وقال: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[العنكبوت:٦٠].

والله تعالى عليم علمًا مطلقًا لا يُسبق بجهل ولا يلحقه نسيان، علم ما كان وما يكون، وما سيكون، وسوف يكون، لو كان كيف يكون.

فأين يغيب العبد عن علم علام الغيوب الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، الذي أحاط علمه بجميع الأشياء ظاهرها وباطنها، دقيقها وجليلها. فكيف تعصيه نفس عاقلة تعتقد أنه يعلم حالها، ويرى أفعالها؟!. ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا

(١) الأبيات منسوبة لأبي نواس، موسوعة الشعر الإسلامي (٢/١٣٥).

يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[الأنعام:٥٩].

والله جل جلاله هو الحكيم الذي لا يقول ولا يفعل إلا الصواب، الذي أتقن كل شيء، وجانبه العبث والقصور، والخلل والزلل في كل شيء. خلق كل شيء فأحسن خلقه، وقدر كل شيء فأحسن تقديره. فله الصنع الحكيم، والتقدير الحسن، في أحكامه الكونية والقدرية، وأحكامه الدينية والشرعية. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة:٥٠].

فلا يحصل في خلقه ما لا يريده كونًا؛ لأنه الحكيم، ولا تغلب إرادةُ غيره إرادته؛ لأنه المدبِّر القادر العظيم. ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف:٥٤].

والله سبحانه وتعالى الحليم الذي لا يعاجل بالعقوبة من عصاه؛ فلعل العاصي أن يتوب، وإليه يؤوب. قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾[فاطر:٤٥]. لقد وسع حلمه تعالى المذنبين والكافرين والظالمين والمسرفين، عن قدرة وعز، لا عن ضعف وعجز، فأمهلهم حلمًا منه. فيا ويل من أُسدل عليه حلم الله ولم يرجع إليه، وتأخرت عقوبته ولم يقبل عليه، وسبحان ربنا من حليم كريم، حلم عن علم وقدرة، وكرم وغنى، وعفو ورحمة!

والله تبارك وتعالى رحمن رحيم، أرحم بالعبد من نفسه، وأرحم به من أبيه وأمه، **فمن رحمته به:** أنه أمره ونهاه؛ لئلا يصل إلى ما لا يرضاه.

ومن رحمته به: أنه أكرمه وأعطاه، وأطعمه وسقاه، وشفاه وعافاه، وكساه

وآواه.ومن رحمته به: أنه سخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه؛ ليستعين بذلك على عبادته، ويصل به إلى راحته وسعادته.

ومن رحمته به: أنه أمهله إن عصى، وفتح له باب التوبة إن تاب بعد أن هفا، وفرح بقدومه عليه منيبا،

فعن عمر بن الخطاب ﵁ قال: قدم على النبي ﷺ سبيٌ فإذا امرأة من السبي قد تحلّب ثديها تسقي إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: (أترون هذه طارحة ولدها في النار)؟.قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: (للهُ أرحم بعباده من هذه بولدها)(١).

أيها المسلمون، إن ربنا تعالى لما بلغ غاية الكمال فيما تقدم من الصفات وفي غيرها من نعوت جلاله؛ كان مستحقًا للعبادة التي لا يشاركه فيها أحد من خلقه.فالله تعالى هو المعبود الحق في أرضه وسمائه، لا معبود بحق سواه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾[الزخرف:٨٤].

فبينه وبين عباده حبل العبادة فمن وصله فأحسن فقد أخذ بأسباب النجاة، وأمن الخسارة في دنياه وأخراه، ومن ترك الأخذ به فقدَ سعادةَ الحياة، وربح الهلاكَ والندامة عند لقاء الله تعالى.

فمعبودنا الله وحده لا شريك، له سجودُنا وركوعنا، وخشوعنا وخضوعنا، ومنه تعالى رغَبنا ورهبنا، ونيلُ حاجاتنا وغاياتنا، وعليه سبحانه توكلنا واعتمادنا، وصلاح أمرنا في دنيانا وأخرانا، وبه جل وعلا وجودنا وخَلقنا، وحياتنا ومماتنا، وبعثنا بعد موتنا من قبورنا، وإليه وحده تعالى نتوجه برجائنا ودعائنا، وقصدنا في جميع أمورنا.

(١) متفق عليه.

قال الشاعر:

إليــك وإلا لا تُشَـــدُّ الركائـــبُ ومنـــك وإلا فالمؤمِّــلُ خائـــبُ
وفيـــك وإلا فـــالغرام مضـــيّعٌ وعنـك وإلا فالمحـدِّث كـاذب[١]

وقال الآخر:

يــا مَــنْ ألُــوذُ بِــهِ فــيمَا أُؤمّلُــهُ وَمَــنْ أعُــوذُ بــهِ مِمّــا أُحــاذِرُهُ
لا يَجْبُرُ النّـاسُ عَظْـماً أنْـتَ كـاسِرُهُ وَلا يَهيضُـونَ عَظْـماً أنـتَ جـابِرُهُ[٢]

أيها الإخوة الكرام، ما استقر في قلب الإنسان شيء أعظم من تعظيم الله وتوحيده، وتقديسه وتمجيده، واليقين بأن كل شيء بيده، وأن الأمر كله إليه أوله وآخره، حلوه ومره. ولا تلذذ القلب بشيء ألذ من محبة الله تعالى، والشوق إلى لقائه، واستشعار قربه ومعيته، وعونه وحفظه، ولا تفكرَ العقلُ في شيء أحسن من التفكر في آياته وآلائه، وأفعاله وتقديراته، وحكمته في تشريعاته ومخلوقاته، ولا سمعت الأذن أحلى من خطابه، وآيات كتابه، والحديث عنه وعن صفاته، ولا نطقت اللسان بشيء أعظم ولا ألذ من اسمه، ومن ذكره وشكره، والثناء عليه، ولا نظرت العين إلى شيء أحسن من النظر إليه، ورؤية إبداع مخلوقاته، والتأمل في آياته. عن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم ؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار، قال: فيكشف الحجاب فما أُعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل)[٣].

---

(١) البيتان لأبي محمد الأندلسي القحطاني، موسوعة الشعر الإسلامي (٢/١٣٥).

(٢) البيتان للمتنبي، شرح ديوان المتنبي (١/٧٦).

(٣) متفق عليه.

أيها المسلمون، كم يتقرب ربنا الكريم إلى عباده بنعمه وآلائه-وهو الغني عنهم-، وهم يبتعدون عنه بمعصيته ومخالفته-وهم الفقراء إليه!. ففضله على عباده واصل، وخيره إليهم نازل، وكرمه إليهم ممتد، وعطاؤه لهم لا يُعد. فأين التقوى منهم والشكر، والثناء وحسن الذكر، وكل ذلك عائد لهم بالخير والظفر؟.

فمن اتقى وشكر، وتعبّد لله وصبر، وتعلق به فقد فاز فوزاً عظيمًا، فما خاب من كان اللهُ قصدَه وناحيته، وما ضعف من كان اللهُ قوَّتَه، ولا عجز من كان الله قدرته، وما تاه من كان الله وجهته، وما زاغ من كان الله غايته، وما افتقر من كان الله غناه، وما ذل من كان الله مولاه، وما ضل من كان الله هداه، وما هُزم من كان الله ناصره، ولا كُسر من كان الله جابره.

أحبتي الأفاضل، اعلموا أن ما عند الله خير وأبقى، وما عند غيره يذهب ويفنى، فمن الله الكرم والعطاء، وبالله الكفاية والاستغناء، وإلى الله التوجه والالتجاء، وعلى الله اعتماد القلوب، وبه حسن الرجاء إذا دهمت الكروب. فيا أيها الإنسان، إنك تجد عند الله أمنَك عند خوفك، وقوتك عند ضعفك، وسعتك عند ضيقك، وسرورك عند كدرك، ومطالبك عند حرمان الناس لك، فلماذا تلتفت إلى المخلوقين وعندك رب العالمين؟!، قال الله في الحديث القدسي: (يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي، كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم)[1]. وفي الحديث القدسي الآخر: (يا ابن آدم، تفرّغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسدّ فقرك، وإن لا تفعل ملأت

(١) رواه مسلم.

يديك شغلاً، ولم أسد فقرك)[١].

فسبحان ربي العظيم عددَ خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، وسبحانه عددَ ما ذكره الذاكرون، وعدد ما غفل عن ذكره الغافلون، وسبحانه وبحمده، لا نحصي ثناء عليه، لا إله إلا هو الحي القيوم الذي لا يموت، وكل شيء سواه ذائق الموت. جل جلاله خلق فسوى، وقدر فهدى، إليه المنتهى، أضحك وأبكى، أمات وأحيا، خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى، وإليه الرجعى، وعليه النشأة الأخرى.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾[الحشر:٢٢].

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الحشر:٢٣]. ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[الحشر:٢٤].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان، وهو صحيح.

الخطبة الثانية

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أيها المسلمون، إن الحياة مع الله تعالى تعظيماً وتوحيدًا، وتعبداً وتقربًا، ومحبة وانقياداً، وعلمًا ويقيناً؛ هي الراحة والسعادة، والشرف والسيادة.

فمن عاش مع الله تعالى عبداً أبصر الحياة مَلِكًا، ومن عاش مع الله تعالى ذليلاً أبصر الحياة عزيزا، ومن عاش مع الله طائعًا ألفى الحياة مشرقة، فرأى من خلالها أعلام النجاة ترفرف أمام عينيه، وتسارع إليه ، وتهبُه نسيمَ السعادة الجميل، والظلَّ الوارف الظليل؛ لأن العيش في ظل معرفة الله تنقشع عنه سُحب الغموم، وتتبدد عنه ظلمات الهموم، وتتسع فيه الحياة مهما ضاقت، وتخفُّ الأمراض مهما ثقلت، وتبتهج النفوس مهما تكدرت، وتكبر الآمال مهما قُصفت، وتقرب الحاجات مهما تباعدت، وتضعف المخاوف مهما قويت، وتشرق آفاق الأيام مهما دجت.

فإذا فارق الإنسانُ دنياه صائراً إلى أُخراه –وقد عاش حياته الدنيا مؤمنًا صالحًا– فنعم عقبى الدار، وحبذا الزاد الذي جُمع لديه، والمصير الذي آل إليه.

فإنه حينئذ سينتقل إلى لقاء من أحبه وعبده ولم يره انتقالَ الحبيب إلى حبيبه، وسينتقل من دار التعب والعناء، إلى دار الراحة والنعماء، وإلى جنةِ الله التي هي أفضل مأوى، وإلى رؤية الله التي هي غاية المُنى، وسينتقل من شوقه إلى أحبابه الذين فارقهم أو فارقوه إلى دار تجمعه بهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

مرض أعرابي فقيل له: "إنك تموت، فقال: أين يُذهب بي؟ قالوا: إلى الله، قال: فما كراهتي أن أذهب إلى من لا يُرى الخير إلا منه"![1].

فيا رب! كم أنعمت! فمن يحصي نعمك، وكم أكرمت، فمن يقدر على أن يعد كرمك!. مَن ذكرك ذكرتَه، ومن شكرك شكرته، ومن استنصرك نصرته، ومن سألك أعطيته، ومن استرزقك رزقته، ومن استشفاك شفيته، ومن استرحمك رحمته، ومن استغاث بك أغثته، ومن تولاّك تولّيته، ومن أقبل عليك تائبًا قِبلته.

لو عبدك العابدون الليلَ والنهار، عددَ قطراتِ الأمطار، وورقِ الأشجار، وحباتِ الرمال، ومثاقيل الجبال، لما بلغوا معشار ما تستحقه من العبادة والشكر، فإذا قال الملائكة المعصومون الذين يعبدون الله ويسبحونه الليل والنهار لا يفترون: (سبحانك ما عبدناك حق عبادتك)[2]، فماذا نحن الخطّاؤون قائلون!.

إخواني المسلمين، وبعد هذا، ماذا نحن عاملون، وعلامَ عازمون؟.

أفلا نغسل قلوبنا من جميع أدرانها التي تخالف عظمة الله ومحبته، وتوحيده وتقديسه؛ فيكون اللهُ أعظمَ شيء في قلوبنا، وأحبَّ شيء إلى نفوسنا حقًا وصدقًا، لا كذبًا ودعوى. وبرهانُ ذلك صلاح أعمالنا وأقوالنا ظاهراً وباطنًا.

أفلا نعمر جوارحنا بكل طاعة أُمرنا بها، ونجنبها كل معصية نهينا عنها.

أفلا نشتاق إلى لقاء الله، والظفر بقربه في دار كرامته.

ألا فلنجهز زاد الرحلة السعيدة ليوصلنا إلى تلك الغايات الحميدة، فما بين المؤمن

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/٤٦٦).

(٢) رواه الحاكم، وهو صحيح.

وذلك الموعود الحق الصادق إلا أن تخرج الأرواح لتلقى بعدها الأفراح، وترمي عنها دنيا الآلام والأتراح، ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[الزمر:١٧، ١٨].

هذا وصلوا وسلموا على خير البشرية...

الحياة في ظل الاهتداء بكتاب الله تعالى(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، إن الكلمة بقيتْ وستبقى سبيلاً لتعديل مسار الناس، من الشر إلى الخير، أو من الخير إلى الشر، وكلما كانت أكثر امتلاكًا لأدوات التأثير كانت أسرع وصولاً، وسيطرة على الأقوال والأعمال.

وذلك أن الخطاب والبيان وَقود للعقول والقلوب التي تنشأ عنها حركات

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ٢٢/٤/١٤٣٨هـ، ٢٠/١/٢٠١٧م.

الجوارح وسكونها.

ومن هذا بعث الله تعالى الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام- وأيّدهم بوحي منه؛ حتى يخاطبوا الناس به مبشرين ومنذرين، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[الأعراف:٣٥].

ومن أولئك الرسل الكرام: رسولنا محمد ﷺ، الذي أنزل الله تعالى عليه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل:٤٤].

ففي ليلة قمراء اتّشحت بها آفاق غار حراء هبط رسول السماء جبريل عليه السلام إلى رسول الأرض سيد الأنبياء محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، فجاءه بطلائع النور الذي سينير لأهل الأرض طريقهم إلى ربهم تبارك وتعالى، حاملاً معه قول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق:١-٥].

لقد حمل رسول الله محمد ﷺ في صدره تلك الكلمات المشرقة فجاء بها الناس نبيًا من عند الله تعالى؛ ليضيء بها الكون المتلفع بالظلمات المتراكمة، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[المائدة:١٥-١٦].

أمّةَ القرآن، إن هذا القرآن العظيم الذي بين أيدينا هو كلام الله تعالى، أصدقُ قيلا، وأحسنُ حديثا، وأكمل نصحا، وأهدى طريقا، وأتم برهانًا وحجة، وأفصح بيانًا

ومحجّة، ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:٤٢].

هو كلام الله تعالى العليم الخبير، البصير القدير، ليس ككلام البشر. الذي يعتريه النقص والقصور، والعِي والضعف، ويختلط فيه الحق بالباطل، والصدق بالكذب.

إن هذا الكتاب الكريم قد نزل بأفصح لسان، وأتم بيان، في عصر بلغت فيه العربية أوج عزها، وسنام مجدها، فأخرس الفصحاء، وأعجز البلغاء، وأعيا الشعراء، وأسكت العلماء. حتى إن منصفي فصحائهم شهدوا له بالقوة والفخامة، والإعجاز والبلاغة التي لا تُسبق، ولا يمكن أن تُلحق. قال الوليد بن المغيرة: "والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه يعلو وما يُعلى"(١).

وسمع أعرابي رجلاً يقرأ : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[الحجر:٩٤]، فسجد ،وقال: سجدت لفصاحة هذا الكلام، وسمع آخر رجلاً يقرأ : ﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾[يوسف:٨٠]، فقال: أشهد أن مخلوقًا لا يقدر على مثل هذا الكلام"(٢).

كلامٌ ليس يشبهه كلامُ وقولٌ فاقَ حقًا كلَّ قولِ
ولو صاغَ الورى أرقى بيانٍ لَمَالَ إلى الفهاهةِ كلَّ ميلِ

وصدق الله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[الإسراء:٨٨].

---

(١) الكشف والبيان، للثعلبي (١٠/ ٧٢).

(٢) النكت والعيون، للماوردي(١/ ٣٠).

أيها المسلمون، لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم كتابًا خالداً؛ ليبقى معجزة قائمة إلى نهاية الدهر، وهو بهذا الإعجاز سبيل هداية وإرشاد مع تغير الزمان والمكان والأجيال، فكل إنسان له طريقه في التأثر به وقبوله؛ ولهذا تعددت وجوه إعجازه، وطرق هدايته للنفوس.

فمن ذلك: أنه معجز بأسلوبه وفصاحته، وبيانه وبلاغته، وجودة سبكه، وحسن تأليفه، وهو معجز كذلك بإخباره عن المغيبات الماضية والمستقبلية، وهو معجز بقوة جذبه، وأخذه بمجامع العقول والقلوب، وهو معجز باشتماله على سبل صلاح الدنيا والدين.

فمن أجل ذلك بقي كتابَ هداية لكل البشر على اختلافهم، ويدل على هذا: أن بعض المقبلين من الكفر إلى الإسلام، ومن المعاصي إلى الطاعات يذكرون أن سبب رجوعهم إلى الله تعالى آيةٌ أو آيات قرأوها أو سمعوها، فمن ذلك: أن الفضيل بن عياض كان سبب توبته قبل أن يصير إمامًا في العبادة والعلم: أنه كان في طريقه إلى معصية فسمع قارئًا يقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[الحديد:١٦]، فرجع وتاب توبة نصوحًا، وصار علمًا من أعلام المسلمين(١). وأسلم طبيب غربي عندما فُسِّر له قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[النساء:٥٦]، والأمثلة على ذلك كثيرة.

عباد الله، إن من رحمة الله بنا: أن أنزل هذا الكتاب العظيم؛ ليكون نور حياتنا،

---

(١) الكشف والبيان، للثعلبي (٩/٢٤٢).

وضياء طريقنا حتى نصل إلى الله تعالى من سفر الدنيا، ولكنه لا يكون كذلك إلا بالإيمان به، وقراءته وتدبره، وفهمه وتأمله، والعمل به، والاحتكام إليه. قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[ص:٢٩]، وقال: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد:٢٤]، وقال: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾[النساء:٨٢]، وقال: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[الزمر:٢٣]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال:٢].

أيها الأحباب الفضلاء، إن المسلم الموفّق هو الذي يعمر حياته بالقرآن الكريم، فيصير تحركها مبنيًا على توجيهاته، وسكونها قائماً على هداياته، فمنه ينطلق، وإليه يعود. لأن هذا الكتاب العظيم هو خطاب الملك سبحانه لمملوكيه، ودستور الخالق لخلقه، ونداء الرب لعباده، وهو خطاب الرحيم الكريم، الذي رحم عباده بإنزاله عليهم، وعلم ما يصلح أحوالهم العاجلة والآجلة فأودعه فيه.

فلذلك صار القانونَ السماوي الشامل، والدستورَ الرباني الكامل، والحكم الفصل العادل لجميع ما يحتاجه البشر في طريقهم إلى الله تعالى.

فبه يُوحّد الله، وبه يعبد، وبه يُصلى له ويزكى المال، وبه يصام وبه يحج البيت، وبه يجاهد في سبيل الله، وبه يُحكم في قضايا الأموال والأعراض والدماء والجنايات، وبه يتبين الحلال من الحرام في البيع والشراء وسائر المعاملات؛ كالمعاملات الأسرية، والعلاقات الدولية، وغير ذلك، مع بيان سنة رسول الله ﷺ.

ومن هذا يتبين لنا أن جميع مجالات حياتنا لا تستقر ولا تصلح إلا بالتمسك بالقرآن الكريم تمسكًا صادقًا يبرهن عن صدق ذلك واقع الأفعال والأقوال. فالحياة الدينية إذا بُنيت على أساس من القرآن بناء صحيحًا قائماً على قلب خاضع، ودليل ناصع أثمرت صحة العقيدة، وسلامة الفكر، وحسن العمل والسلوك، وصواب التوجه والمعاملة مع الله تعالى، ومع النفس، ومع الخلق. والحياة السياسية إذا قامت على قواعد القرآن، ورسمت على منهاجه بحق وصدق أورثت راحة الراعي والرعية، واستقرار الشعوب الإسلامية، ورقي الحياة في جوانبها المختلفة. والحياة العسكرية إذا أُنشئت حسب توجيهات القرآن، وتوجّهت على وفق أوامر القرآن أنتجت عزَّ المسلمين، واستقرارهم، وأمنهم واطمئنانهم.

والحياة الاقتصادية إذا قامت على مبادئ القرآن في الكسب والإنفاق، والإيراد والإصدار أثمرت بركة في الرزق، ونماء في المال، وغنى في المجتمع، وازدهاراً اقتصاديًا، وتحصنًا من الجوائح والأزمات المالية، واستقلالاً عن التبعية لأعداء الأمة المحمدية. والحياة الاجتماعية إذا جرت على نهج القرآن عاش المسلمون حياة سعيدة، يحفها العدل والأمان، والطهر والنقاء. والحياة التربوية والعلمية إذا بنيت على أسس القرآن أخرجت أجيالاً متألقة علميًا، نافعة مجتمعيًا، مشرقة خُلقيًا، بانية غير هادمة، صافية العقول غير مشوبة.

أيها الإخوة الأعزاء، إن هذا الواقع المشرق في مجالات الحياة السابقة هو حلم كل مسلم صادق، يريد أن يراه واقعًا في جميع بلاد المسلمين؛ لأنه يجب أن يكون القرآن هو حاكمَ الحياة كلها؛ لأن الله تعالى أنزله لذلك، ولم ينزله ليُقرأ لحظات معينة، ثم يُعاد إلى الرفوف. إن حال الأمة الإسلامية في زمان انحطاطها بسبب بعدها عن هدي القرآن،

وبحثها عن حلول مشكلاتها في كل جهة أرضية؛ كحال الغريق الذي يطلب أيدي المنقذين، ولديه قارب فيأبى ركوبه! يناديه المنادي: اركب معنا، فيقول: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، ولكنه لم يجد جبلاً، ولا ركب قاربًا فكان من المغرقين! أو كحال من ضل عن الطريق ومعه الدليل غير أنه لا يلتفت إليه، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[الجمعة:٥]، أو كحال الظمآن والماء فوق ظهره محمول.

ومن العجائب والعجائب جمَّةٌ قُرْبُ السبيل وما إليه وصولُ
كالعِيْسِ في البيداء يقتلها الظما والماءُ فوق ظهورها محمول

إن المسلم الحريص على النجاة الصادق في حب الله هو من يصبغ حياته كلها بصبغة القرآن الكريم، فيظهر أثره على اعتقاده، وعلى عمله، وعلى أخلاقه، وعلى مخبره ومظهره، فهو طويل الملازمة للتلاوة، كثير التدبر والتفكر فيه، يقرأه فيتأثر بآياته فيتجه عقبها إلى ميدان العمل بها، وليس كحال الذي يقرأ غير مبال بالعمل بما قرأ، وكأن القرآن يخاطب غيره، فعلاقته بالقرآن علاقة قراءة تنتهي بانتهائها فحسب!.

كما أنه من عمر حياته بالقرآن بحق فإنه سيحيا حياة روحية راقية، بحيث تحلِّق روحه في آفاق الفضائل، وتسارع إليها، وتنأى عن منحدرات الرذائل، وتكره قربانها، وترسم على جوارحه صور الصلاح حتى يقبل على فعل ما يُحمد، وترك ما يذم.وقد تمثل الحياة القرآنية بجميع فصولها: رسولنا محمد ﷺ، فكان خُلقه القرآن.

أيها المسلمون، إن الحياة الحقيقة هي الحياة القرآنية، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا

كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:١٢٢]، فلا سعادة حقيقة في الحياة إلا بعمارتها بكتاب الله تعالى، فمن جرّد حياته منه تخبّط في أودية الشقاء، وظلمات الحيرة، وتاه في فلوات النكد والضياع. والطريقة الصحيحة لجعل الحياة حياة قرآنية صادقة: أن يكون القرآن هو منطلق الإنسان في تصرفاته، وهو المرجع الذي يحتكم إليه في أموره، وهو المآل الذي ينتهي إليه لكشف همومه، وتفريج كروبه، وإخراجه من رحم مشكلاته وآلامه. ومن رجع إليه رجوعًا صادقًا وجده أنيسه في الوحشة، ورفيقه في الوحدة، وسلوته في الحزن، وفاتحَ ما انغلق من أبوابه، وحلاَّل ما هجم من المعضلات على حياته.

هو منهلٌ عذبٌ يسيل معينُه ... بفراتِ ماء للحياة نميرِ
هو حبلُ من يرجو النجاةَ من الردى ... ويدُ الأمان من اغتيالِ شرور
حصن من الأعداء ما خانَ الذي ... يأوي إليه لنجدةٍ وسرور
باقٍ على مَرِّ الدهور منارةً ... تَهدي الورى دومًا لخيرِ مصير

أيها الأحبة الفضلاء، في ظل الحياة القرآنية يغتسل القلب من أدرانه، ويُطلق من سجون أحزانه، وتنزل السعادة فيه، وتشرق جميع نواحيه، وفي ظل الحياة القرآنية يتحرر العقل من غثاء الأفكار المسمومة، ويسبح في آفاق صفاء المعقولات المحمودة. وفي ظل الحياة القرآنية تنطق لسان صاحبها بكل قول يحبه الله ويرضاه، وتسكت عن كل قول يسخطه ويأباه، وفي ظل الحياة القرآنية تنظر العين إلى ما أبيح لها، وتكف عن النظر إلى ما حرم عليها، وفي ظل الحياة القرآنية تنصت الأذن إلى ما يفيدها في صلاح أمرها، وتصم عن استماع ما يوصل إلى ضررها، وفي ظل الحياة القرآنية تعمل اليد كل عمل عند الله محمود، وتكف عن كل فعل في الشرع مردود، وفي ظل الحياة

القرآنية تنطلق الرِّجل إلى ما يمدح الله المسير إليه، وتقف عن كل خطوة تردي صاحبها في المهالك، وتسلك به معوجّات المسالك.

بارك الله لي ولكم بالقرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم. قلت ما سمعتم، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، أما بعد:

أيها المسلمون، وبعد هذا، فهل من عودة صادقة إلى نور القرآن؛ فإن الشرود عنه يورث ظلمات بعضها فوق بعض، ومن كانت طريقه خاليةً من نور القرآن لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور. وهل من عودة صادقة إلى هداية القرآن، فمن استهدى به فقد هُدي إلى صراط مستقيم. وهل من عودة صحيحة إلى جعل القرآن الكريم هو دستور الحياة الذي يسيّرها، ويقضي فيها؛ فإنه نعم الدليل إلى العيش الجميل.

فيا من لها عن القرآن منشغلاً بالدنيا أقبِلْ على كتاب ربك؛ فإن صلاح دنياك ودينك فيه، ويا من هجر القرآن فصار لا يعرفه إلا في رمضان، أو في يوم الجمعة، أو في لحظات الفراغ ارجع إلى ملازمة التلاوة المتدبرة؛ فإنها منجم حسنات، ومحرقة خطيئات، قال رسول الله ﷺ: (من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: (آلم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)[١].

ويا من يقرأ القرآن من غير تفكر اعلم أن قراءتك هذه قليلة الفائدة؛ لأن القرآن لا يؤثر في النفوس والأعمال إلا بتدبره وتأمله، وتفهُّمه وتعقُّله. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: (اقرأ علي). قلت: آقرأ عليك أنزل؟! قال: (فإني أحب أن أسمعه من غيري). فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة

(١) رواه الترمذي، وهو صحيح.

بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾، قال: (أمسك). فإذا عيناه تذرفان [١].

ويا من يقرأ القرآن ولا يُتبع قراءته بعمل تُبْ من هذا التفريط، واقرأ القرآن بنية العمل قائلاً: يا ربنا، سمعنا قولك، وأطعنا أمرك. ويا من يقرأ القرآن ومعاملته لأهل بيته، ولأقاربه، ولجيرانه، وللناس الآخرين تخالف هدي القرآن راجعْ قراءتك؛ فإن فيها خللاً. ويا من يقرأ القرآن ويتحاكم إلى ما يضاده ويعارضه اسمع قول ربك في القرآن يقول: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[النساء:٥٩]. فطوبى لمسلم جعل القرآن له دليلا، وما ارتضى لحياته غيره بديلا، وطوبى لمسلم لازم تلاوة كتاب ربه، ورافق تلاوتَه حضورُ قلبه، وصار القرآن سميرَه وجليسه، وصاحبه وأنيسه، وطوبى لمسلم ظهرت عليه آثار القرآن، في أقواله وأفعاله، فإن قال فلا يخالف قولُه آياتِ الكتاب، وإن فعل كانت أفعاله موافقةً لما جاء به الكتاب. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[الإسراء:٩-١٠].

هذا وصلوا وسلموا على النبي المصطفى...

---

(١) متفق عليه.

الحياة في ظل اتباع رسول الله، ﷺ (١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

مِن أين أبتدئ الحديثَ عن الهدى ... وبأي لفظٍ أمدحنَّ محمدا

تتسابقُ الكلماتُ في أفواهنا ... وسطورِنا أيٌّ يفوز بأحمدا

رجُلٌ سما بخصاله وبهديه ... أكرمْ به هديًا أناف ومحتدا

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ٢٩/٤/١٤٣٨هـ، ٢٧/١/٢٠١٧م.

صــــلوا عليـــه وســــلموا لا تبخلــــوا   إن الصــلاة عــلى النبــيِّ مــن الهــدى

أيها الناس، إن الحديث عن نبينا محمد ﷺ وعن الحياةِ التي ينبغي أن نحياها تحت ظلال هديه حديثٌ ذو شجون، والكلام عن ذلك متشعب ذو فنون. ففي حياته العطرة، وسيرته النضرة ما يجعل العظمةَ الإنسانية تقف حائرة وهي تشاهد السمو الباذخ، والثبات الراسخ في المواقف والأحوال، والأقوال والأفعال، وفيها ما يجعل القلوب الصافية تميل إليه، والعقول المنصفة تسلِّم له، فلا يبقى للكبرياء صدود وهي ترى جوانب حياته-عليه الصلاة والسلام- كلها تتربع على هام العظمة والسموق.

أيها المسلمون، في حقبة من الزمان بلغ انحراف البشرية أقصى غاية له، حيث ارتضى الجم الغفير من الناس عبادة أصنام لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فقبلتها عقولهم، ومالت إليها قلوبهم، وتعلقت بها آمالهم، ورُجي بها زوالُ آلامهم. وفي هذه الأجواء المظلمة، والأحوال القاتمة ربّى الله على يديه، وحرس بعينيه نوراً سيبعثه ليبدد الظلمات، ويبدل تلك الأحوال القاتمات، فكان الاصطفاء لخيرة خلق الله محمد بن عبد الله ﷺ.

لقد اختار الله تعالى محمداً ﷺ لحمل الرسالة الخاتمة التامة الكاملة، وكمّل حاملها بجميل الصفات، وأفضل السِّمات. فانطلق رسول الله ﷺ يفتح مغالق القلوب بنور دعوته العظيمة، وحسن طريقته الحكيمة. فاهتدى به أقوام، وأعرض عنه آخرون، ولقي ما لقي من المعرضين من الصدود والعداء، والإساءة والأذى، فطمر ذلك النفورَ تحت قدميه، واستمر يطرق القلوب داعيًا القريب والبعيد، والصديق الموافق، والعدو المفارق، والصغير والكبير، والحر والعبد، والذكر والأنثى.

فتكوّن بأولئك المؤمنين الأولين طليعةُ الإسلام الأولى، وقاعدة صرحه

الكبرى.فلما طفق نور الإسلام يهتك كلَّ يوم بعضَ ستور الظلام، ويفتح أمام عيني مكة آفاقًا مشرقة، وأبوابًا كانت من قبل مغلقة؛ خرج طغاة مكة عن مكنون العداء إلى فعله على أجساد المؤمنين الضعفاء، وإيصاله إلى أسماع المؤمنين الأقوياء.حتى طالت سنوات الابتلاء، وضُيِّق الخناق على نور السماء أن يعم الأرجاء، فأذن الله تعالى لرسوله الكريم بترك مكة إلى دار أخرى أفسحَ صدراً، وألين قلبًا، وأخصب أرضًا، وأصلح لبناء صرح الإسلام المشيد.

فكانت الهجرة إلى طيبة الطيبة، أرضِ الحب والإيمان، والنصرة والإذعان.وهناك هناك ترعرعت شجرة الإسلام وبسقت، وعلت في سماء الحق وارتفعت، ومن هناك أنجد دين الحق وأتهم، وشرَّق وغرَّب، واستمر وسيستمر على ذلك، هذا وعد الله على لسانه رسوله الأمين: (ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر)[1].

عباد الله، لقد عاش رسول الله ﷺ عمرَه الذي قسمه له وهالاتُ العظمة تحيط به من كل جانب قبل البعثة وبعدها.فكان مهيبَ الجانب، عاليَ القدر، مبجلاً معظّماً، مكرَّمًا مفخّمًا.فقوله أحسن الأقوال وأبهاها، وفعله أفضل الأفعال وأزكاها، وحاله أكمل الأحوال وأوفاها، وسيرته أنصع السير وأنقاها.يبذل المعروف، ويغيث الملهوف، ويحسن ما وجد للإحسان موضعًا، ويعين ما رأى لعونه منتجعًا.من رآه أحبه لمرآه، فكيف لو جالسه وآخاه، حتى تملّك حبُّه القلوب، وبهرت عظمته العيون، ففدّوه بالآباء والأمهات، وبالنفس وبالنفيس في الحياة.وتعزّوا بسلامته عن كل فقيد، وتسلّوا

(١) رواه أحمد والبيهقي والحاكم، وهو صحيح.

بقربه عن كل بعيد.

"مر رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأُحد، فلما نُعُوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: كل مصيبة بعدك جلل، تريد صغيرة"[١].

أيها الأحباب الفضلاء، إن رسولنا الكريم ﷺ خرج من الدنيا وما عاش ثراءها وغناها، ولا عافس غفلتها وملهياتها، ولا خادن صَلفها وكبرياءها، ولا نافس أهلها في زهرتها ومفاتنها.

بل عاش في دنياه كثير العبادة، دائم الزهادة، ليله ونهاره، سره وعلنه، ميمِّمًا وجهه نحو الآخرة، عاملاً بقول الله تعالى: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[طه:١٣١]. وأخذ من الدنيا ما قل وكفى، وترك ما كثر وألهى، وصبر على المشقات والشدائد، وواجه المعضلات والمكائد، وتحمّل من الأهوال ما لا تنوء بحمله الجبال.مع تواضعه الجم، ولينه العَم، وبسمته المشرقة في الوجوه، ويده المطلقة بالكرم في محمود الوجوه، وحرصه الكبير على تيسير الدين لأمته، وإزالة المشقة عنهم في جميع أمره، وهذا خلق لهم دائم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨]. وفي يوم القيامة يقال لنبينا عليه الصلاة والسلام-وهو ساجد تحت العرش-: (يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع، قال: فأرفع رأسي فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقال: يا محمد، أدخلِ الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام (٤/ ٥٠).

من الأبواب)(١).

بقي رسول الله ﷺ في الأمة نبيًا رسولاً ثلاثًا وعشرين سنة حتى أدى أمانة ربه، وأتم بناء الدين والدنيا للأمة، وأوكله إلى جيل رباه على يده ليحمل البلاغ عنه من بعده إلى أرجاء المعمورة، فكان ذلك.

ثم إن الله تعالى أنزل عليه ﷺ آياتٍ كريمات تلوِّح بوداع الحياة والأحياء، وتسليم النفس إلى رب السماء، فقال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[المائدة:٣]، وقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[النصر:١-٣].

وهنا اطمأنت نفس رسول الله ﷺ، وطابت لخبر الله ووعده، حتى رضي بالرحيل والانتقال إلى دار المآل. كما أنه لوّح لأصحابه الكرام -من غير تصريح- بدنو الأجل، وقربِ المرتحَل، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: (إن عبداً خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده فاختار ما عنده) .فبكى أبو بكر وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا .فعجبنا له وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله ﷺ عن عبدٍ خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا، وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا! فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر وكان أبو بكر هو أعلمنا به)(٢).فصعِدت روحه الطاهرة- ﷺ- إلى بارئها، فانقطع وحي السماء، وسالت العيون بالبكاء، ودمعت الغبراء والخضراء، وتلفعت

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

الآفاق بالظلماء في ذلك الحادث العظيم.

إن موت رسول الله ﷺ أعظم المصائب على الأمة؛ لأنه ﷺ كان أَمَنَةً لأمته، فلما "مات أصاب الناس من الفتن والأهواء والأعمال والتغير ما لا يكاد يحصى"(١).

قال رسول الله ﷺ: (يا أيها الناس، أيما أحد من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعزَّ بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري؛ فإن أحداً من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي)(٢).

أيها المسلمون، لقد مات رسولنا ﷺ، ولكن تركته ما زالت باقية في أمته، وهي دين الإسلام الذي أرسله الله تعالى من أجل نشره، وتثبيت أعمدة بقائه في الأرض. فالقرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى عليه، وسنته الشريفة التي هي أقواله وأفعاله وتقريراته هما ركنا الدين، وهما باقيان ما بقيت الحياة؛ لأن الله تعالى تكفّل بحفظ ذلك. فالقرآن هو المصدر الأول للتشريع الإسلامي، والسنة النبوية الشريفة الصحيحة هي المصدر الثاني، وبهما يقوم الإسلام، وتحصل الحجة على الأنام. **قال** تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[الحشر:٧]، **وقال**: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[آل عمران:٣٢]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِينًا﴾[الأحزاب:٣٦]. **وقال** رسول الله ﷺ: (لا أُلْفِين أحدكم متكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله

---

(١) شرح سنن ابن ماجه – السيوطي وآخرون (ص:١١٥).

(٢) رواه ابن ماجه، وهو صحيح.

اتبعناه)[١].

ولا يُستغنى بالقرآن عن السنة، ولا بالسنة عن القرآن، ولن يفترقا حتى يردا على رسول الله ﷺ الحوض، ففي القرآن والسنة الصحيحة قيامُ الدِّين، وحصول العلم والهدى، والوصول إلى الحق المبين، وبقاء الإسلام غضًا طريًا صالحًا لكل زمان ومكان، فهما كجناحي الطائر: فمن تمسك بهما ارتفع ونجا، ومن تركهما أو أحدَهما سقط وهلك.

أيها الأحباب الكرام، إن المؤمن الصادق الذي يحب رسول الله ﷺ ويعظِّمه هو من يبني حياته على نهج رسول الله عليه الصلاة والسلام متبعًا مقتديًا. فينقل حياة رسول الله ﷺ القولية والعملية إلى واقع حياته القولية والفعلية، فيمتثل أوامره، ويجتنب زواجره.

فاقتداؤه برسول الله ﷺ هو نوره المتوهج في دروب الحياة المظلمة، ودليله العارف في متاهات الواقع المضلة، وسفينة النجاة في بحار العيش المتلاطمة، ويد الآمال التي تقوده إلى رحاب الحياة المطمئنة. فما أجملَ حياة المسلم إذا عمرها بالاتساء بخير الأنبياء عليه الصلاة والسلام، وأصبحت حياة رسول الله ﷺ القولية والعملية التشريعية هي المنبعَ الذي يستقي منه -بعد القرآن- ماءَ الحياة الصالحة، وريَّ العيش السعيد. إن الحياة مع رسول الله ﷺ بالمحبة والتعظيم، والانقياد والتسليم، والاتباع والامتثال في الأقوال والأعمال والأحوال؛ هي الحياة السعيدة والعيشة الحقيقية الرشيدة، التي تجلب لصاحبها طمأنينة النفس، وانشراح الصدر، وصفاء البال، وصلاح الحال والمآل. فبهذه الحياة يعرف السبيلَ السوي للتعامل الصحيح مع ربه،

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وهو صحيح.

ومع نبيه، ومع نفسه، ومع خلق خالقه. وبهذه الحياة ينجو من أسر الشهوات، ويُفك من قيود الشبهات، ولا تجد الحيرة والشكوك إليه طريقا، ولا الانحراف عن الجادة إليه سبيلا. وبهذه الحياة يزداد حبًا لله تعالى، وحبًا لرسول الله ﷺ، وحبًا لدينه، وحبًا لمن هم على نهجه ودربه. وبهذه الحياة يزداد شوقًا إلى لقاء رسول الله ﷺ، والظفر برؤيته، وجلاء عينيه بمقابلته، وتشنيف أذنيه بسماع حديثه.

شوقي إليك -رسولَ الله- دفّاقُ ... فنهرُ حبِّك في الأعماق رقراقُ

لُقياك -يا خيرَ خلقِ الله- أُمنيتي ... على ضفافِ الرضا والأفْقُ برَّاق

كم للعيون من الإشراق لو نظرتْ ... لنورِ وجهٍ له الأنوارُ تشتاق

قال رسول الله ﷺ: (من أشد أمتي لي حبًا ناس يكونون بعدي يود أحدهم لو رآني بأهله وماله)[1]. والمعنى: يتمنى الإنسان أن يرى رسول الله ﷺ ولو قدّم فداءً لنيل ذلك المطلب أهلَه وماله، إما شوقًا لرسول الله، وإما لشدة وطأة الفتن والمحن.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه مسلم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، **أما بعد:**

أيها المسلمون، وبعد هذا فماذا علينا نحو رسولنا ﷺ؟

هل يكفي أن نقول: إننا من أمة محمد، أو من أتباعه، أو من محبيه، أو من معظميه، ولم نقم بالواجب علينا نحوه ﷺ ونحو ما جاءنا به؟.

إن واقع الإنسان العملي هو الذي يكشف الصادقين من الكاذبين، والمتبعين من المدّعين.

فمن حق رسول الله ﷺ علينا: أن نعظمه التعظيمَ الذي يرضاه الله تعالى، ونجعل له في قلوبنا مكانة عليا لا يزاحمه في تلك المنزلة أحد من البشر. وبرهان هذا التعظيم والتبجيل: أن لا نقدم على شرعه قول أحد من الخلق كائنًا من كان. ومن حقه علينا ﷺ: أن نحبه حبًا عظيمًا أكثر من حبنا لأنفسنا، وأهلينا وأموالنا؛ فحبه من حب مَن أرسله تبارك وتعالى. قال النبي ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده، والناس أجمعين)[1].

ودليل الحب الصادق: اتباعه، والعمل بما جاء به، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[آل عمران:٣١]. ومن حقه علينا ﷺ: أن نغار عليه، وندافع عنه، ونرد عنه شتم الشاتمين، وسخرية

---

(١) متفق عليه.

الساخرين، فإذا لم ندافع عنه فإن الله تعالى سيهيئ من يدافع؛ ذكر ابن حجر في كتابه "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة"(١)، أن بعض أمراء المغول تنصر، فحضر عنده جماعة من كبار النصارى والمغول، فجعل واحد منهم ينتقص النبي ﷺ، وهناك كلب صيد مربوط، فلما أكثر من ذلك وثب عليه الكلب فخمشه فخلصوه منه، وقال بعض من حضر: هذا بكلامك في محمد، فقال: كلا، بل هذا الكلب عزيز النفس، وإني أشير بيدي فظن أني أريد أن أضربه، ثم عاد الرجل إلى ما كان فيه فأطال، فوثب الكلب مرة أخرى فقبض على رقبته فقلعها، فمات من حينه، فأسلم بسبب ذلك نحو أربعين ألفًا من المغول.

عباد الله، ومن الواجب علينا نحو رسولنا وقرة عيوننا، وحبيب قلوبنا ﷺ: العمل بسنته، واتباع هديه، والمنافحة عن دينه وشريعته. ومن الواجب علينا كذلك: أن نرضى بكل ما جاء به، ونسلم لذلك، من غير ردٍّ ولا كراهية. قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء:٦٥].

ومن الواجب علينا كذلك: أن نحب من أحب رسول الله، ونبغض من أبغض رسول الله، ونوالي من والى رسول الله، ونعادي من عادى رسول الله ﷺ.

ومن حق رسولنا الكريم علينا: أن نكثر من الصلاة والسلام عليه ﷺ، كما أمرنا الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٥٦]. اللَّهم فصلِّ عليه وعلى آله وسلم.

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (٤/ ١٥٣).

وأن نسأل له الوسيلة -وهي منزلة عالية لعبد واحد في الجنة-، قال النبي ﷺ: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي؛ فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة)[١].

هذا وصلوا وسلموا على خير البشر...

---

(١) رواه مسلم.

الحياة في ظل العمل بالإسلام(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، لقد ظل الناس قبل بعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، متعددي الأديان، متمزقي الكيان، إلا بقايا من الحنفاء، وأهل الكتاب الباقين على الحق من غير تبديل ولا تحريف.فرضي الله لعباده أن يرسل إليهم رسولاً يختم به

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ٦/٥/١٤٣٨هـ، ٣/٢/٢٠١٧م.

الرسالة، ويطهر به الأرض من رجس الضلالة، يبعثه بشريعة تكون خاتمة الشرائع لكل المكلَّفين إنسهم وجنهم، عربهم وعجمهم، فأخرج الله تعالى لذلك نبيه محمداً ﷺ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[آل عمران:١٦٤]. فجاء محمد ﷺ من عند الله تعالى بدين الإسلام؛ لهداية الأنام، وانتشالهم من عبادة الأوثان والأصنام، وتحريرهم من الرق للمخلوقين، وتعبيدهم لله رب العالمين. فصار الإسلام هو سفينةَ النجاة الوحيدة، وسبيل الحق المنفردة القاصدة، والأفقَ النوراني الموصل إلى الحق المبين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[آل عمران:٨٥].

وقال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)(١).

عباد الله، إن الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ معناه: الاستسلام الكامل، والانقياد التام الشامل لما جاء في كتاب الله تعالى، وفي سنة رسوله ﷺ، من غير جحود ولا إنكار، ولا تشكك ولا اعتراض، ولا كراهية ولا امتعاض، ولا اختيارٍ لما وافق الميول والأهواء، أو المصالح والآراء، وطرحُ ما سوى ذلك. قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء:٦٥]. ودين الإسلام الحنيف مبني على أوامر يُعمل بها، ونواهٍ يُبتعد عنها، ومعتقدات ترسخ في الضمائر، وأحكام وأخلاق تمثل حسب توجيه

(١) رواه مسلم.

الشرع الحكيم. وله من المصادر المعصومة التي دونت فيها شرائعه؛ لتبقى إلى نهاية الزمان موئلاً للخلق، ومصدراً للحق. وهذه المصادر المعصومة هي: كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ الصحيحة. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[النساء:٥٩].

فمن شهد شهادة الحق: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وقام بما توجبه هذه الشهادة من الأعمال الباطنة والظاهرة؛ فهو المسلم، ومن أتى بناقض من نواقض الإسلام الاعتقادية أو القولية أو العملية التي حكم الإسلام بكفر فاعلها فقد أخرج نفسه من دائرة الإسلام.

أيها الأحباب الفضلاء، إن دين الإسلام دين معصوم من الخطأ والزلل، والقصور والخلل؛ لأنه آتٍ من عند الله تعالى، وليس من عند البشر، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾[النساء:٨٢]. وهو دين صالح لكل زمان ومكان وبيئة؛ لأن عوامل الحياة والاستمرار فيه لا تقبل الموت، ولا التبوتق في ظروف زمانية أو مكانية خاصة، فهو دين عابر للزمان والمكان، وتجدُّدُ الحياة وتطورها لا يزيده إلا وهجًا وإشراقًا. وهو دين يشتمل على كل مصالح الفطرة السليمة في العاجل والآجل، ويتضمن دفع كل ضر عليها في الدنيا والآخرة، وهو دين قابل للعمل به في كل حين، وفي كل مكان، وفي أي جانب من جوانب الحياة المختلفة. وهو دين العلم والحضارة، والرقي والتقدم، والتطور والإبداع، ويكفي تدليلاً على ذلك أن أول كلمة نزلت من الوحي هي كلمة العلم: ﴿اقرأ﴾. وأما تقدم الكافرين في هذا المجال، وتأخر المسلمين فيه فليس سببه الأخذ بالإسلام أو البقاء على الكفر، وإنما سببه: تخلي المسلمين عن

بعض تعاليم دينهم، فلو تمسك المسلمون بالإسلام حق التمسك، وجعلوه رائدهم في كل سبيل لخرجوا من نفق التأخر المظلم، وصعدوا من وهدة الانحطاط الذليل.

وثمت سبب آخر هو: أن المسلمين لا تنقصهم العقول المبدعة، ولا الأفهام العلمية المشرقة، بل لهم من ذلك نصيب وافر، وهم قادرون حقًا على السيادة العلمية الدنيوية؛ إذ لدى الأمة الإسلامية اليوم مسلمون في شتى بقاع العالم في كثير من التخصصات، وعندهم عقول جبارة، ولكنها لم تجد في بلاد المسلمين الأرضَ الخصبة لبذرها وإنتاجها؛ بسبب حربها من الداخل والخارج، أو شرائها من الغرب؛ لتعمل في نطاق المصلحة الغربية.

ودين الإسلام كذلك هو دين الرحمة في موضع الرحمة، ودين الشدة في موضع الشدة، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح:٢٩]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[التحريم:٩]. وهو دين العزة والسيادة، وليس دين الذل والتبعية، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[المنافقون:٨]، وما ذل أهله إلا لقلة تمسكهم به، ومن قلّب صفحات التاريخ سيرى متى عز المسلمون وسادوا، ومتى ذلوا لغيرهم وانقادوا.

اقرأِ التاريخَ إذ فيه العِبرْ ... ضلَّ قومٌ ليس يدرون الخبرْ[١]

وهو دين الاجتماع والاتحاد لكل من انضوى تحت لوائه، وإن تعددت الأجناس والبلدان، واللغات والألوان، ولا يعرف حدوداً يقف عندها، بل حدوده الكرة الأرضية كلها.

---

(١) موسوعة الشعر الإسلامي (١/٢٤).

أيها الأحبة، إن دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ باقٍ في هذه الدنيا لا ينسخ، خالد لا يفنى، حي لا يموت بمكر الماكرين به، وتخلِّي أهله عنه.فوعد الله ببقاء هذا الدين لا يتبدل، وعناصر الخلود عنه لا تذهب، فهو دين الحياة حتى تفنى الحياة والأحياء، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[التوبة:٣٢-٣٣].

أيها الإخوة الكرام، إن أعداء الإسلام لا ينامون عن عداوته، ولا يفترون عن مقارعته، وهم في هذا الطريق سائرون، وبكل قوة لديهم له محاربون، ولو تُرِك الإسلام لحفظ الخلق دون حفظ الخالق لذهب، ولكن الله سلَّم. ومع شدة الكيد، وقوة المكر فإن الإسلام اليوم حي متجدد، منطلق في فضاء التمدد، رغم كل سهام الحرب التي توجه صوبه، بل إنها لا تزيده إلا ثباتًا واتساعًا ووضوحاً.يقول أحد الغربيين: "..إن الاعتداء على الإسلام لا تُرجى منه فائدة..ولن يرد المسلمين عن دينهم، ولن يعوق النهضة الإسلامية، بل سيقوّيها"(١). لكن الحقيقة التي يعلمها أهل الباطل عن بقاء سفينة الإسلام وصمودها الدائم في محيط الحياة المتلاطم بالحرب الشعواء، وعنفوان أعاصير المكر الهوجاء؛ لم تثنهم عن مواصلة المعركة، بل ازدادوا حربًا وخبثًا، فماذا فعلوا بعد عجزهم العسكري عن وقف مدِّ الإسلام المتدفق، وتياره الشديد؟

لقد سلك أعداء الحق القدماء والمعاصرون طريقًا خبيثًا ألا وهو: محاولة القضاء على الحق من الداخل.فالقدماء منهم أدخلوا فيه البدع والخرافات التي جاءوا بها من اليهودية أو النصرانية المحرفتين، أو من الهندية أو البوذية أو الفارسية أو اليونانية، أو

---

(١) قالوا عن الإسلام، د/ عماد الدين خليل (ص:٤٧٧).

غيرها.فصار لتلك الأفكار المنحرفة مدارس ومنظِّرون، ومناهج ومتبِعون، ففرقوا بذلك الأمة، حتى بقي من تلك الانحرافات الفكرية بقايا إلى يومنا هذا تعمل على وتَر التمزيق والتفريق.وأما أعداء الإسلام المعاصرون فقد أيقنوا من خلال قراءة متأنية للواقع أن دين الإسلام اليوم لا يعيش مرحلة انكفاء وانحسار، بل يعيش مرحلة امتداد وانتشار، مع كل محاربتهم التي وجوهها نحوه؛ لكبح جماح توسعه، وإيقاف عنفوان جذبه لأهل الديانات الأخرى، أو لمن لا دين له.

فلجأوا إلى سلاح تشويه الإسلام، وتشويه أهله المؤثرين، وقد حصل منهم ذلك عبر عدة قنوات عملية، منها:

تشجيع الأفكار المنحرفة، ودعم أهلها ماديًا ومعنويًا، ومنها: تأجيج الاحتراب الداخلي بين المسلمين، وإطالة أمد الصراع والاقتتال؛ حتى يبقى المسلمون منشغلين بأنفسهم، وحتى يقول أولئك الأعداء لغير المسلمين: هذا واقع دين المسلمين، وهذه حياتهم معه.ومنها: السيطرة على قرار المسلمين، وجعلهم تحت التبعية الغربية القائمة على الهضم، ودفن النهوض؛ من أجل أن لا تقوم للمسلمين نهضة وحضارة معاصرة تجذب غير المسلمين ممن يتعلقون بالحياة المادية، ومنها: استقطاب بعض الشخصيات التي تجيد حسن الخطاب، وقوة التأثير الجماهيري، واحتواؤها ودعمها وتلميعها؛ من أجل أن تشكك في بعض مسلَّمات الدين، وتزعزع ثوابت المسلمين، ومنها: إحياء تباين الآراء وتعدد الاختلافات التي قد عفا عليها الزمن بين المسلمين والترويج لها، ومنها: محاربة كل من يريد الخروج من تحت القبعة الغربية من المسلمين، وتأليب الرأي العام عليه، ووصمه بالألقاب المنفرة عنه.ومنها-وهو من أخبثها-: إعادة صياغة إسلام جديد لا يتعارض مع المصالح الغربية؛ بحيث يقضي على روح العزة والتميز، ويكتفي صاحب الإسلام الجديد ببعض شعائر الإسلام الذاتية، مع العمل على تفتيت

رابط الأخوة الإسلامية، واستقبال كل إساءة واعتداء من غير إبداء دفاع، وتعطيل شرائع الإسلام المهمة التي تجعل من المسلمين أمة قوة عزيزة ذات سيادة واستقلالية. وهذا الإسلام الجديد يسمى بالإسلام الأمريكي، أو الإسلام الشعبي؛ لأن أمريكا عبر مؤسساتها الاستراتيجية؛ كمؤسسة "راند" تولت كبر هذا الموضوع.

فهل وعى المسلمون اليوم حقيقة المعركة، وطبيعتها، وأبعاد الصراع بين الحق والباطل؟.

أيها المسلمون، ومن هنا تولد اليوم إشكال فهمي لدى بعض المسلمين حينما ازداد الجهل بالدين، وكثر على آفاق العقول رهجُ المشبِّهين وهم يرون المسلمين متفرقين فكريًا وجغرافيًا، ومتمزقين عواطفَ ومواقف، حتى صرح بعضهم قائلًا: بأي فهم نفهم الإسلام الصحيح، هل بفهم طائفة كذا، أو حزب كذا، أو جماعة كذا، أو الشيخ فلان؟!.

وحلُّ هذا الإشكال سهل لمن كان صادقًا في البحث عن الحقيقة، والتجرد للحق، والانطلاق من دائرة الإنصاف نحو الصواب، وهو: أن الطوائف والجماعات، والأحزاب والشخصيات ليست معصومة من الزلل، ففيها حق وباطل، ولكن الشيء المعصوم الذي نجد الحل فيه هو: كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وسنة رسول الله الصحيحة، وسيرته وحياته التي تمثَّل فيها الإسلامَ في أبهى صوره. فننظر كيف فهم رسول الله ﷺ وكيف عمل، وكيف تعامل مع ربه، ومع كتابه، ومع نفسه، وكيف تعامل مع المسلمين، وكيف تعامل مع الكافرين، فنقتدي به، ونسير على دربه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب:٢١].

وهذا الأمر يوجب على الإنسان المتحيِّر في مفترق الطرق الرجوعَ الواعي إلى القرآن والسنة الصحيحة، وسؤال أهل العلم الموثوق بعلمهم، وإنصافهم، كما أنه يوجب على علماء الأمة الكبار أن يصدعوا بالحق بحكمة، وأن لا يكنوا مؤطَّرين ضمن طوائف وجماعات، وأحزاب وتكتلات يدورون في إطارها في الحق والباطل، يسمعون بسمعها، وينظرون بعيونها، ويفكرون بعقولها، ولا يخرجون عن مشروعها الضيق.

أيها المسلمون، إن الإسلام الذي ترجى آثاره الحسنة في الدنيا والآخرة، وتُصلح به الأحوال الخاصة والعامة ليس هو الانتساب إلى الإسلام من غير ممارسة عملية باطنًا وظاهراً في واقع حياة الإنسان. فالحياة الإسلامية للمسلم مع دينه العظيم لا تنحصر. في جانب واحد من جوانب الإسلام مع إفراغ الجوانب الأخرى من شعائر هذا الدين الحنيف، بل الحياة الحقيقية مع الإسلام أن يكون هو الحاكمَ والموجِّه والنور في جميع شؤون حياة المسلم. فيكون الإسلام معه في جميع مظاهر حياته الخاصة والعامة.

الحياة مع الإسلام أن يكون الإسلام هو منطلق المسلم إلى أهدافه، ومرجعه عند اختلاف أموره، وليست الحياة مع الإسلام أن ينتقى منه ما يوافق الهوى، ويترك ما لا يوافقه.

أيها الأحبة الفضلاء، إن المسلم إذا صبغ حياته بالإسلام الصافي باطنًا وظاهراً، وسمع وأطاع ما جاء فيه، وسار عليه في حياته كلها فإنه سيعيش حياة سعيدة، معمورة بالاطمئنان والراحة، وستقبل إلى فنائه وفود الخيرات، وسترحل عنه كتائب المكدِّرات، وأهل الإسلام إذا حكَّموا الإسلام في جميع جوانب حياتهم الخاصة والعامة عاشوا أعزة شرفاء، وصارت لهم مكانة مرموقة عند الله تعالى، وبين خلقه. فما أحسنَ الحياة والإسلامُ حاكمها، وشريعته حية في جميع شؤونها، يَرِدها الناس ويصدرون

عنها، ولا يلجؤون إلى سواها مما يخالفها.أهل هذه الحياة تُفْتَحُ عليهم بركاتُ السماء والأرض، ويحفظ لهم الدين والنفس والمال والعرض، وتصلح جميع أحوالهم، ويعيشون في جنة في الدنيا قبل جنة الآخرة بإذن الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[الأعراف:٩٦]، وقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النحل:٩٧].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم

الخطبة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

أيها المسلمون، وبعد هذا، فماذا علينا تجاه نعمة الإسلام العظيمة التي منَّ الله تعالى بها علينا من غير جهد منا ولا قوة؟؛ فبعض المسلمين الجُدد اليوم يظلون يبحثون عن الدين الحق سنوات إثر سنوات، ويبذلون أشياء كثيرة من جهد ووقت، ومال وتحرٍّ حتى يصلوا بعد ذلك إلى نعمة الإسلام التي وصلتَ إليك -أيها المسلم- عن طريق أبويك، ومجتمعك المسلم؛ فلهذا لا غرابة أن نرى لدى بعض المسلمين الجدد تمسكًا وثيقًا بالإسلام، وحرصًا كبيراً عليه، وحزنًا على أهله، وفي المقابل نرى انفلاتًا عند بعض المسلمين الذين أخذوا دين الإسلام بالوراثة.

فعلينا -عباد الله-: أن نشكر الله تعالى ونحمده على هذه النعمة العظيمة، ونجعل من أنفسنا أهلاً لها بصلاح أعمالنا. وعلينا كذلك: أن نبذل جزءاً من وقتنا لمعرفة ديننا، والتفقه فيه؛ لنكون على دراية به؛ ولنحمي أنفسنا من الشبهات التي تُثار حوله، فمن كان ذا بصيرة بدينه، وعملٍ خالص لربه صار له درعٌ واقٍ من سهام الأهواء المضلِّة، والشهوات المزلِّة. وما تشرَّب متشرب شبهاتِ الضلال إلا لجهله، أو ميل نفسه إلى حب الشهوات، أو الظفر بالمصالح العاجلة. وعلينا أيضًا: أن نعمل بشعائر ديننا في باطننا وظاهرنا، وأن نكون مسلمين حقًا وصدقًا، فلا يكون الإسلام في جانب ونحن بأعمالنا في جانب آخر مباينٍ له. وأخيراً علينا: أن نسأل أنفسنا هذا السؤال: ماذا قدمنا للإسلام؟، فإذا متنا كنا قد وضعنا لبنة في صرح الإسلام المشيد، أو شاركنا في حمايته وحراسته.

وأختم حديثي إليكم بقصة رجل حمل همَّ نشر الإسلام، وحرص على إيصال هذا الخير إلى من لا يعرفه، وجدَّ واجتهد حتى بسقت شجرة جهده وعطائه، وأثمرت ثمرات يانعة باقية.

هذا الرجل لم يكن عالمًا شرعيًا، وإنما كان طبيبًا متخصصًا في الأمراض الباطنية، والجهاز الهضمي، هجر هذا الطبيب مكان الدعة والترف والراحة إلى مكان الفقر والنصب والتعب، وانتقل من علاج الأجساد إلى علاج الأرواح والأجساد معًا في قارة أفريقيا.هذا الرجل هو الدكتور الداعية المبارك: عبد الرحمن السميط ﵀، الذي ترك الكويت ونعيمها واتجه نحو القارة السمراء لإضاءتها بنور الإسلام.فبقي في تلك الوجهة الدعوية تسعًا وعشرين سنة، فما هي ثمرات هذا العطاء العمري الكريم في تلك البلاد؟

لقد أسلم على يديه أحد عشر. مليون إنسان، كما في بعض الإحصائيات، هؤلاء غير الذين أسلموا على أيدي هؤلاء المسلمين في حياته وسيلمون بعد وفاته، فكم هو الأجر العظيم الذي سيناله هذا الرجل-إن شاء الله-؟، رحمه الله رحمة واسعة.

هذا وصلوا وسلموا على النبي المختار...

قصة مريم في القرآن

دروس وعبر(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، هناك نموذج فذٌّ من النساء الصالحات، وقدوةٌ هادية من الكوامل المؤمنات، ومثال مُشرق من النساء التقيات العابدات، الراضيات الصابرات.

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ١٤٣٨/٦/٢٥هـ، ٢٠١٧/٣/٢٤م.

هذه المرأة الصالحة أثنى الله تعالى عليها في القرآن الكريم، ومدحَها رسول الله ﷺ في سنته الشريفة؛ فلذلك أثنى عليها المسلمون، وأنزلوها المنزلة التي أنزلها الله تعالى إياها من غير إفراط ولا تفريط.

أما أهل الغواية، وضُلَّال طريقِ الهداية فقد حادوا عن المنهج القويم فيها؛ فاليهودُ المغضوب عليهم رموها بالفاحشة، والنصارى الضالون غَلَوا فيها حتى جعلوها في مرتبة الإلهية، فتوجه إليها بعضهم بالعبادة؛ لأنها والدة الإله عيسى في زعمهم.

هذه المرأة الصالحة هي الصدِّيقة مريم ابنة عمران عليها السلام.يقول تعالى في الثناء عليها: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾[المائدة:٧٥].

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[آل عمران:٤٢].

وعن علي رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة)[١].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (كَمُل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)[٢].

أيها المسلمون، نعيش هذا اليوم-بعون الله- مع ما قصه الله تعالى في القرآن

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

الكريم عن هذه المرأة التقية الصالحة لنأخذ الدروس والعبر من حياتها لحياتنا، ومن مواقفها لمواقفنا، ومن أحوالها لأحوالنا، ومن صلاحها لصلاح نسائنا؛ فقد أمر الله عز وجل رسوله محمداً ﷺ بذكر قصة مريم للناس فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾[مريم:١٦].

أيها الأحباب الكرام، كانت مريم عليها السلام بنت عمران من بني إسرائيل من أسرة صالحة معروفة بالتقوى، قد جعلها الله تعالى من أفضل أهل زمانها صلاحًا وتُقى، وكان من خبر أمها العابدة التقية حينما كانت حاملاً بها: أن نذرت لله تعالى هذا الجنين خادمًا لبيت المقدس بعد أن يولد ويكبر، على عادتهم في ذلك الزمان. ولكنها فوجئت عند وضعها أنها ليست ذكراً يصلح لخدمة بيت المقدس؛ إذ ليست الأنثى كالذكر في ذلك، فسمَّتها بعد ذلك مريم، ودعت لها بالتحصين هي وذريتها من الشيطان الرجيم. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[آل عمران:٣٣-٣٦].

وفي هذه الآيات الكريمات: بيان فضل عمران أبي مريم وزوجته وبنته، وحرص أمها على شكر الله، والتقرب إليه بما يحب، وفيها مشروعية التسمية عند الولادة، وذلك قبلها وبعدها، وفيها استحباب الدعاء للمولود وذريته، وتعويذه من الشيطان الرجيم. عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين، يقول: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامّة، ومن كل عين لامّة، ثم يقول: كان أبوكم

يعوِّذ بهما إسماعيل وإسحاق)[١].

وفي الآيات كذلك: بيان أن للذكر أعمالاً تناسب فطرته، لا تصلح لها الأنثى، فإذا أقحمت المرأة نفسَها في أعمال لا تناسب فطرتها شَقِيتْ وتعبت.

أيها الإخوة الفضلاء، فلما ظهر حسن نية أم مريم، وصدق تقربها لله تعالى بما نذرت به استجاب الله دعاءها، وقَبِل نذرها، وأصلح ابنتها مريم، وجعلها في كفالة زوج خالتها نبي الله زكريا عليه السلام، حينما خرجت القرعة له بعد أن اختصم صلحاء بني إسرائيل كل يريد أن يكفلها ويربيها.

فقام زكريا عليه السلام بتربيتها تربية صالحة، ورعايتها رعاية تامة، وأسكنها في محراب عبادته، فكانت تأتيها كرامات من الله تعالى من الطعام في غير أوانه؛ فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، فنشأت نشأة صالحة نقية.

قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[آل عمران:٣٧].

وقال: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[آل عمران:٤٤].

فمن هاتين الآيتين الكريمتين ظهرت إجابةُ اللهِ دعوةَ أم مريم، فعصم اللهُ مريم وابنها عيسى عليهما السلام من تسلط الشيطان عليهما، وأصلحها صلاحًا تامًا.

فعن أبي هريرة ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من بني آدم مولود

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وهو صحيح.

إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخًا من مسِّ الشيطان غير مريم وابنها).ثم يقول أبو هريرة: ﴿وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾[(١)].

وفي الآيتين: بيان عظم شأن نعمة الله على الإنسان بتربيته التربية الصالحة، وعلى أيدي مربين صالحين مخلصين، وأثر البيئة الصالحة في صلاح النساء والرجال.

وفيهما كذلك: نسبة الإنسان الصالح نِعمَ الله عليه إلى ربه وحده، لا إلى صلاحه وتقواه، أو استحقاقه.

عباد الله، لقد نشأت مريم وشبَّت وبلغت مبلغ النساء، فأراد الله تعالى- وله الحكمة البالغة- أن يخلق منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام من غير أب؛ ليكون معجزة دالة على قدرته، ويعظ بها بني إسرائيل الذين غرقوا في الماديات، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾[المؤمنون:٥٠].

فلأمرٍ ما يعلمه الله تعالى خرجت مريم عليها السلام من محرابها، وتباعدت عن قومها، فاتخذت لها مكانًا للعبادة مما يلي الشرق عن قومها، فاستترت في ذلك المكان عن أعين الناس، فأرسل الله إليها جبريل عليه السلام ملكَ الوحيِ في صورة إنسان تام الخلق، فلما جاءها في ذلك المكان الخالي -وهي الطاهرة النقية العفيفة- خافت وفزعت، فاستجارت بالله الرحمن ليرحمها من شر إنسان لا تعرفه، وذكَّرته بالله وبتقواه؛ ليعصمه ذلك من قربانها بسوء.

فطمأنها جبريلُ عليه السلام بأنه لن يصيبها بشر، وبيَّن لها أنما هو رسول ملكي من عند الله تعالى إليها ليبشرها بمجيء غلام منها يكون بكلمة من الله، ويصير له جاه وشأن في الدنيا والآخرة، وطهارة من الذنوب.

---

(١) متفق عليه.

فتعجبت مريم من حصول ذلك منها من غير نكاح أو سفاح، فذكر لها الملك أن الأمر كذلك من مجيء الولد في المنظور البشري، لكن عيسى له شأن آخر ينفرد به عن الناس بقدرة الله تعالى، حيث يُولَد من غير أب، وذلك على الله يسير.

وقد قدَّر الله وجودَ عيسى بذلك ليكون آية دالة على قدرته، ولا يمكن أن يتبدل هذا القضاء؛ لأنه قد سبق البتُّ فيه في اللوح المحفوظ.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾[مريم:١٦-٢١].

وقال: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[آل عمران:٤٥].

أحبابي الكرام، في هذه الآيات الكريمات عظات ودروس متنوعات؛ ففيها: استحباب ذكر القِصص القرآنية بين الناس من أجل الاستفادة منها دينيًا ودنيويًا.

وفيها: مشروعية الخلوة للعبادة، واعتزال الناس إذا خاف الإنسان على نفسه شرهم، وأمن في عزلته على دينه ودنياه وعقله.وفيها: أن جبريل عليه السلام لما كان يجيء من السماء بالوحي وصفه الله بالروح؛ لأن بوحي السماء حياةَ الأرواح، فمن كان أكثر امتثالاً لوحي السماء كانت روحه أكثر حياة ورونقًا، فبذلك يسعد في الدنيا والآخرة.

وفيها أيضًا: أن مجيء جبريل على صورة بشر لا على صورته الملائكية كان له

حكمة؛ فإنه لو جاء على صورته لنفرت منه مريم خوفًا، ولـمَّا استطاعت الخطاب معه، وقد جاء كذلك تامَّ الخِلقة، حسن الصورة؛ حتى لا تستوحش من رؤيته، والاستمرار في خطابه.

وفيها فضيلة عفة المرأة وحيائها وتقواها، وأن هذه الصفات تحرسها من معصية الله وسمعة السوء بين الناس، وفيها أيضًا: لجوء المسلم عند مخاوفه إلى ربه وحده؛ فهو الذي بيده الأمر كله، ويدفع الشر كله، فمن قوي لجوؤه إلى الله أَمِنَ، وقرب فرجه.

وفيها: أن الإنسان إذا كان من أهل التقوى حقًا فإن تقواه ستحول بينه وبين معصية الله، فمن أقدم على المعصية فمِن عدم تقواه أو من قلتها.

وفيها أيضًا: أن قوة الإيمان تُعرَف عند الخلوة بالمعصية التي تشتهيها النفس، فمن راقب الله انتصر إيمانه على شهوته فلم يقرب المعصية.

وفيها كذلك: أن الحياة الدنيا قائمة على الأسباب، ولكن الاسباب قد تتخلف أمام قدرة الله إذ يجعل الله تعالى بعض الأشياء حاصلة من غير سبب معروف، وهذا يربي في المسلم قوة اليقين بالله، وكثرة التفاؤل بفرجه ورحمته عند الشدائد التي لا يجد أمام عينيه ولا في ذهنه سببًا لانقشاع ظلماتها. ولكن حينما يكون واثقًا بالله مؤمنًا بقدرته العظيمة فإنه لن يقف عند الأسباب المحسوسة، ولكنه سينظر بعين اليقين إلى رب العالمين.

وفيها: فضيلة التسليم لقضاء الله وقدره، والرضا بما كتبه الله على الإنسان من أقداره، وإن كان فيها ما يكره فإن فيها العاقبة الحسنة، وحصول ما يحب.

أيها المسلمون، لقد سلَّمت مريم الصدِّيقة أمرها لقدر الله وهي ستعلم ما ستلقى

من سفهاء قومها من التهم والطعون، غير أنها لما علمت أنه أمرُ الله تعالى اطمأنت ورضيت. فنفخ جبريل في جيب قميصها حتى وصلت النفخة إلى رحمها فحصل الحمل بسبب ذلك، فخرجت إلى مكان بعيد؛ خشية من تعيير قومها لها بالحمل من غير زوج. فحملت بعيسى عليه السلام كما تحمل النساء وهي في ذلك المكان البعيد، واستمرت على حملها حتى حان وقت ولادتها فألجأتها آلام الطلق إلى نخلة استندت عليها عند ولادتها في مكان مرتفع. ولما كانت في تلك الحال أضحت تعاني أنواعًا من الكروب: كرب الولادة، وكرب قلة الخبرة فيها، لكونها عذراء وليس بجانبها أحد، والكرب الكبير لديها: ماذا ستقول لقومها إذا رجعت إليهم بوليد وهي ليست بذات زوج، وقد عُرفت بينهم بالعفة والعبادة! وهذا الكرب الأخير هو الذي تمنت بسببه الموت قبل أن يكون عندها حمل، ولم تتمن الموت بعد حصوله؛ لأنه لو تحقق ذلك لما نفى عنها التهمة، كما تمنت كذلك أن لا تكون شيئًا يُعرف أو يذكر أو يهتم به؛ لزهد أهله فيه، وهذا الذي تمنته دفع إليه الخوف من العار والفضيحة. وبينما هي في صراع نفسي. وجسدي شديدين إذ سمعت صوت وليدها بين رجليها يطمئنها، ويسكن من روعها، وينتشلها من بين أحزانها، ويسكب في أذنيها كلماتِ السرور والتطمين، والتفاؤل والرضا فيقول لها: لا تستمري في الحزن؛ فإنه سيذهب، ولكن التفتي الآن إلى ما ينفعك وهو الطعام والشراب، فقد جعل الله تحتك -إكرامًا لك- جدولاً جاريًا، وفوقك رطبًا طريًا، فما عليك إلا أن تشربي من الماء، وتهزي جذع النخلة تساقط عليك تمراً رطبًا غضًا جُنيَ من ساعته. فكلي من الرطب واشربي من الماء، وطيبي نفسًا بهذا المولود، فإن جاءت ساعة العودة إلى القوم فأمسكي عن الكلام نذراً لله، وأحيلي التكلم إليّ فأنا سأجيب عنك.

قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا * فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[مريم:٢٢-٢٦].

أيها الأحباب الكرام، يتجلى لنا من هذه الآيات الكريمات: بيان فضل الأم، وشدة ما تعاني في حملها وولادتها وتربية ولدها، فيا ويل أهل العقوق إذا جاء يوم استيفاء الحقوق.

وفيها أيضًا: جواز تمني الموت للخوف على الدين، أما النهي عن تمني الموت فهو في حق من تمناه لمرض أو فقر أو نحو ذلك من مصائب الدنيا. وفيها كذلك: أن المنازل العالية عند الله لا تُنال إلا بعد مقاساة صروف البلاء، وتحمل شدة المصائب.

وفيها: أن الشدائد إذا تناهت واشتدت آذنت بقرب فرج كبير. وفيها: أن المنح العظيمة قد تخرج من أرحام المحن الجسيمة؛ فمريم عليها السلام وهي مطوَّقة بتلك الكرب العظام يكرمها الله بطعام وشراب على غير العادة، ويكرمها بإنطاق وليدها ساعة ولادتها به، وهذا أمر خارق للعادة، فتسمع طمأنته لها فتنسى بذلك تلك الكربات كحال تلك المرأة المؤمنة التي أُمر بإلقائها في النار مع وليدها لإيمانها فقال لها وليدها في تلك الساعة الحرجة: (يا أمهْ، اصبري؛ فإنك على الحق)(١).

وفي الآيات أيضًا: العمل بالأسباب المشروعة لجلب خير أو دفع شر، ومنه جلب

---

(١) رواه مسلم.

الرزق؛ فقد أمر الله مريم بهز جذع النخلة لإسقاط الرطب مع أنه لو أراد لأعطاها ذلك من غير هز.

وفيها: أن التعبد لله بالصمت عن الكلام كان مشروعًا في الأمم قبلنا، أما في أمتنا فقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينا النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل، نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم.فقال النبي ﷺ: (مرهْ فليتكلم وليستظل، وليقعد وليتم صومه)[١].

وفيها: أن من حكم امتناع مريم عن الكلام: أن تحيل الكلام على وليدها ليكون ذلك أنفى لتهمتها، وأقوى لحجتها حينما يتكلم وهو ما زال وليداً.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه البخاري.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، **أما بعد:**

أيها المسلمون، فبعد أن ولدت مريم بعيسى عليه السلام رجعت إلى قومها ووليدها في حضنها، والناس يعرفون عن أسرتها الصلاح والعفة، ويعرفون عنها الطهارة والعبادة، وهي ليست ذات زواج، فلما رأوا ذلك الوليد معها، وعرفوا أنه ابنها أنكروا ذلك عليها، ووصفوها بالفاحشة بطريق غير مباشر، فقالوا لها: يا مريم، لقد جئت بشيء شنيع عجيب عظيم لا يليق بمثلك، فأنت أخت الرجل الصالح هارون، أو شبيهة الرجل الصالح هارون في عبادته، ولم يكن أبوك وأمك من أهل البغاء فكيف جئت أنت على خلاف ما هم عليه؟!

فأشارت إلى مولودها ليسألوه، وهو سيتولى الجواب عنها، ولما جرت العادة أن الطفل في مهده لا يتكلم استهجنوا كلامها، وتعجبوا قائلين: كيف نكلم طفلاً ما زال في مهده رضيعًا.

فما انتهوا من كلمتهم الأخيرة إلا وصعقتهم المفاجأة بكلام عيسى مبرئًا أمه مما اتهموها به، مبينًا أنه خلق بقدرة الله عبداً لله، وأنه سيعطى عندما يكبر كتابًا من السماء لهداية قومه، وسيكون نبيًا لهم. وأخبرهم بأن الله سيجعله عظيم النفع والخير في حياته أينما وجد، وأعلمهم أن الله أوصاه بالمحافظة على الصلاة، وأداء الزكاة عند قدرته على ذلك مدة بقائه حيًا، وأوصاه كذلك ببر والدته التي تحملت هذا العناء وصبرت لأمر الله، وبين لهم أن الله تعالى لم يجعله متكبراً مغروراً غليظًا ولا شقيًا ولا عصيًا. وختم لهم

الجواب بأن الله تعالى قد أكرمه بالسلامة والأمان عند ولادته، وعند موته وعند بعثه.

قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[مريم:٢٧-٣٣].

أيها الإخوة الفضلاء، ختمت الآيات الكريمات من قصة العفيفة الصديقة مريم عليها السلام بدروس نافعة، فمنها: أنه قد طبع كثير من الناس على تقديم سوء الظن على حسنه، وقلة التثبت في الأمور قبل إصدار الأحكام، ومنها: أن عيون الناس وألسنتهم لا ترحم صالحًا زل، أو اتهم بتهمة هو منها بريء. ومنها: أن القذف بالفاحشة بطريق التلميح إذا كان يفهم منه معنى القذف فهمًا واضحًا فإن صاحبه يحد حد القذف، ومنها: أن أول كلمة نطق بها عيسى بين بني إسرائيل هي رد على النصارى الذين اتخذوا عيسى إلهًا عبدوه مع الله تعالى، فقال: ﴿إني عبد الله﴾، وليس إلهًا، وفيها: أهمية الصلاة والزكاة، وبر الوالدين، وفيها: أن الله تعالى أكرم عيسى بالأمان في أخوف ثلاثة مواطن، قال سفيان بن عيينة: " أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يولد، فيرى نفسه خارجًا مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قومًا لم يكن عاينهم، ويوم يبعث، فيرى نفسه في محشر عظيم "(١).

هذا وصلوا وسلموا على خير البرية...

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/٢١٧).

آداب النذر وأحكامه(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، إن النذر عمل من الأعمال التي كانت تُعمل في الأمم السابقة قبل أمة الإسلام، سواء في الديانات السماوية، أم في الديانات الوثنية الجاهلية؛ **فقد قال تعالى** عن امرأة عمران: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[آل عمران:٣٥]، **وقال** عن مريم: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ١٤/ ١١/ ١٤٣٩هـ، الموافق: ٢٧/ ٧/ ٢٠١٨م.

إِنسِيًّا﴾[مريم:٢٦]. وأما في الديانات غير السماوية فكان أتباعها من المشركين ينذرون لأصنامهم وآلهتهم المعبودة من دون الله تعالى.فلما جاء الإسلام نهى عن تلك النذور التي تقدم لغير الله تعالى كتقديمها للأصنام أو الأوثان أو غيرها، وأمر كذلك بالوفاء بالنذر الذي لله تعالى ولا معصية فيه له.

"وقد عَرفت العربُ أيضًا النذر في الجاهلية، فقد نذر عبد المطلب أنه إن رُزق عشرة أولاد ليذبحنَّ عاشرهم؛ قرباناً للكعبة، وكان ابنه العاشر هو عبد الله ثاني الذبيحين، وأكرمْ بها مزية، ونذرت نتيلة زوج عبد المطلب - لما افتقدت ابنها العباس وهو صغير - أنها إن وجدته لتكسون الكعبة الديباج ففعلت.وهي أول من كسى الكعبة الديباج"(١).

عباد الله، إن النذر هو إلزام الإنسان نفسه بشيء لا يجب عليه في أصل الشرع، وهو عمل شائع بين المسلمين في كل زمان، وفيه مسائل قد تخفى على بعض الناس؛ فمنهم من لا يسأل أهلَ العلم عنها فيبقى لذلك في أخطائه، ومنهم من يجهل تلك المسائل فيرجع إلى ذوي العلم فيسألهم عنها فيستنير عند ذلك فهمُه ويستدُّ عمله.

لهذا ما أحسنَ أن نعلم هذه المسائل المتعلقة بالنذر: آدابًا وأحكامًا! حتى نعرف الصواب فنأتيه، والخطأ فنتجنبه.

أيها المسلمون، اعلموا أن الإقدام على النذر المحرَّم لا يجوز قطعًا، كما سيأتي بيانه إن شاء الله، وأما عقد النذر الذي لا معصية فيه لله تعالى عند عقده فإنه مكروه يحسن بالمسلم تركه والابتعاد عنه؛ لما يترتب عليه من عواقب أو يدفع إليه من أسباب غير صحيحة، وتوضيح هذه الكراهة يتجلى **في أمور:**

---

(١) التحرير والتنوير (٢/٥٣٥).

أولاها: أن النذر لم تتمحض فيه نية التقرب إلى الله تعالى، بل سلك الناذر فيه سبيل المعاوضات[١]، مثل: إن نجحت في الاختبار فسأصوم كذا، فهو لن يصوم ذلك الصيام إلا بتحقق النجاح، فإن لم ينجح فلن يصوم ذلك الصوم، وهذا من عمل البخلاء، وليس بخير، فعن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه نهى عن النذر وقال: (إنه لا يأتي بخير، وإنما يُستخرج من البخيل)[٢].

قال بعض أهل العلم: "وإنما يخرج البخيل ما تعيَّن عليه؛ إذ لو أخرج ما يتبرع به لكان جوادا"[٣].

وثانيها: أن الناذر يتوهم أنه إن نذر ربما حصل له ما علق النذر عليه، وهذا وهم جاء الشرع بإبطاله[٤]، فيظن أن الله تعالى يفعل ذلك الغرض لأجل النذر وإذا لم ينذر لا يحققه سبحانه له، وهذا باطل[٥]، فكأن الناذر غير واثق بالله- عز وجل-، بحيث يعتقد أن الله لا يعطيه الشفاء إلا إذا أعطاه مقابله؛ ولهذا إذا أيس بعض الناس من الشفاء ذهبوا ينذرون! وفي هذا سوء ظن بالله- عز وجل-[٦].

ثالثها: أن النذر لا يقدِّم ولا يؤخر شيئاً من قضاء الله وقدره، فلا يقع به ما لم يكن في قضاء الله وقدره أنه سيقع، ولا يدفع به ما كان واقعاً[٧].

---

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية (١٣٩/٤٠).

(٢) رواه البخاري.

(٣) فتح الباري (٥٨٠/١١).

(٤) فتاوى الشبكة الإسلامية (٤٩٤٢/٤).

(٥) فتاوى الشبكة الإسلامية (٢٣٢٨/٢).

(٦) القول المفيد على كتاب التوحيد، لابن عثيمين (٢٤٨/١).

(٧) فتاوى الشبكة الإسلامية . (١٥١٨/٢).

رابعها: أن الشرع لم يمدح عقد النذر، وإنما مدح الموفين به، وفرق بين الأمرين، فمن وفى بنذره مُدح شرعاً؛ لأنه أدى ما وجب عليه، ولكنه لا يمدح لإيجابه ذلك الواجب على نفسه(١).

خامسها: أن النذر إلزام للإنسان بما جعله الله في حل منه(٢)، وفي ذلك زيادة تكليف على نفسه، ففيه زيادة واجبات على المرء قد لا يتمكن من القيام بها أو يتساهل فيها فيكون مذموماً عند الله(٣).

سادسها: أن الغالب أن الذي ينذر يندم، وتجده يسأل العلماء يمينًا وشمالاً يريد الخلاص مما نذر لثقله ومشقته عليه(٤).

سابعها: أن النذر لو كان مستحبًا لفعله رسول الله ﷺ وأصحابه، إلا إنهم لم يفعلوه، وعدم فعلهم له دليل على كراهته(٥).

وهذا الحكم بالكراهة للنذر الذي ليس فيه معصية ما جاء إلا بناءً على أحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ، **فمنها:**

عن سعيد بن الحارث أنه سمع ابن عمر رضي الله عنهما يقول: أوَ لم يُنهَوا عن النذر؟! إن النبي ﷺ قال: (إن النذر لا يقدِّم شيئاً ولا يؤخر، وإنما يستخرج بالنذر من البخيل)(٦).

---

(١) المصدر السابق.

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد، لابن عثيمين (١/ ٢٣٥).

(٣) فتاوى الشبكة الإسلامية . (٢/ ١٤٥٧).

(٤) القول المفيد على كتاب التوحيد، لابن عثيمين (١/ ٢٣٥).

(٥) الموسوعة الفقهية الكويتية (٤٠/ ١٤٠)

(٦) رواه البخاري.

وأصل القصة كما في مستدرك الحاكم: عن سعيد بن الحارث قال: كنت عند ابن عمر فأتاه مسعود بن عمرو أحد بني عمرو بن كعب فقال: يا أبا عبد الرحمن، إن ابني كان مع عمر بن عبيد الله بن معمر بأرض فارس فوقع فيها وباء وطاعون شديد، فجعلتُ على نفسي-لئن سلّم الله ابني ليمشينَّ إلى بيت الله تعالى، فقدِم علينا وهو مريض ثم مات، فما تقول؟ فقال ابن عمر: أو لم تنهوا عن النذر؟! ثم ساق الحديث.

وعن عبد الله بن عمر قال: أخذ رسول الله ﷺ يومًا ينهانا عن النذر ويقول: (إنه لا يرد شيئًا، وإنما يستخرج به من الشحيح)[١].

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (لا يأتي ابنَ آدم النذرُ بشيء لم يكن قد قدَّرتُه، ولكن يلقيه القدر وقد قدَّرتُه له أستخرج به من البخيل)[٢].

وعنه عن النبي ﷺ أنه نهى عن النذر وقال: (إنه لا يرد من القدر، وإنما يستخرج به من البخيل)[٣].

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: (لا تنذروا؛ فإن النذر لا يغني من القدر شيئًا، وإنما يستخرج من البخيل)[٤].

وعنه أن النبي ﷺ قال: (إن النذر لا يقرِّب من ابن آدم شيئًا لم يكن الله قدره له، ولكن النذر يوافق القدر، فيخرج بذلك من البخيل ما لم يكن البخيل يريد أن يخرج)[٥].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه مسلم.

فبهذا يتبين أن الأولى للمسلم أن لا ينذر؛ لما سبق ذكره.

أيها الأحباب الكرام، إن النذر ليس نوعًا واحداً **بل أنواع متعددة:**

فالنوع الأول: نذر اللَّجَاج والغضب، وهو الذي يخرجه الإنسان مخرجَ اليمين للحث على فعل شيء أو المنع منه، ولم يكن الناذر قاصداً القُربة، مثل: إن كلمت فلانًا فعلي صدقة كذا وكذا، أو إن لم أكن صادقاً فعلي صوم كذا(١).

فالناذر هذا النذر مخير بين أن يفي بنذره، وبين أن يكفر كفارة يمين؛ لأنه إن تصدق أو صام في هذين المثالين فقد وفى بنذره وإن لم يفعل حنث، والحانث في اليمين يكفر كفارة يمين(٢).

النوع الثاني: نذر الطاعة والتبرر مثل: الصلاة والصدقة والصيام والحج والاعتكاف وغير ذلك من الطاعات، كأن يقول: لله علي أن أصوم كذا من الأيام، أو إن شفى الله مريضي- فعلي صدقة كذا أو صوم كذا. فهذا يجب عليه الوفاء به؛ لقول النبي ﷺ (من نذر أن يطيع الله فليطعه)(٣). ولأن الله مدح الموفين بهذا النذر فقال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾[الإنسان:٧](٤).

النوع الثالث: النذر المبهم، وهو أن يقول: لله على نذر، ولم يحدد ما هو هذا النذر،

---

(١) فتاوى الشبكة الإسلامية (٢/٦٥)، الموسوعة الفقهية الكويتية (٤٠/١٤٣)، الشرح الممتع على زاد المستقنع، لابن عثيمين (١٥/٢١١).

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد، لابن عثيمين (١/٢٣٨).

(٣) متفق عليه.

(٤) فتاوى الشبكة الإسلامية (٢/٦٥)، الشرح الممتع على زاد المستقنع، لابن عثيمين (١٥/٢١٨)، الموسوعة الفقهية الكويتية (٤٠/١٤٦).

فهذا تجب به كفارة يمين عند أكثر العلماء إذا لم يفِ بشيء من النذر[١]. لما روى الترمذي عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: (كفارة النذر إذا لم يُسمَّ كفارة يمين)[٢].

النوع الرابع: نذر المعصية، كأن ينذر بشرب خمر أو أذى مسلم أو قطيعة رحم، فهذا لا يحل الوفاء به، لقوله عليه الصلاة والسلام: (ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه)[٣]، ويجب على الناذر كفارة يمين؛ لحديث: (لا نذر في معصية، وكفارته كفارة يمين)[٤][٥].

النوع الخامس: نذر المباح؛ مثل لو نذر أن يلبس ثوبًا، فإن شاء لبسه وإن شاء لم يلبسه، وكفر كفارة يمين[٦]، لقوله عليه الصلاة والسلام: (كفارة النذر كفارة اليمين)[٧].

النوع السادس: نذر الواجب، كالصلاة المكتوبة، كأن يقول: نذرت لله أن أصلي الظهر، فلا ينعقد نذره هذا؛ لأن النذر التزام، ولا يصح التزام ما هو لازم له[٨].

---

(١) فتاوى الشبكة الإسلامية (٢/٦٥)، الموسوعة الفقهية الكويتية (٤٠/١٥٨).

(٢) رواه الترمذي، وهو ضعيف.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه أحمد والنسائي وأبو داود وابن ماجه، وهو صحيح.

(٥) فتاوى الشبكة الإسلامية (٢/٦٥)، الموسوعة الفقهية الكويتية (٤٠/١٤٨)، الشرح الممتع على زاد المستقنع، لابن عثيمين (١٥/٢١٤).

(٦) فتاوى الشبكة الإسلامية (٢/٦٥)، الموسوعة الفقهية الكويتية (٤٠/١٥٢)، الشرح الممتع على زاد المستقنع (١٥/٢١٣).

(٧) رواه مسلم.

(٨) فتاوى الشبكة الإسلامية (٢/٦٥).

النوع السابع: نذر المستحيل؛ كأن ينذر صوم أمس، فهذا لا ينعقد ولا يوجب شيئًا(١).

أيها المسلمون، إن النذر الغالب بين الناس هو النذر بالطاعة، فعلى المسلم إذا نذر بطاعة من طاعات الله من صلاة نافلة أو صيام أو صدقة أو حج أو نحو ذلك أن يبادر إلى الوفاء بنذره في حال قدرته؛ فإن ذلك من المسابقة إلى الخيرات-مع أن الأفضل كما قلنا عدم النذر- لكن من حصل منه ذلك فعليه أن يسارع إلى أداء هذا الواجب عليه، فقد مدح الله الأبرار بأعمال نالوا بها الجنة، كان منها: الوفاء بالنذر، قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾[الإنسان:٧].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن عمر سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: كنت نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام؟ قال: (فأوف بنذرك)(٢).وبوَّب الإمام البخاري في صحيحه: باب إثم من لا يفي بالنذر، وساق حديث: عمران بن حصين يحدث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم ينذرون ولا يفون ويخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يستشهدون ويظهر فيهم السِّمَن)(٣).

قال بعض أهل العلم: " هذا الحديث يوجب الذم والنقص لمن لم يفِ بالنذر، وهذا من أشراط الساعة، وقرنُ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ذمَّ من لم يف بالنذر بخيانة الأمانة؛ شهدَ به كتاب الله العزيز وجاء به على لسان الرسول، وذلك أن من لم يف لله بما عاهده فقد خان أمانته في نقضه ما جعل لربه عز وجل على نفسه، فأشبه ذلك من خان غيره فيما

(١) فتاوى الشبكة الإسلامية (٢/٦٥)، الموسوعة الفقهية الكويتية (٤٠/١٥٧).

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

ائتمنه عليه، والأول أعظم خيانة وأشد إثـمًا، وأثنى الله تعالى على أهل الوفاء فقال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾[الإنسان:٧]. فدل هذا أن الوفاء بالنذر مما يدفع به شر ذلك اليوم"(١).

ومما ينبغي أن يُعلَم أن من نذر نذراً مشروطًا فلم يتحقق الشرط، فليس عليه شيء، مثل لو قال: إن شفى الله مريضي صمت كذا، فمات المريض، فليس على الناذر عند ذلك صيام.

معشر المسلمين، هناك مسائل مهمة نحتاجها في معرفة النذور، **فمن ذلك:**

أولاً: أن من نذر صيام شهر معين كأن يقول: لله علي صيام شهر ربيع فعليه أن يصومه صيامًا متتابعًا، وإن نذر صيام شهر من غير تحديد صام أي شهر، غير شهر رمضان، وبالنسبة للتتابع في الشهر غير المعين فهذا راجع إلى نيته فإن نوى التتابع وجب عليه، وإن لم ينوه فرّق أيام صيامه فيه إن شاء(٢).

ثانيًا: إذا نذر الناذر نذراً مقروناً بشرط، أو محدداً بوقت فتحقق الشرط وجاء الوقت؛ فيجب الوفاء بالنذر على الفور، ولا يجوز تأخيره مثل: لله علي نذر أن أتصدق في شهر محرم، أو شفى الله مريضي، فإن أخره عن وقته المحدد له أثم ووجب عليه كفارة يمين للتأخير مع القيام بالنذر. أما إذا كان معذوراً فلا يجب عليه إلا الوفاء(٣).

ثالثًا: من نذر أن يتصدق بجميع ماله لله ليُصرف في سبيل الله، فيكفيه الثلث ولا يلزمه صرف الجميع، على القول الراجح(٤).

---

(١) شرح صحيح البخاري. لابن بطال (٦/١٥٦).

(٢) الشرح الممتع على زاد المستقنع (١٥/ ٢٣٠).

(٣) الشرح الممتع على زاد المستقنع (١٥/ ٢٢٠).

(٤) أضواء البيان (٥/ ٢٥٠).

رابعًا: من نذر أن يذبح ذبيحة ولم يحدد نوع الذبيحة، أجزأه أقل ما يجزئ في الأضحية، وهي من الضأن ما استكمل سنة ودخل في الثانية، ومن المعز ما استكمل سنتين، وهذه المسألة راجعة إلى قاعدة: أن النذر يُحْمل على أقل واجب من ذلك النوع(١).

خامسًا: من نسي نذراً مشروعًا فعليه أن يتحرى ويحاول تذكر ما نذره، فإن يئس من تذكر ذلك فعليه أن يكفر كفارة يمين؛ لأن هذا النذر صار في حكم النذر الذي لم يسم، وذلك النوع من النذر الواجب فيه كفارة يمين عند الجمهور؛ لما ثبت في صحيح مسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كفارة النذر كفارة يمين)، وهذا عند العلماء في كفارة النذر المطلق الذي لم يسم، ويؤيد ذلك الرواية التي في سنن الترمذي: (كفارة النذر إذا لم يسم كفارة يمين)(٢).

سادسًا: من نذر شيئًا فأخر الوفاء حتى فات ذلك الشيء فعليه كفارة يمين؛ مثل: لو نذر شخص أن يتصدق بجزء من ماله لشخص من الناس فتأخر فمات ذلك الشخص المتصدَّق عليه فعلى الناذر كفارة يمين(٣).

سابعًا: من حدَّث نفسه بالنذر دون أن يتلفظ بصيغة من صيغ النذر مثل: لله علي نذر، أو إن حصل كذا فعلي أن أعمل كذا؛ فإن هذا لا يعد نذراً؛ لأنه يشترط في النذر التلفظ والقول ولا يلزم بالنية.

لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل

---

(١) فتاوى الشبكة الإسلامية (٥/٨٠٥١).

(٢) فتاوى الشبكة الإسلامية (٢/٧٨٥).

(٣) فتاوى الشبكة الإسلامية (٥/٢٢٨).

أو تكلَّم)[١]. قال الكرماني: (فيه –أي: الحديث– أن الوجود الذهني لا أثر له، وإنما الاعتبار بالوجود القولي في القوليات، والعملي في العمليات)[٢][٣].

وكذلك النذر لا ينعقد إلا بالألفاظ الجازمة كـلله علي كذا، أما مجرد العزم، أو قول الإنسان: سوف أو غيرها مما ليس فيه الالتزام القطعي، فليس نذراً، ولا يجب به شيء[٤].

ثامنًا: من نذر نذراً فعلّقه على مشيئة الله فلا يلزمه، فلو قال: إن شفى الله مريضي. فللَّه علي نذر إن شاء الله، فلا شيء عليه لو ترك، وكذلك لو قال: لله عليَّ نذرٌ أن لا أكلم فلاناً إن شاء الله، ثم كلَّمه فلا شيء عليه[٥].

تاسعًا: من سبق النذر إلى لسانه من غير قصد فلا يلزمه شيء؛ لأنه يشترط في النذر النية والقصد[٦].

عاشراً: من تعذر عليه الوفاء بالنذر على الوجه الذي حدده وكان ذلك الشيء مما له قيمة، جاز إعطاء قيمته بعد ذهاب عينه، كامرأة نذرت إن شفى الله مريضها أن تتصدق بعشرة جرامات من حليِّها ولكنها باعته قبل أن تفي بنذرها، فإن عليها إخراج صدقة بقيمة تلك الجرامات بالسعر الذي كان عند شفاء مريضها[٧].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الرحيم.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) فتح الباري(١١/٥٥٢).

(٣) فتاوى الشبكة الإسلامية (٣/٦٩٨).

(٤) فتاوى الشبكة الإسلامية (٤/٦٥٧٢)

(٥) فتاوى الشبكة الإسلامية . (٤/٨٢٥٥)، الشرح الممتع على زاد المستقنع (١٥/٢٢١).

(٦) فتاوى الشبكة الإسلامية (٥/٤٠٨٢)

(٧) فتاوى الشبكة الإسلامية (٥/٥٩٤١).

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد،

أيها المسلمون، إن المسلم قد يغلبه الهوى والشيطانُ على معصية من المعاصي فيرجع إليه رشدُه، ويحضره ندمُه على فعلها، فيخشى على نفسه المعاودة إلى تلك المعصية، فلكي يمنعها من العودة ينذر فيقول: إن عدتُ إلى معصية كذا فعليّ صيام شهر أو الصدقة بكذا وكذا. وهذا النذر نذرٌ على ترك محرَّم، وتركُ المحرم واجب من غير حاجة إلى نذر، لهذا كان على المسلم وجوبًا تركُ هذه المعصية، فإن عاد إليها وفى بنذره، فإن لم يفِ فعليه كفارة يمين(١).

إن على من نذر نذراً أن يسارع إلى الوفاء قبل مجيء الموت؛ فإن الموت يأتي بغتة، فإن مات فعلى أوليائه الوفاء بنذره استحبابًا؛ لحديث عبد الله بن عباس أن سعد بن عبادة الأنصاري استفتى النبي ﷺ في نذر كان على أمه فتوفيت قبل أن تقضيه، فأفتاه أن يقضيه عنها، فكانت سُنَّةً بعدُ(٢).

"أي: صار قضاء الوارث ما على المورّث طريقة شرعية، أعم من أن يكون وجوبًا أو ندباً"(٣).

---

(١) فتاوى الشبكة الإسلامية (٥/٨٠٢٧).

(٢) متفق عليه.

(٣) فتح الباري (١٩/٧٠).

ومن القضايا التي قد تطرأ على بعض الناس: أن ينذر نذراً ثم يعجز عن الوفاء به، كمن نذر أن يصوم شهرين متتابعين، فحصل له مرض واستمر به حتى منعه من الصيام، فهذا عليه به كفارة يمين، فقد ورد عن ابن عباس أنه قال: " ومن نذر نذراً لا يطيقه فكفارته كفارة يمين "(١)(٢).

عباد الله، إن من رواسب الجهل والجاهلية، ومظاهر الانحراف عن الطريقة المحمدية: أن يبقى في أمة التوحيد: النذر لغير الله تعالى، فالنذر عبادة، والعبادات لا يجوز صرفها إلا لله عز وجل.

فمن صور النذر لغير الله: أن ينذر الإنسان بذبائح للجن؛ دفعًا لشرهم.

أو يقدم ذبائح وأموالاً لأصحاب القبور؛ طلبًا للنفع أو دفعًا للضر، وهذا من الجهل الخطير، والإثم الكبير. قال شيخ الإسلام رحمه الله: " وأما النذر للموتى من الأنبياء والمشايخ وغيرهم، أو لقبورهم أو المقيمين عند قبورهم فهو نذر شرك ومعصية لله تعالى، سواء كان النذر نفقة أو ذهباً أو غير ذلك، وهو شبيه بمن ينذر للكنائس والرهبان وبيوت الأصنام "(٣).

وقال ابن الأمير الصنعاني رحمه الله: " قد علم كل عاقل أن الأموال عزيزة عند أهلها يسعون في جمعها ولو بارتكاب كل معصية، ويقطعون الفيافي من أدنى الأرض والقاصي، فلا يبذل أحد من ماله شيئًا إلا لجلب نفع أكثر منه أو دفع ضرر. فالناذر للقبر ما أخرج ماله إلا لذلك، وهذا اعتقاد باطل، ولو عرف الناذر بطلان ما أراده ما

---

(١) رواه أبو داود، وأشار إلى وقفه على ابن عباس.

(٢) فتاوى الشبكة الإسلامية (٢/٩٥٦).

(٣) مجموع الفتاوى(١١/٥٠٤).

أخرج درهماً... فالواجب تعريف من أخرج النذر بأنه إضاعة لماله، وأنه لا ينفعه ما يخرجه ولا يدفع عنه ضرراً... وما كانت النذور للأصنام والأوثان إلا على هذا الأسلوب، يعتقد الناذر جلب النفع في الصنم ودفع الضرر، فينذر له جزءاً من ماله ويقاسمه في غلات أطيانه، ويأتي به إلى سدنة الأصنام فيقبضونه منه ويوهمونه حقيقة عقيدته، وكذلك يأتي بنحيرته فينحرها بباب الصنم.وهذه الأفعال هي التي بعث الله الرسل لإزالتها ومحوها وإتلافها والنهي عنها"(١).

وقال أيضًا: "وهذه النذور بالأموال وجعل قسط للقبر كما يجعلون شيئًا من الزرع يسمونه (تِلْمًا) في بعض الجهات اليمينة، وهذا شيء ما بلغ إليه عبّاد الأصنام، وهو داخل تحت قول الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾[النحل:٥٦] بلا شك ولا ريب"(٢).

فيا أيها المسلمون، ألزِموا ألسنتكم شرعَ الله تعالى فلا تتفوّهوا إلا بما يوفق ذلك الشرعَ الحكيم، فما كان من مخالفة له فلا تطرأنَّ على ألسنتكم إلا للتحذير منها، وإن أردتم أن تتقربوا إلى الله تعالى بقُربة؛ شكراً لله على حصول نعمة أو دفع نقمة، أو حثًا على خير، أو دفعًا لشر؛ فلا تلجأوا إلى النذر؛ لأن الناذر قد يندم على عقد النذر حينما يشق على نفسه الوفاء به، أو لا تطاوعه نفسه على أدائه فالأولى ترك النذر، لكن من نذر نذرَ طاعةٍ فعليه الوفاء به، فـ(من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه).

هذا وصلوا وسلموا على القدوة المهداة...

---

(١) تطهير الاعتقاد، الصنعاني (ص:١٩).

(٢) تطهير الاعتقاد، الصنعاني (ص:١٤).

آدابُ اليمين وأحكامُها (١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، أُقسمُ بالله، أَحلفُ بالله، والله وبالله وتالله، والذي نفسي بيده، أو أُقسم بكذا، أو وكذا إنه كان كيت وكيت. هذه جملة من الصيغ التي تجري على ألسنة الناس حين إرادة اليمين وتأكيد الأمور.

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ٢٢/١٠/١٤٣٩هـ، ٦/٧/٢٠١٨م.

ولاشك أن هذه المسألة من مسائل الدين التي بينتها الشريعة الإسلامية؛ فذكرتْ آدابها، ووضحت أحكامها. وعلينا نحن المسلمين أن نعرف ذلك؛ حتى نعلم الحلال فنأتيه، وندري بالحرام فنجتنبه.

ومن المشاهد في الواقع وجود جهلٍ بهذه المسألة لدى بعض المسلمين؛ حيث يقعون في محظورات، وأخطاء تتعلق بالأيمان.

فجدير بنا أن نتفقه في هذا الموضوع؛ حتى لا نقع فيما حرم الله تعالى ورسوله في الإقسام والأيمان.

عباد الله، يستعمل الإنسانُ اليمين حينما يريد أن يؤكد خبراً، أو يحث على فعل شيء، أو يمنع منه، فهو وسيلة له عندما يريد أن يقنع مخاطبه بصدقه إن كان خبراً، أو بعدم إخلافه إن كان قوله وعداً أو وعيداً، وهو وسيلة له لتقوية عزمه على فعل شيء يخشى تركه، أو ترك شيء يخشى فعله[1].

إن اليمين مشروعة ولا منعَ منها؛ فقد أقسم الله تعالى في مواضع كثيرة من كتابه؛ كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[الذاريات:٢٣]، وقال: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾[الضحى:١-٣]. وأقسم رسول الله ﷺ في أحوال مختلفة، كقوله عليه الصلاة والسلام: (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)[2]. وقوله عليه الصلاة والسلام: (وايم الله إن كان لخليقاً للإمارة وإن كان لمن أحب الناس)[3].

---

(١) ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (٧/ ٢٤٥).

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

واليمين يختلف حكمها باختلاف موضوعها الذي جاءت له؛ فقد تكون اليمين واجبة إذا كان المقصود بها إثباتَ الحق لصاحبه، وذلك حينما يتوقف إثبات الحق على اليمين، وتكون اليمين محرمة إذا كانت على فعل محرم، أو ترك واجب، مثل لو حلف رجل على ترك الصلاة، أو شرب الخمر. وتكون اليمين مستحبة إذا توقف عليها فعل مستحب، وكذلك تكون مكروهة إذا توقف عليها فعل مكروه(١).

أيها الإخوة الفضلاء، ومع كون اليمين مشروعة إلا أن الأفضل للمسلم أن لا يكثر منها؛ لأنه ربما يعجز عن الوفاء بما حلف عليه، إلا أن تكون اليمين في طاعة من فعل واجب أو مندوب وترك حرام أو مكروه(٢). يقول الله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾[المائدة:٨٩]. أي: " قلِّلوها، ولا تكثروا منها، أو احفظوها إذا حلفتم عن الحنث"(٣). والمقصود" ولا تكثروا من الأيمان الصادقة، فضلاً عن الأيمان الكاذبة، وهو وجه في قوله تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾[البقرة:٢٢٤]... وإذا حلفتم فلا تنسوا ما حلفتم عليه ولا تحنثوا فيه إلا لضرورة عارضة أو مصلحة راجحة"(٤).

ومن الأحوال المؤسفة-معشر المسلمين- أن نجد بعض الناس قد لانت ألسنتهم بكثرة الأيمان من غير حاجة، فصاروا لا يستطيعون عدَّ ما يحلفون من الأيمان كل يوم، فهم يسرفون في القسم في أمور لا تحتاج إلى قسم، في بيوتهم وأماكن أعمالهم ومجالسهم مع غيرهم. وتعظيمُ الله وتقديسه يقتضي التقليل من ذلك.

---

(١) ينظر: زاد المستقنع (١٥/١١٧).

(٢) ينظر: الفقه الإسلامي وأدلته (٤/١٠).

(٣) تفسير النيسابوري (٣/٢٠٥).

(٤) تفسير المنار (٧/٣٤).

أيها المسلمون، إن على المسلم إذا أراد أن يحلف: أن لا يحلف إلا بالله تعالى وحده، ولا يحلف بغيره، فيقسم باسم من أسماء الله تعالى؛ مثل: والله، ورب الكعبة، أو أقسم برب العالمين، أو يقسم بصفة من صفاته تعالى؛ مثل: وعزة الله، وقدرة الله، والذي رفع السماء بلا عمد، ونحو ذلك من الصفات.

قال رسول ﷺ: (من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت)(١).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (بينا أيوب يغتسل عريانًا فخرَّ عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتُك عما ترى؟ قال: بلى، وعزتك، ولكن لا غنى بي عن بركتك)(٢).

وعلى هذا لا يحل للمرء أن يحلف بغير الله تعالى، وإنما يحلف المخلوق بالخالق، ولا يحلف بشيء من الخلائق؛ من الملائكة أو الأنبياء أو الصالحين أو الأولياء أو العظماء أو الآباء، **عن** ابن عمر رضي الله عنهما: أنه أدرك عمر بن الخطاب في ركب وهو يحلف بأبيه، فناداهم رسول الله ﷺ: (ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفًا فليحلف بالله وإلا فليصمت) قال عمر: فوالله ما حلفت بها منذ سمعت رسول الله ﷺ نهى عنها ذاكراً ولا آثراً(٣).

وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول: لا والكعبة، فقال ابن عمر: لا يُحلَف بغير الله؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)(٤).

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه الترمذي وحسنه وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

وفي رواية للحاكم سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كل يمين يحلف بها دون الله شرك).

عباد الله، إن للحلف بغير الله تعالى صوراً متعددة، **فمنها:**

الحلف بالأمانة، وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: (من حلف بالأمانة فليس منا)(١). قال العلماء: معناه: "ليس على هدينا، وجميل طريقتنا"(٢).

ومنها: الحلف بغير ملة الإسلام كأن يقول: هو يهودي أو نصراني ما فعل كذا، أو أنه سيفعل كذا.

قال النبي ﷺ :(من حلف بملة غير الإسلام كاذبًا متعمداً فهو كما قال)(٣).وقال ﷺ : (من حلف على يمين فهو كما حلف؛ إن قال: هو يهودي فهو يهودي، وإن قال: هو نصراني فهو نصراني، وإن قال: هو بريء من الإسلام فهو بريء من الإسلام)(٤).

ومنها: الحلف بالنبي، أو الشرف، أو رؤوس الأولاد، أو الرتبة العسكرية، أو الحياة أو العيش، أو حق فلان وعلان، أو غير ذلك.

فمن حلف بصورة من هذه الصور ونحوها معتقداً أن للمحلوف به منزلةً مثل الله تعالى فهو مشرك شركاً أكبر.وإن كان لا يعتقد ذلك ولكن كان في قلبه من تعظيم المحلوف به ما حمله على أن يحلف به دون أن يعتقد أن له منزلة مثل منزلة الله فهو مشرك شركاً أصغر(٥).

---

(١) رواه أحمد وابن حبان وأبو داود، وهو صحيح.

(٢) شرح النووي على مسلم (٢/٥٠).

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه الحاكم وأبو يعلى، وهو صحيح.

(٥) فتاوى أركان الإسلام، لابن عثيمين (٢/١٢١).

ولا ريب أن الحالف بغير الله على كل حال آثمٌ، وليس هناك كفارة على اليمين بغير الله في حال الحنث عند أكثر العلماء؛ لأنها لم تنعقد يمينًا شرعية، وذهب بعضهم إلى الكفارة(١). ولكن عليه أن يقول: لا إله إلا الله، كما في حديث أبي هريرة ﵁: عن النبي ﷺ أنه قال: (من حلف فقال في حلفه: باللات والعزى فليقل: لا إله إلا الله، ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك فليتصدق)(٢).

فقد " كان أهل الجاهلية قد جرى على ألسنتهم الحلف باللات والعزى، فلما أسلموا ربما جروا على عادتهم من ذلك من غير قصد منهم، فكان من حلف بذلك فكأنه قد راجع حاله إلى حالة الشرك، وتشبه بهم في تعظيمهم غيرَ الله، فأمر النبي ﷺ من عرض له ذلك بتجديد ما أنساهم الشيطان أن يقولوا : لا إله إلا الله، فهو كفارة له؛ إذ ذلك براءة من اللات والعزى ومن كل ما يعبد من دون الله...وقول ذلك واجب عليه مع إحداث التوبة، والندم على ما قال من ذلك، والعزم على ألا يعود، ولا يعظم غير الله "(٣).

أيها الإخوة الفضلاء، إن اليمين التي تجري على ألسنة الناس ليست نوعًا واحداً، بل ثلاثة أنواع(٤)؛ فإما أن تكون يمينًا غموسًا، وإما أن تكون لغوَ يمين، وإما أن تكون يمينًا معقودة.

فأما اليمين الغموس فهي اليمين الكاذبة، بحيث يتعمد فيها الحالف الكذب،

---

(١) الفقه الإسلامي وأدلته (٤/٣٩)، إكمال المعلم شرح صحيح مسلم(٥/٢٠٨)، الفقه على المذاهب الأربعة (٢/٧٢).

(٢) متفق عليه.

(٣) شرح صحيح البخاري. لابن بطال (٦/٩٩).

(٤) ينظر: الفقه الإسلامي وأدلته (٤/١١)، الموسوعة الفقهية الكويتية (٧/٢٤٦).

وهذه اليمين يأثم صاحبها إثمًا عظيمًا؛ لأنها استهانة بالله تعالى، فمن ارتكبها فعليه أن يتوب إلى الله تعالى توبة نصوحًا ويستغفر من هذا الذنب العظيم، ولا كفارة لهذه اليمين الفاجرة عند الجمهور؛ لأن الذي أتى به حالفها أعظم من أن تمحوه الكفارة، فيكون في هذا زجر لمن تسول له نفسه ويزين له شيطانه أن يقول: أحلفُ، وبعد ذلك أكفِّر، والكفارة سهلة عليّ! قال ابن مسعود ﷺ: "كنا نعد من الذنب الذي ليس له كفارة اليمين الغموس "(١).

عباد الله، إن المشاهد للواقع يجد بعض الناس قد تهاونوا في شأن اليمين الكاذبة، فصاروا يحلفون بالله تعالى كاذبين من غير خوف من الله ولا وجل؛ فالمرأة تحلف لزوجها أو للنساء كاذبة، جادة أو مازحة، وبعض الرجال يحلف كاذبًا لأخذ حقوق الناس كالأراضي والأموال والشهوات الدنيوية، ولا يفكر في لقاء ربه وقد حلف به كاذبًا، بل من الدواهي أن صارت اليمين الغموس وسيلة للتكسب يتكسب بها بعض من لا يخافون الله حيث يقفون على أبواب بعض المحاكم ليبيعوا شهادة الزور لمن يطلبها ويحلفون على شهادتهم كاذبين، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين! **فاسمعوا -عباد الله-** هذه الزواجر الدالة على خطر هذه اليمين: يقول النبي ﷺ: (الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس) **وفي رواية:** أن أعرابيًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: (الإشراك بالله)قال: ثم ماذا؟ قال: (اليمين الغموس)، قال: وما اليمين الغموس؟ قال: الذي يقتطع مال امرئ مسلم -يعني بيمين- هو فيها كاذب)(٢).

---

(١) رواه الحاكم، وهو صحيح.

(٢) رواه البخاري والترمذي والنسائي.

وعن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، والذي نفسي بيده لا يحلف رجل على مثل جناح بعوضة إلا كانت كيًا في قلبه يوم القيامة)[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس مما عُصي الله به هو أعجل عقابًا من البغي، وما من شيء أُطيع الله فيه أسرع ثوابًا من الصلة، واليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع)[2]. أي: خالية من سكانها إذا توافقوا على التجرؤ على الأيمان الفاجرة، وكم في التاريخ والواقع من أمثلة تدل على العاقبة السيئة للحالفين اليمينَ الغموس، خاصة في أموال الناس ودمائهم.

فقد روى البخاري عن ابن عباس قصة تبين أثر اليمين الكاذبة خلاصتها: أن رجلاً من قريش استأجر في الجاهلية رجلاً من بني هاشم ليكون معه على إبله في رحلة له، فمر بالأجير رجلٌ يحتاج عقالَ بعير فأعطاه، فلما نزلوا عقل الإبل كلها إلا بعيراً، فقال صاحب الإبل: لم لم تعقل هذا البعير؟ قال: ليس له عقال، قال: فأين عقاله؟! فحذفه بعصا كان فيها أجلُه، فمر به رجل من أهل اليمن فقال: أتشهد الموسم؟ قال: نعم، فأوصاه أنه إن جاء مكة أن يقول لأبي طالب: إن فلانًا قتله بعقال. فرجع ذلك القرشي إلى مكة فسأله أبو طالب عن صاحبهم، فأخبره أنه مرض فأحسن إليه حتى مات. ثم إن ذلك اليمني وافى الموسم فبحث عن أبي طالب فأخبره الخبر، فذهب أبو طالب إلى القاتل فخيّره بين ثلاث: إما أن يدفع الدية مائة من الإبل، وإما يحلف قومه خمسين يمينًا أنه ما قَتل، وإما أن يُقتل بصاحبهم. فاختار قومه اليمين، فاجتمع

---

(١) رواه الترمذي، وهو حسن صحيح.

(٢) رواه البيهقي، وهو حسن.

الخمسون رجلاً، فجاءت امرأة فأدت عن ابنها إلى أبي طالب بعيرين حتى لا يحلف، وجاء رجل ففدى نفسه عن يمينه ببعيرين كذلك، قال ابن عباس: وجاء ثمانية وأربعون فحلفوا، فوالذي نفسي بيده ما حال الحول ومن الثمانية والأربعين عين تطرف.يعني: ما دارت السنة إلا وقد مات أولئك الحالفون الكاذبون جميعًا.

عباد الله، وأما النوع الثاني من أنواع اليمين فهو يمين اللغو، ومعناها: أن يحلف الإنسان على شيء في الماضي أو الحال أنه كذا فيتبين الأمر بخلاف ذلك، ومن صورها: ما يجري على اللسان من القسم من غير قصد، بأن تسبق اليمين إلى اللسان بدون عزم وعقد.

فهذه اليمين لا إثم فيها ولا كفارة إذا حصل الحنث؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٢٥]، وقوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾[المائدة:٨٩]. يعني: لا يعاقبكم الله -أيها المسلمون- إذا حنثتم أو نكثتم ما عقدتم، فيما لا تقصدون عَقْدَه من الأيمان، ولكن يعاقبكم فيما قصدتم عقده بقلوبكم(١).

وأما النوع الثالث فهو اليمين المنعقدة أو المؤكدة، وهي اليمين على أمر مستقبل أن يُفعل أو يُترك، كأن يقول: والله لأفعلن كذا، أو والله لا أفعل كذا.فهذه اليمين واجبة الوفاء إذا كان الحلف على فعل أمر واجب، أو على ترك شيء محرم.فإن كانت اليمين على ارتكاب أمر محرم فإن الحنث حينئذ يصير واجبًا.

فإذا حنث الحالف في هذه اليمين بأن فعل ما حلف على تركه، أو ترك ما حلف على فعله وجبت عليه الكفارة.قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ

(١) ينظر: تفسير أبي السعود (٣/ ٧٤)، التفسير الميسر (٢/ ٢٦٣).

أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[المائدة:٨٩]. وفي **هذه الكفارة أمران:**

الأمر الأول: نرى في الكفارة مظهراً من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده؛ حيث شرع لهم اليمين عند الحنث محواً للإثم، وتخفيفًا عن النفس؛ لأنه لو لم يُشرع ذلك لوجب على الإنسان أن يفي بما حلف عليه، وقد يكون عليه في ذلك إثم أو مشقة، فخفف الله عن العبد بالكفارة.

والأمر الثاني: أن الله تعالى نص على أن الكفارة على التخيير ثم على الترتيب، فالحانث مخير أولاً بين الإطعام والكسوة وتحرير رقبة، فإذا لم يجد أو يقدر على واحد من ذلك فيصوم ثلاثة أيام.

فأما الإطعام فهو أن يصنع أو يشتري طعامًا وسطًا كافيًا لعشرة مساكين، أو يعطي كل مسكين كيلو ونصف الكيلو من الطعام من حنطة أو أرز، أو مما يؤكل طعامًا في بلده حال الاختيار.

وأما الكسوة فهي أن يكسو كل مسكين بما يسمى كسوة في تلك البلاد، وهذا يختلف باختلاف عادة البلدان، فقد يكون قميصًا وبنطالاً، وقد يكون ثوبًا وطاقية، وقد يكون إزاراً ورداء.

فإذا عجز الحانث عن ذلك صام ثلاثة أيام متتابعة أو متقطعة، وإن كان التتابع أفضل. والله أعلم.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاسغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.أما بعد:

أيها المسلمون، هناك مسائل مهمة تتعلق باليمين ينبغي أن نعرفها، **فمن تلك المسائل:**

أولاً: أن يستحسن في اليمين المنعقدة أن يقول الحالف: إن شاء الله عقب يمينه مباشرة؛ حتى لا تلزمه اليمين ولا تجب عليه كفارة إذا حنث.فمن قال: والله إن شاء الله سأفعل كذا-ولم يكن واجبًا عليه- فلم يفعله فلا كفارة عليه.قال رسول الله ﷺ: (من حلف على يمين فقال: إن شاء الله فلا حنث عليه)(١).

ثانيًا: أن الحنث يُشرع في اليمين إذا كان خيراً من المضي في الحلف، فيكون الحنث مستحبًا، بل قد يكون واجبًا كمن حلف على فعل أمر محرم كعقوق والديه أو قطع رحمه.عن أبي موسى الأشعري قال: أتيت رسول الله ﷺ في نفر من الأشعريين فوافقته وهو غضبان فاستحملناه، فحلف أن لا يحملنا، ثم قال: (والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها)(٢).

ثالثًا: يستحب للمسلم أن يبر يمين أخيه المقسم إذا لم يكن في إبراره معصية لله، أو ضرر على نفسه، فلو قال لك أخوك المسلم: والله إنك ستأخذ كذا، وليس عليك ضرر في ذلك فإنه يستحب لك أن توافقه؛ لأن هذا من حق المسلم على أخيه المسلم،

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه، وهو صحيح.

(٢) متفق عليه.

ففي حديث البراء رضي الله عنه في الصحيحين قال: أمرنا النبي ﷺ بسبع ونهانا عن سبع: أمرنا باتباع الجنائز وعيادة المريض، وإجابة الداعي ونصر المظلوم، وإبرار القسم ورد السلام وتشميت العاطس...). ولولا أنه عليه الصلاة والسلام ذكر في هذه السبع الخصال بعض الأشياء المستحبة باتفاق كإفشاء السلام لكان إبرار المقسم واجبًا.

رابعًا: من حلف على فعل شيء أو تركه فحنث في يمينه مكرَهًا أو ناسيًا أو نائمًا أو فاقداً للوعي؛ فليس عليه كفارة؛ لأنه لا تكليف في تلك الأحوال. قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[البقرة:٢٨٦]، وقال رسول الله ﷺ: (إنَّ الله تَجَاوَزَ لي عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ والنِّسيانَ، وما استُكْرِهُوا عليهِ)(١).

خامسًا: إن حلف الإنسان محرِّمًا على نفسه شيئًا حلالاً بقصد حث نفسه على الامتناع من ذلك فإن ذلك الشيء لا يصير حرامًا بتحريمه على نفسه، فإذا قال: والله لا آكل هذا الطعام أو لا أشرب هذا الشراب، ثم أكل أو شرب فعليه كفارة يمين ويبقى الطعام حلالاً. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[التحريم:١-٢]. وقد نزلت الآيتان في تحريم رسول الله ﷺ على نفسه العسل، في قصة مشهورة(٢).

أيها الأحباب الكرام، من المسائل المتعلقة باليمين أيضًا: أنه يُكره كثرة اليمين الصادقة في البيع والشراء، أما اليمين الكاذبة فإنها حرام صراح وهي اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم ثم تغمسه في النار إذا مات ولم يتب منها. وقد بُلي بعض

---

(١) رواه ابن ماجه والبيهقي، وهو صحيح.

(٢) متفق عليه.

الباعـة اليـوم بكثـرة اليمـين الصـادقة واليمـين الكاذبـة مـن أجـل تـرويج بضـاعتهم وحصولهم على ربح أكثر؛ لكن ذلك يعود عليهم في عاقبة أمرهم بالخسارة في دينهم وأموالهم، وإن ظنوا أنهم رابحون!

قال رسول الله ﷺ:(الحلف مَنْفَقَةٌ للسلعة مَمْحَقَةٌ للبركة)[١]، **وفي رواية:** (ممحقة للربح)[٢].

وقال رسول الله ﷺ:(إياكم وكثرة الحلف في البيع؛ فإنه يُنفِق ثم يُمحِق)[٣].

إن من المسائل الخطيرة في باب اليمين–عباد الله–: تساهلَ بعضِ الناس بالحلف بالطلاق، كأن يقول: عليه الحرام والطلاق، وما أشبهها من العبارات التي يقصد بها الزوج الحث أو المنع أو التصديق، فعلى المسلمين " أن يتجنبوا مثل هذه الكلمات، وأن لا يتساهلوا في إطلاق الطلاق؛ لأن الأمر خطير عظيم، وإذا أرادوا أن يحلفوا فليحلفوا بالله عز وجل أو ليصمتوا، والحلف بالطلاق سواء كان على الزوجة أم على غيرها اختلف في شأنه أهل العلم؛ فأكثرهم يرون أنه طلاق وليس بيمين، وأن الإنسان إذا حنث فيه وقع الطلاق على امرأته، ويرى آخرون أن الحلف بالطلاق إن قصد به اليمين فهو يمين وإن قصد به الطلاق فهو طلاق؛ لقول النبي ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ ما نوى)"[٤].وهذا القول هو الراجح[٥].

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

(٤) فتاوى نور على الدرب، ابن عثيمين (١١/ ٢٣٠).

(٥) فتاوى نور على الدرب (١١/٤٤٣).

ومن مسائل اليمين بين الزوجين: قول بعض الأزواج: إن زوجته عليه حرام، أو يقول لزوجته: أنت علي حرام، ولم يضفها إلى أمه أو إحدى محارمه؛ مثل: كظهر أمي أو مثل أختي، ونحو ذلك، فإذا قال الزوج: إن زوجته عليه حرام فله أربع حالات: إن نوى بهذه الجملة الظهار فهو ظهار، وإن نوى بها الطلاق فهو طلاق، وإن نوى بها اليمين فهي يمين، وإن لم يحدد في نيته إحدى تلك الأمور فهي يمين.

فاتقوا الله -عباد الله- واعرفوا ما شُرع لكم في الأيمان فافعلوه، وما نُهيتم عنه فتجنبوه، واعلموا أن الخير كل الخير في امتثال أوامر الشريعة، وتجنب مناهيها، فطوبى لمن علمَ فعمل، ولم يتجاوز حدود ما شرع الله ورسوله له.

هذا وصلوا وسلموا على خير البشر...

إصلاح الحياة الزوجية من سورة النساء(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم لتزكية النفوس، وإصلاح علاقات الإنسان مع غيره، فبه يَعرف ربه فيؤدي إليه حقوقه، وبه يهتدي إلى الطريق

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ١٤٣٩/٧/٦هـ، ٢٠١٨/٣/٢٣م.

الصحيح في معاملة الخلق قريبهم وبعيدهم.

وإن من أعظم العلاقات الإنسانية التي اعتنى القرآن ببيان أحكامها وآدابها: العلاقة الزوجية، التي هي مصنع الحياة النقية، ومنبع الأجيال الطاهرة الزكية.

فمن قرأ القرآن وتدبره وجده قد اهتم بهذه الرابطة الحياتية اهتمامًا عظيمًا من حيث بناؤها، والحفاظ عليها، وبيان الحلول الناجعة لمشكلاتها.

عباد الله، إن من سور القرآن الكريم التي أولت جانب الحياة الزوجية عنايتها: سورةَ النساء. هذه السورة الكريمة سورة مدنية، نزلت على رسول الله ﷺ بعد الهجرة في المدينة النبوية، التي صارت بيئتها ملائمة لتفصيل الأحكام والشرائع الإسلامية، فتناولت سورة النساء الحديثَ عن الحياة الزوجية من جوانب شتى، كان من بينها: إصلاح هذه الرابطة ببنائها على القواعد الصحيحة، ومعالجة مشكلاتها الطارئة عليها.

أيها المسلمون، افتتحت هذه السورة الكريمة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء:١].

ففي هذه الآية إشارة إلى أن الرجل أصل المرأة وهي فرع عنه، وعلى الأصل أن يعطف على فرعه، وعلى الفرع أن يحن إلى أصله ويدوم بينهما الإحسان والعطف والقرب واللطف.

ومما تحدثت عنه هذه السورة الكريمة: أنها حثت على الزواج الذي هو سبب بقاء النسل الإنساني، والعامل الصحيح لعفة الإنسان وصيانته، وطهارة روحه وبدنه، فدعت الناس إلى نكاح ما طاب من النساء، قال تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ

النِّسَاءِ﴾[النساء:٣]، **يعني**: ما كان الزواج بهن حلالاً لا ما كان حرامًا كالمحرمات الأبدية من جهة النسب أو المصاهرة أو الرضاع، أو المحرمات الأمدية كالجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها.

ويدخل فيما طاب: اختيار ما تميل إليه نفس الرجل العاقل، ويعجبه نظره ممن تتحلى بالصفات الداعية للزواج بها؛ كما قال رسول الله ﷺ: (تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك)(١).

كما ذكرت الآية الكريمة السابقة بعد الحث على نكاح ما طاب من النساء: إباحة تعدد الزوجات للرجل إلى غاية أربع نسوة، ما دام قادراً على ذلك باءة ومالاً وعدلاً، أما من كان عاجزاً عن ذلك فقد أمرته بالاكتفاء بواحدة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾[النساء:٣]. وهذه الإباحة ميزة من ميزات الإسلام العظيمة؛ إذ إنها تقي المجتمع الإنساني من كثرة الفساد والانحراف الخلقي، وتقلل من نسبة العنوسة والفقر، وتكثر من النسل الذي يعين على تكثير عباد الله تعالى، ويساعد على تقدم المجتمعات ونمائها.

كما أن هذه الآية الكريمة دعت إلى العدل بين الزوجات؛ إذ العدل من أسباب صلاح الحياة الزوجية، والإخلال به مِعولُ هدم يأتي على جدار الحياة الزوجية بالشق والصدع الذي قد يصل إلى الانهيار وتفرق الأسرة وتشتتها.

والعدل الواجب هو في القسم بين الزوجات في المبيت والنفقة، أما ما يتعلق

---

(١) متفق عليه.

بالمحبة والشهوة فإن الزوج يعذر فيه إن مال فيهما إلى واحدة أكثر من الأخرى أو الأخريات؛ لأن ذلك ليس بيده، فقد قال تعالى في نهاية هذه السورة الكريمة: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[النساء:١٢٩].

قال ابن كثير: " أي: لن تستطيعوا -أيها الناس- أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه، فإنه وإن حصل القسْم الصوري: ليلة وليلة، فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع "(١).

لكنه تعالى قال بعد عرض العذر للرجل في قضية المحبة والشهوة: ﴿فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا﴾ أي: فإذا ملتم إلى واحدة منهن فلا تبالغوا في الميل بالكلية فتبقى هذه الأخرى مُعَلَّقة لا ذات زوج ولا مطلقة(٢).

ثم حثت الآية على المنهج الصحيح للرجل المعدِّد فقالت: ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ "أي: وإن أصلحتم في أموركم، وقسمتم بالعدل فيما تملكون، واتقيتم الله في جميع الأحوال، غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض "(٣).

ألا فليتقِ اللهَ من كان له أكثر من زوجة؛ فليراعِ حقَّ العدل بينهن كما يرضى ربه تبارك وتعالى.

أيها الأحباب الفضلاء، كما دعت هذه السورة الكريمة أيضًا إلى إعطاء المرأة حقها من المهر الذي هو حق واجب للمرأة على زوجها، سواء كان قليلاً أم كثيراً، قال تعالى:

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣١).

﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾[النساء:٤].

وحق المهر للزوجة واجب الوفاء على الزوج؛ لأنه مقابل التمكين، فلا يحل للزوج أن يحرمها إياه، أو يأخذ منه شيئًا إلا بطيب نفس زوجته، سواء كان ذلك حال استمرار الحياة الزوجية، أو عند الطلاق وتزوج امرأة أخرى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾[النساء:٢٠-٢١]. فإذا سمحت نفس الزوجة بإعطاء زوجها شيئًا من مهرها أو العفو عنه إن كان دَينًا عليه فيجوز له قبول ذلك، قال تعالى: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾.

عباد الله، إن رابطة الزوجية شركة صغيرة لابد لها من مدير يدير شؤونها، ويصلح أمورها، ويعالج مشكلاتها إن وجدت فيها، ولاشك أن أقدر الجنسين على تقلُّد هذه الوظيفة الأسرية هو الرجل.

يقول تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[النساء:٣٤]، وهذه القوامة هي الدرجة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[البقرة:٢٢٨].

فعلى الزوج أن يحسن القيام بهذه الإدارة، بحيث يراقب الله تعالى فيها، ويراعي حقوق أهلها؛ لأن هذه الوظيفة الحياتية تكليف، وليس معناها الاستبداد والعسف.وقد أعطى الله تعالى الرجل هذه المهمة لما خصه به من خصائص فطرية وعقلية وجسمية تجعله أهلاً لها دون المرأة، فإذا سلَّم مقاليدَها للمرأة مادت سفينة الأسرة في أمواج الحياة المضطربة، وعلى المرأة أن تشكر الله تعالى حينما نظر إلى ضعفها

وأحوال نفسها وعقلها فأعفاها عن هذه المهمة العظيمة.

أيها المسلمون، إن الحياة الزوجية لا تستقيم إلا بالمعاشرة بالمعروف، القائمة على أداء الحقوق التي دعا إليها الشرع الحكيم، والخُلق الجميل، وذلك بأداء ما أوجب الله على الرجل أداءه نحو زوجته من الحقوق، ومن أعظم ذلك: حسن عشرتها، وطيب صحبتها، وإحسان الأقوال والأفعال معها. يقول تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[النساء:١٩]. **قال** ابن كثير: " أي: طيِّبوا أقوالكم لهن، وحَسِّنُوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[البقرة:٢٢٨]، **وقال** رسول الله ﷺ: (خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ، وأنا خَيْرُكُم لأهْلي) وكان من أخلاقه ﷺ أنه جَمِيل العِشْرَة دائم البِشْرِ، يُداعِبُ أهلَه، ويَتَلَطَّفُ بهم، ويُوسِّعُهُم نَفَقَته، ويُضاحِك نساءَه، حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين يَتَوَدَّدُ إليها بذلك. قالت: سَابَقَنِي رسولُ الله ﷺ فَسَبَقْتُهُ، وذلك قبل أن أحملَ اللحم، ثم سابقته بعد ما حملتُ اللحمَ فسبقني، فقال: (هذِهِ بتلْك). ويجتمع نساؤه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ، فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها. وكان ينام مع المرأة من نسائه في شعار واحد، يضع عن كَتِفَيْه الرِّداء وينام بالإزار، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يَسْمُر مع أهله قليلاً قبل أن ينام، يُؤانسهم بذلك ﷺ، وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب: ٢١]"(١).

فإذا حصل من الزوجة شيء من التقصير في الأمور الدنيوية -وهذا شيء وارد في الحياة الزوجية من الزوج ومن الزوجة أيضًا- فعلى الزوج أن يصبر؛ فإن الاستقصاء

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢٤٢).

ليس من شيم الكرام، وصبرُه هذا دون أن يلجأ إلى الطلاق قد يفضي إلى خير كثير؛ كولد صالح، وعاقبة حسنة صارت إلى ما يرضى ويحب.

أحبابي الكرام، ومما دعت إليه السورة الكريمة: النفقة على الزوجة، قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[النساء:٣٤]؛ فإن الإنفاق عليها حق واجب لها على زوجها؛ نفقتها في مطعمها ومشربها، وملبسها ومسكنها ودوائها، ويكون ذلك حسب حال الزوج يسراً وعسراً، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[الطلاق:٧]. وعلى الزوج أن يكون في إنفاقه وسطًا بين الإسراف والإقتار، فلا يبخل فيقصر في النفقة المطلوبة، ولا يسرف فيخرج عن الحدود المشروعة، كما عليه أن لا يجعل المال تحت تصرف من لا يحسن التدبير المالي من ولد أو زوجة خشية إفساده وإتلافه، وذلك حين يجد أنهم يسرفون أو يبددون المال فيما لا يحمد، بل عليه أن ينفق عليهم هو النفقةَ الرشيدة القائمة على الوسط والعدل، فإن رأى منهم الرشد في النفقة فلا مانع من تصرف الأولاد الكبار والزوجة في ذلك؛ لهذا قال تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾[النساء:٥].

عباد الله، إن دين الإسلام دين العدل فإنه لما أمر الزوج بأداء حقوق الزوجة، فقد أمرها كذلك بأداء الحقوق التي عليها لزوجها، وهذه السورة الكريمة تضمنت ذكر ذلك، فبعد أن بينت الآيات ما على الزوج من التكاليف والأوصاف، بينت ما على الزوجة كذلك. فذكرت أن على المرأة أن تكون صالحة في دينها؛ تؤدي حق الله تعالى،

وحق زوجها، فقال تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾[النساء:٣٤]. فمن حق الزوج على زوجته: أن تكون له مطيعة في كل ما أمرها به، إلا ما فيه معصية لله تعالى. فالحياة الزوجية لا تستقر إلا بطاعة الزوجة لزوجها في المعروف، فإذا فعلت ذلك فما أحسن ما ينتظرها عند الله تعالى من الثواب والرضا، قال رسول الله ﷺ: (إذا صلت المرأة خمسها، وحصنت فرجها، وأطاعت بعلها، دخلت من أي أبواب الجنة شاءت)(١).

ومن حق الزوج على زوجته كما ذكرت السورة: أن تكون الزوجة حافظة لفرجها إلا على زوجها، فلا تخونه في الفراش، ولا تمد عينيها بالاستشراف إلى غيره.

ومن حقه كذلك عليها: أن تحفظ ماله، فلا تبدده ولا تبذره، ولا تنفق منه إلا في المباح من غير إسراف، وبإذن زوجها، إلا إن كان شحيحًا في النفقة الواجبة، فتأخذ منه بقدر حاجتها وحاجة أولاده، ولو بدون علمه، فعن عائشة ﵂: قالت هند لرسول الله ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني إلا ما أخذت من ماله بغير علمه، فهل علي في ذلك من جناح ؟ فقال رسول الله ﷺ: (خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك)(٢).

فيا أيها الأزواج، اتقوا الله في زوجاتكم؛ فأدوا إليهن حقوقهن التي دعتكم آيات هذه السورة إلى أدائها، وإياكم والظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة.

ونقول للزوجات: اتقين الله في أزواجكن؛ فقمن بحقوقهم التي كلفكن الله تعالى

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد والنسائي والطبراني، وهو صحيح.

بها، واحذرن التقصير في ذلك؛ فإن هضم حق الزوج طريق يورد إلى الردى، فعن حصين بن محصن ﷺ أن عمة له أتت النبي ﷺ فقال لها: (أذات زوج أنت)؟ قالت: نعم.قال: (فأين أنت منه)؟ قالت: ما آلوه إلا ما عجزت عنه.قال: (انظري أين أنت منه؛ فإنه جنتك ونارك)[١].

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) رواه أحمد والنسائي والطبراني، وهو صحيح.

الخطبة الثانية

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، **أما بعد:**

أيها المسلمون، إن الحياة الزوجية علاقة بشرية لا تسلم من المشكلات والخلافات، والأمور التي قد تعكر صفو الحياة المستقرة، فقد يحصل فيها الخصام والكراهية، والهجر والمباعدة، وقد تصير الأمور إلى أبعد من ذلك.ووجود هذا الكدر في صفو الحياة الزوجية قد يكون من أسبابه: ضعف تمسك الزوجين بالحقوق الزوجية التي دعت إليها الشريعة الإسلامية.

وفي هذه السورة الكريمة سورة النساء علاج ناجع لمشكلة النشوز بين الزوجين الذي هو مشكلة من مشكلات الحياة الزوجية.فقد جاءت الآيات لتعالج نشوز المرأة وكراهيتها لزوجها، وتأبّيها عن طاعته، وتعالج كذلك نشوز الزوج وانصرافه عن زوجته وإعراضه عنها.

وغاية هذا العلاج: رجاء أن تصل سفينة الزوجية إلى شاطئ السلامة، وضفاف الاستقرار الحياتي المشترك.فقد بينت الدواء الذي يذهب داء الخلاف الزوجي الذي يمر عبر جرعات مرحلية، قد تصل أحيانًا إلى الانفصال والطلاق في حال تعذر كل الحلول المطروحة، فيغدو الطلاق حينئذ هو الحل النهائي لحياة جحيمية لا يطاق العيش فيها.

عباد الله، إن الزوج القائم بحقوق زوجته متى رأى منها العصيان والإعراض عن طاعته، والتمرد عن أوامره المشروعة في ظل الاستطاعة وعدم موانع التنفيذ فقد

ذكرت الآيات الكريمة مراحل لعلاج هذه المشكلة، وهو علاج عقلي إرشادي، وعلاج نفسي، وعلاج بدني، **فالعلاج الأول:** وعظها ونصيحتها لترجع إلى حضن الطاعة، وتترك البعد عن الانقياد لزوجها. **فإن لم يفد** هذا العلاج فتأتي المرحلة الثانية وهي هجرها في المضجع، فينام في فراش وهي في آخر، وهذا له أثر نفسي على بعض النساء المعتادة من زوجها القرب. **فإن لم يؤثر** فيها الهجران فتجيء المرحلة الثالثة وفيها إباحة ضربها ضربَ تأديب لا ضرر عليها فيه، فلا لطم فيه ولا كسر ولا جرح، وهذا العلاج قد ينفع بعض النساء، بل يذكره بعض علماء النفس في تصنيف الشخصيات.

قال تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾[النساء:٣٤]. فإن رجعت الزوجة إلى الطاعة فلا يحل لزوجها ظلمها بشيء مما سبق أو بغيره، فمن فعل ذلك فإن الله منتقم ممن بغى وظلم، **قال** تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾. وهذه الحلول الثلاثة حلول داخل البيت، فإن لم تحل المشكلة فهناك حل خارجي ألا وهو الإتيان بحكمين من أهل الزوجين، بشرط أن يكونا عاقلين مريدين الخيرَ للزوجين، لينظرا في القضية، ويحكما بالحكم الأصلح العادل، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾[النساء:٣٥].

فإذا لم يحل المشكلةَ العلاجُ الداخلي ولا العلاج الخارجي، فقد لا يتبقى إلا الطلاق، فإن كان هو الحل فليكن طلاقًا مشروعًا لا ظلم فيه، واقعًا في زمنه المناسب، كما بين فقهاء الإسلام. ومتى حصل الطلاق بالمعروف، ولم يكن فيه معصية، وكان هو الحل للخلاف الزوجي؛ فإن الله قد وعد الزوجين الصالحين اللذين افترقا بالعوض، فسيوفق الزوج لزوجة صالحة بدل زوجته، ويوفق الزوجة لزوج صالح بدل زوجها

المطلِّـق، قـال تعـالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَـا يُغْـنِ اللَّهُ كُـلًّا مِـنْ سَـعَتِهِ وَكَـانَ اللَّهُ وَاسِـعًا حَكِيمًا﴾[النساء:١٣٠].

أيها المسلمون، فإن كانت مشكلة النشوز لدى الزوج، حيث خافت الزوجة انصرافه عنها، أو قد تحقق منه ذلك فعلاً، فالعلاج هو الصلح العادل بين الزوجين، صلحًا تطيب به نفوسهما في القسم والنفقة، وعودة المودة، والمعاشرة الحسنة، فإن حصل هذا الصلح فهو خير من الطلاق، فعلى المرأة أن ترضى بذلك ولو فاتتها بعض المصالح المحتملة، ما دام أن الحياة الزوجية يمكن أن تستمر مع عدم ذلك أو قلِّته. وعلى الزوج أن يحسن إلى زوجته ويتقي الله فيها؛ فإن عاقبة الظلم وخيمة، ومنع الحقوق الواجبة عقوبته أليمة. وفي هذا يقول تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[النساء:١٢٨].

هذا وصلوا وسلموا على خير الورى....

الإحسان إلى اليتامى
أهميته وفضله وأثره(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، إن المجتمع المسلم حينما يعمل بالإسلام ظاهراً وباطنًا يغدو مجتمعًا إيمانيًا متراحما، متعاونًا متكافلا، يقوم برعاية من يعيش فيه ولا يضيعه.بل يحنو عليه ويبسط عليه جناح الحُب والرحمة، والعون والعطف والمعونة، فيصبح المجتمع جسداً

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في ١٤٣٩/١١/٢١هـ، ٢٠١٨/٨/٣م.

واحداً: قويُّه وضعيفُه، قادره وعاجزه، غنِيُّه وفقيره، قال رسول الله ﷺ: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[١].

وقال النبي ﷺ: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا). وشبك بين أصابعه[٢].

وفي ظل الجسد الواحد، والبنيان المرصوص المتحد يُنصر المظلوم، ويقوى الضعيف، ويُكفى الفقير، ويأمن الخائف، ويُرعى مَن فقدَ من يرعاه، ويؤنس من ذهب عنه مؤنسُه في الحياة.

ولاشك أن **اليتيم**[٣] مِن الذين يحتاجون إلى هذه العناية، ويفتقرون إلى هذه الرعاية واللفتة الكريمة من المجتمع؛ فاليتيم إنسان ضعيف فقدَ قوَّةَ الأُبوّة، فأين تلك اليد الحانية التي تنتشله من ضعفه، وتنقذه من عجزه، وتغرس في نفسه: إنكَ لستَ وحدك بعد أبيك، بل نحن معك كأبيك، فلا تهِن ولا تضعف.

واليتيم بعد فراق أبيه مستوحش، فأين ذلك الحضن الدافئ الذي يضمه ليؤنسه من وحشته، ويسعده في وحدته؟

---

(١) رواه مسلم.

(٢)متفق عليه.

(٣) اليتم في الناس من قبل الأب، وفي البهائم من قبل الأم. قال الأَصْمَعيّ: " اليتيم في الآدميين من فَقَدَ الآباء، وفي غيرهم من فقد الأمّهات. وقال ابن الأثير: اليُتْم في الناس: فَقْدُ الصَّبيِّ أباهُ قَبْل البُلُوغِ. وقَالَ ابنُ بَرِّي: اليَتِيمُ: الذِي يَمُوتُ أَبُوهُ، والعَجِيُّ: الذِي تَمُوتُ أُمُّهُ، واللَّطِيمُ: الذِي يَمُوتُ أبَوَاهُ. ينظر: الصحاح للجوهري (٦/٣٤٢).اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل (٢/٢٣٤)، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٥/٦٨٩). تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي (٣٤/١٣٤).

واليتيم بعد موت أبيه فقير ذهب عنه العائل السخي، الذي يعطي بلا حساب ولا منٍّ، بل يبذل بفرحٍ وحرص، فأين تلك الكف السخية التي تنسيه فقر اليتم وحاجته، فتعطيه ما يكفيه، وتضمه وتؤويه، وتنفق عليه غير مانّة عليه؟

قال جرير يمدح هشام بن عبد الملك:

يَرَى لِلْمُسْلِمِين عَلَيْه حَقّاً كَفِعْل الوالِدِ الرَّؤُفِ الرَّحيمِ
إذا بَعْضُ السِّنينَ تَعَرَّقَتْنا[1] كَفَى الأَيْتامَ فَقْدَ أَبِي اليَتِيم

واليتيم بعد ذهاب الوالد الحنون يعاني خواءً من الحب ودفءِ الحنان، ورحيلَ السعادة، فأين ذلك الإنسان الرؤوف الرحيم الذي يُهدي إليه عبيرَ الحب فيملأ فراغَ نفسه سعادةً تطرد عنها الأحزان والغموم والهموم، ويمسح دمعات خديه، ويرسم البسمة على شفتيه، ويقول له: يا بنيّ، أنت الولد وأنا الوالد، وأنت الموصول وأنا الواصل، وأنا المحتاج إلى إسعادك كي أَسعد، وإلى عونك لكي أُعان.

أيها المسلمون، إن اليُتم ظاهرة اجتماعية في كل زمان ومكان وأمة؛ ذلك أن الآجال بيد الله تعالى فقد تسبق بعضَ الآباء قبل بلوغ أبنائهم سنَّ البلوغ، ولكن هذه الظاهرة تتفاقم في أيام الكوارث والحروب.

ولما كانت هذه الظاهرة لا يخلو منها مجتمع فقد اهتم الإسلام باليتامى اهتمامًا بالغًا، واعتنى بهم اعتناء عظيمًا؛ حتى لا يهلكوا في أكف الضياع، ولا تتخطفهم أيادي السوء، ولكي يخرجوا إلى حياة العمل والبناء أعضاءً صالحين ينفعون أنفسهم وينفعون غيرهم، بل إن اليتيم إذا لقي الرعاية الحسنة قد ينتج للحياة من الخير ما لم ينتجه غيره؛ فإن اليتيم كنز مدفون بحاجة إلى يد أمينة تخرجه وتجلوه، وتحافظ عليه؛ فكم من مبدع

---

(١) تعرقتنا: أهزلتنا، وأصله أخذ ما على العظم من اللحم.

لامعٍ خرج من رحم اليتم فصنع ما لم يصنعه المرفّهُ بين أبويه، فأشرقت بآثاره وأعماله صفحات التاريخ.

نِعمَ اليتيمُ بدت مخايلُ فضله واليتمُ رزقٌ بعضه وذكاءُ[1]

فمن نظر في القرآن الكريم سيجد في حديثه عن اليتامى اعتناء ملحوظًا، تمثل في عدة مظاهر، **فمنها:**

أولاً: أنه ذكر أن الإحسان إلى اليتامى شريعة دائمة، فهي ليست في أمة محمد ﷺ فحسب، بل هي كذلك فيمن قبلها، فقد أخذ الله تعالى على بني إسرائيل عهداً مؤكداً على أن يحسنوا إلى اليتامى، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾[البقرة:٨٣].

ثانيًا: أن الله تعالى أمر بصنع الأنفع لليتيم في ماله، فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة:٢٢٠].

ثالثًا: أن الله عز وجل أمر بإعطاء الأيتام شيئًا من المال على وجه الاستحباب إذا حضروا قسمة تركة لقريب لهم لا يرثون منه، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾[النساء:٨].

رابعًا: أن الله جعلهم من الجهات التي ينبغي صرف النفقة إليها، فقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢١٥].

---

(١) البيت لشوقي في مدح النبي عليه الصلاة والسلام، موسوعة الشعر الإسلامي (٤/١٥٠).

خامسًا: أن الله ذكر أن إطعام اليتيم ابتغاء وجه الله من صفات الأبرار التي نالوا بها بالجنة، فقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[الإنسان:٨].

سادسًا: أن الله تعالى بيّن أن إطعام اليتيم مما يعين على تجاوز مشقة الآخرة، فقال: ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[البلد:١١-١٦].

سابعًا: أنه أمر جل وعلا بحسن الوصاية على ماله إن كان له مال بعد أبيه؛ فنهى عن قربان ماله إلا بالحال التي تصلحه حتى يبلغ اليتيم سن البلوغ والرشد، فقال: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[الإسراء:٣٤].

ثامنًا: أن الله أمر بإيتاء اليتيم مالَه ونهى عن أخذه ظلمًا وبين أن أخذه حرامًا يؤدي إلى دخول النار، فقال: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾[النساء:٢]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[النساء:١٠].

تاسعًا: أن الله جعل لليتامى نصيبًا من مال الغنيمة ومال الفيء، فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[الأنفال:٤١]. وقال: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ الْعِقَابِ﴾[الحشر:٧].

عاشراً: أن الله أنكر عدم إكرام اليتيم وتركَ الإحسان إليه، فقال: ﴿كَلَّا بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾[الفجر:١٧].

أيها الأخيار الكرام، إن الاعتناء باليتامى كما نجده في القرآن الكريم نجده أيضًا في سنة النبي الكريم ﷺ .بل إن خاتم الأنبياء ﷺ قد تربى في أرض اليتم، وشرّف الله به الأيتام أن كان يتيمًا ﷺ، غير أن الله تعالى تولى رعايته، وكفالته وحمايته، فلم يجد في اليتم ما وجد غيره؛ ولهذا قال تعالى ممتنًا عليه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ [الضحى:٦-١٠]. **قال بعض العلماء:** "إن أهل الجاهلية قد تأصل فيهم الكِبْر على الضعيف، وتوقير القوي، فلما عدم اليتيمُ ناصرَه ومن يذب عنه كان بحيث يعرض للمهانة والإضاعة، ويُتخذ كالعبد لوليّه، من أجل ذلك كله صار وصف اليتيم عندهم ملازماً لمعنى الخصاصة والإهمال والذل، وبه يظهر معنى امتنان الله تعالى على نبيه أن حفظه في حال اليتم مما ينال اليتامى في قوله: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾[الضحى:٦]. فلما جاء الإسلام أمرَهم بإصلاح حال اليتامى في أموالهم وسائر أحوالهم"(١).

وقد يسأل سائل: لماذا قدّر الله تعالى أن يكون رسوله الكريم يتيمًا؟

ولعل من حِكم ذلك: أن يعرف قدر اليتامى فيقوم بحقهم وصلاح أمرهم، وليكون اليتيم مشاركاً له في الاسم فيُكرم لأجل ذلك، وأن من كان له أب أو أم كان اعتماده عليهما، فسُلب عنه الوالدان حتى لا يعتمد من أول صباه إلى آخر عمره على أحد سوى الله، وأن العادة جارية بأن اليتيم لا تخفى عيوبه بل تظهر، وربما زادوا على الموجود فاختار تعالى له اليتم، ليتأمل كل أحد في أحواله، ثم لا يجدوا عليه عيباً فيتفقون على نزاهته، فإذا اختاره الله للرسالة لم يجدوا عليه مطعناً، وليعلم كل أحد أن فضيلته من الله ابتداء؛ لأن من كان له أب فإن أباه يسعى في تعليمه وتأديبه، وأن اليتم والفقر نقص في حق الخلق، فلما صار محمد عليه الصلاة والسلام مع هذين الوصفين

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢/ ٣٦٤).

أكرم الخلق، كان ذلك قلباً للعادة، فكان من جنس المعجزات[١].

إن من تتبع أقوال رسول الله ﷺ ونظر إلى أفعاله وجده محسنًا إلى الأيتام بقوله وبفعله، ومحذراً من ظلمهم والإساءة إليهم.

فأما قوله فإنه ﷺ حث على كفالة اليتيم فقال: (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا).وقال بإصبعيه السبابة والوسطى[٢].

وذكر ﷺ أن أكل مال اليتيم من الذنوب الموبقة التي تهلك أصحابها، فقال: (اجتنبوا السبع الموبقات) وذكر منها: (وأكل مال اليتيم)[٣].

وبيّن عليه الصلاة والسلام أن الإحسان إلى اليتيم ولو بمسح رأسه من أسباب إزالة قسوة القلب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال: (امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين)[٤].

وحذّر ﷺ من ظلم اليتيم، فقال: إني أحرِّج عليكم حق الضعيفين: اليتيم و المرأة)[٥].

"أي: أُلحق الحرجَ -وهو الإثم- بمن ضيعهما، فأحذِّره من ذلك تحذيراً بليغا، وأزجره زجراً أكيدا"[٦].

---

(١) تفسير الرازي (ص:٤٧٧٧) بتصرف.

(٢) رواه البخاري.

(٣) متفق عليه،

(٤) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٥) رواه البيهقي والحاكم، وهو حسن.

(٦) فيض القدير، للمُناوي (٣/ ٢٠).

وأما فعله ﷺ فإنه كان عليه الصلاة والسلام باليتيم رحيما، وإليه محسنا، وله كافلا.

فعن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال له بعدما استشهد أبوه جعفر رضي الله عنه في مؤتة: (اللّهم اخلف جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه، قالها ثلاث مرات قال: -أي: عبد الله- فجاءت أمُّنا فذكرت له يتمنا، فقال: العيلةَ تخافين عليهم -أي: الفقر تخافين عليهم-، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟!)(١).

وعن عبد الله بن جعفر أيضًا قال: لو رأيتني وقُثَمَ وعبيد الله بن عباس ونحن صبيان نلعب، إذ مر النبي ﷺ على دابة فقال: (ارفعوا هذا إليّ)، قال: فحملني أمامه، قال: ثم مسح على رأسي ثلاثا، وقال كلما مسح: (اللّهم اخلف جعفراً في ولده)(٢).

وصدق فيه عمه أبو طالب حينما قال فيه عليه الصلاة والسلام:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ(٣)
يَلُوذُ به الهُلاَّكُ مِن آلِ هاشِمٍ فَهُمْ عندَهُ في نِعْمَةٍ وفَواضِلِ(٤)

عباد الله، إن اليتيم محتاج إلى إحسان القريب، وإحسان البعيد، محتاج إلى إحسان أمه وجده وأعمامه وأخواله وأبنائهم البالغين ومن يتصل به من القرابة من غير هؤلاء.

ومحتاج كذلك إلى إحسان المجتمع من جيران وجهات خيرية ومن الدولة أيضًا؟

---

(١) رواه أحمد والبيهقي، والنسائي، والحاكم، وهو صحيح.

(٢) رواه أحمد والبيهقي، وهو حسن.

(٣) الثمال: هو العماد والملجأ والمطعم والمغيث والمعين والكافي. وقوله: " عصمة للأرامل " أي: يمنعهم مما يضرهم. فتح الباري لابن حجر (٣/٤٤٢).

(٤)صحيح البخاري (١/٣٤٢)، والحماسة البصرية، لأبي الحسن البصري (ص:٤٩).

فما هو هذا الإحسان الذي يحتاجه اليتيم؟

من الإحسان إلى اليتيم:

أولاً: إطعامه ما يكفيه؛ لأن بقاء جسده بذلك، وهذا من أعظم القُرَب، ومن أحسن الذخر عند الله.

قالت مولاة لداود الطائي: لو طبختُ لك دسماً؟ قال: فافعلي، فطبخت له شحماً ثم جاءته به، فقال لها: ما فعل أيتام بني فلان؟ قالت: على حالهم، قال: اذهبي به إليهم، قالت له: فديتك إنما تأكل هذا الخبز بالماء من المطهرة![1] قال: إني إذا أكلته كان في الحُشِّ[2]، وإذا أكله هؤلاء الأيتام كان عند الله مذخوراً[3].

ثانيًا: إيواؤه ببناء منزل، أو التكفل بدفع الإيجار عنه، ومداواته عند المرض، وتعليمه العلم النافع الذي ينفعه في دينه ودنياه، ومن الأعمال العظيمة بناء دور الأيتام ورعايتهم فيها والاهتمام بهم حتى يبلغوا.

ثالثًا: تربيته تربية صالحة قائمة على مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب، وإبعادهم عن أماكن الضياع وجلساء السوء.

رابعًا: رعايته رعاية نفسية بتعويضه عن حنان أبيه بحبه ورحمته وإذهاب الأحزان من وجه حياته.

خامسًا: حفظ ماله، وحسن تصريفه إن كان له مال، خاصة إذا كان عليه وصي من

---

(١) يعني: إذا ذهبت به إليهم لم يبق لك إلا خبز وماء، والمطهرة: كل إناء يتطهر منه كالإبريق والسطل.

(٢) الحش: مكان قضاء الحاجة.

(٣) التذكرة الحمدونية، ابن حمدون (١/ ٤٣).

الأقارب أو من غيرهم، فمن صار وصيًا على يتيم فإنه قد حُمِّل أمانة عظيمة فليتقِ الله في هذه الأمانة التي قد تحملها، وليعلم أن التعدي على مال اليتيم من أعظم الكبائر لضعف اليتيم وعجزه عن الدفاع عن حقه؛ ولذلك لم يذكر الله من العاقبة السيئة لمالٍ حرام كما ذكر في حق مال اليتيم ومال الربا، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[النساء:١٠].

فمن خاف على نفسه التقصير في هذه الأمانة فليدعها لغيره؛ فإن مهمتها عظيمة، فعن أبي ذر : أن رسول الله ﷺ قال: (يا أبا ذر، إني أراك ضعيفًا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي: لا تَأَمَّرَنَّ على اثنين، ولا تَوَلَّيَنَّ مال يتيم)(١).

"أي: لا تكن واليًا عليه؛ لأن خطره عظيم ووباله جسيم"(٢).

سادسًا: إن كان في اليتامى أنثى فبلغت سن الزواج فأراد الوصي تزوُجها إن كان ممن يحل له الزواج بها، فلا يظلمها في مهرها وحقوقها لكونها يتيمة، بل عليه أن يعطيها ما يعطي غيرها من النساء، فإن أراد تزويجها لغيره فليحسن اختيار الزوج لها كما يختار لبنته، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾[النساء:٣]، وقال: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾[النساء:١٢٧].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الملا على القاري (١١/٣١٩).

عن عروة بن الزبير: أنه سأل عائشة رضي الله عنها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾. قالت: يا ابن أختي، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في مالها وجمالها ومالها، ويريد أن ينتقص صداقها، فنُهوا عن نكاحهن إلا أن يقسطوا في إكمال الصداق، وأُمروا بنكاح من سواهن. قالت: واستفتى الناسُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك فأنزل الله: ﴿ويستفتونك في النساء - إلى - وترغبون أن تنكحوهن﴾ فأنزل الله لهم: أن اليتيمة إذا كانت ذات جمال ومال رغبوا في نكاحها ونسبها في إكمال الصداق، وإذا كانت مرغوبة عنها في قلة المال والجمال تركوها وأخذوا غيرها من النساء، قالت: فكما يتركونها حين يرغبون عنها فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها، إلا أن يقسطوا لها ويعطوها حقها الأوفى في الصداق(١).

سابعًا: البعد عن الإساءة إلى اليتيم بالقول أو بالفعل، فيجتنب معه قهره وإذلاله والتعدي عليه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾[الضحى:٩]، وقال: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾[الماعون:١-٢]. "أي: يدفعه بعنف، وهذا الدفع يحتمل أن يكون عن إطعامه والإحسان إليه، أو عن ماله وحقوقه، وهذا أشد"(٢).

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: "إياك ودمعة اليتيم، ودعوة المظلوم؛ فإنها تسري بالليل والناس نيام"(٣).

لكن هذا الإحسان لا يعني ترك تأديبه وتقويمه، وزجره عن مساوئ الأمور، فالوصي أو المعلم أو المربي أو القريب إن رآه على مكروه عامله كما يعامل ولده من

---

(١) رواه البخاري.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٣/٣٦٣).

(٣) البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي (٥/١٥٨).

الزجر وحسن الأدب، قال النخعي: "حكِّم اليتيم كما تحكِّم ولدك"[١].قيل: معناه: امْنَعه من الفساد كما تمنع ولدك، وقيل: أرادَ حَكِّمه في ماله إذا صلح كما تُحكِّم ولدك[٢].

بل إن احتاج الوصي أو المربي إلى ضرب اليتيم ضربًا غير مبرِّح من أجل التأديب فلا بأس بذلك،

فقد بوَّب الإمام البخاري في كتابه" الأدب المفرد": باب أدب اليتيم، وساق بسنده أنه: ذُكر أدب اليتيم عند عائشة رضي الله عنها، فقالت : " إني لأضرب اليتيم حتى ينبسط "[٣].

فكما أن الرحمة باليتيم مطلوبة في موضعها فكذلك الحزم مطلوب أيضًا في موضعه.

فقسا ليزدجروا ومن يكُ حازماً فليقسُ أحياناً على من يرحمُ[٤]

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) شرح السنة. للإمام البغوي (٨/٣٠٧).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (١/١٠٢٣).

(٣) الأدب المفرد، للبخاري (ص:٦٢).

(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري(٧/٢١٩).

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

أيها المسلمون، إن حسن القيام على الأيتام والإحسان إليهم وإبعاد الأذى عنهم- ابتداء من الأم وانتهاء بالمجتمع- عبادة عظيمة من أعظم العبادات، وقربة جليلة من أجل القربات، تعود على صاحبها بالخير العميم في الدنيا والآخرة، فمن تلك الأرباح التي يجنيها كافلو الأيتام والمصلحون لشؤونهم والمربون لهم والساعون في **مصالحهم:**

الظفر بدخول الجنة والقرب من منزلة رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: (كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة) وأشار بالسبابة والوسطى[(١)].

فـ(الذي له): أن يكون قريباً له؛ كجده وأمه وجدته وأخيه وأخته وعمه وخاله وعمته وخالته وغيرهم من أقاربه، والذى (لغيره): أن يكون أجنبياً[(٢)].

قال بعض العلماء: " حق على كل مؤمن يسمع هذا الحديث أن يرغب في العمل به؛ ليكون في الجنة رفيقاً للنبي عليه السلام ولجماعة النبيين والمرسلين - صلوات الله عليهم أجمعين - ولا منزلة عند الله في الآخرة أفضل من مرافقة الأنبياء "[(٣)].

ومن تلك الأرباح أيضًا: إصلاح القلب وقضاء الحاجات، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ يشكو قسوة قلبه، قال: (أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك، يلن قلبك، وتدرك

---

(١) رواه مسلم.

(٢) شرح النووي على مسلم (١٨/ ١١٣).

(٣) شرح صحيح البخاري. لابن بطال (٩/ ٢١٧).

حاجتك)[١]. **وعند** الخرائطي: (أدْنِ اليَتِيمَ مِنْكَ وأَلْطِفْهُ وامْسَحْ بِرَأْسِهِ وأَطْعِمْهُ مِنْ طَعامِكَ؛ فإنَّ ذَلِكَ يُلَيِّنُ قَلْبَكَ ويُدْرِكُ حاجَتَكَ).

ومن الأرباح أيضًا: نماء المال وطهارته وبركته ودفع الآفات عنه، قال رسول الله ﷺ: (وإن هذا المال خضرة حلوة، فنعمَ صاحبُ المسلم ما أُعطي منه المسكين واليتيم وابن السبيل)[٢].

ومن الأرباح ما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله). وأحسبه قال: (كالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر)[٣].

واليتيم يدخل في المسكين، وأمه قد تكون أرملة. **قال** بعض العلماء: "من عجز عن الجهاد في سبيل الله، وعن قيام الليل وصيام النهار ، فليعمل بهذا الحديث، وليسعَ على الأرامل والمساكين؛ ليحشر يوم القيامة في جملة المجاهدين في سبيل الله دون أن يخطو في ذلك خطوة ، أو ينفق درهماً، أو يلقى عدواً يرتاع بلقائه، أو ليحشر في زمرة الصائمين والقائمين وينال درجتهم وهو طاعم نهاره، نائم ليله أيام حياته، فينبغي لكل مؤمن أن يحرص على هذه التجارة التي لا تبور، ويسعى على أرملة أو مسكين لوجه الله تعالى، فيربح في تجارته درجات المجاهدين والصائمين والقائمين من غير تعب ولا نصب، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"[٤].

---

(١) رواه الطبراني، وهو صحيح.

(٢) رواه البخاري.

(٣) متفق عليه.

(٤) شرح صحيح البخاري. لابن بطال (٩/٢١٨).

أيها الأحباب الكرام، على الإنسان العاقل الذي له أولاد أو سيأتي له أولاد أن يفكر في مستقبلهم من بعده لو داهمته الوفاة قبل وصولهم سنَّ البلوغ.فمن أراد أن يُحفظ أولاده من بعده، ويُحسن إليهم بعد موته **فعليه سلوك ثلاث طرق:**

أولاها: أن يكون مؤمنًا صالحًا؛ فإن صلاح الأب وتقواه سبب لحفظ ذريته من بعده، ففي سورة الكهف ذكر الله تعالى قصة موسى والخضر.عليهما السلام ومما جاء فيها: أن الخضر.أقام جداراً لغلامين يتيمين يحفظ كنزهما، وكان سبب ذلك صلاح أبيهما قال تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[الكهف:٧٧]. ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾[الكهف:٨٢].

وقال رسول الله ﷺ: **(احفظ الله يحفظك)**(١).

"قال سعيد بن المسيب لابنه: لأزيدنَّ في صلاتي مِنْ أجلِك ، رجاءَ أنْ أُحْفَظَ فيكَ ، ثم تلا هذه الآية ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً﴾، **وقال** عمرُ بن عبد العزيز: ما من مؤمن يموتُ إلاَّ حفظه الله في عقبه وعقبِ عقبه.وقال ابن المنكدرِ : إنَّ الله ليحفظُ بالرجل الصالح ولدَه وولدَ ولده والدويرات التي حوله، فما يزالونَ في حفظ من الله وستر "(٢).

ثانيها: أن يحسن إلى اليتامى، ويبتعد عن الإساءة إليهم، فمن أحسن إلى يتامى الناس، أُحسن إلى يتاماه، ومن أساء إليهم أُسيئ إلى أيتامه، والجزاء من جنس العمل.قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ

(١) رواه الترمذي وهو صحيح.

(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب(٢١/٩).

فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾[النساء:٩].

يقول الحقّ جلّ جلاله : للأوصياء الذين في ولايتهم أولاد الناس: ﴿وليخش﴾ الذين يتولون يتامى الناس، فليحفظوا مالهم ، وليحسنوا تنميته لهم ولا يضيعوه، وليخافوا عليهم الضيعة، كما يخافون على أولادهم، فإنهم لو ماتوا وتركوا ﴿ذرية ضعافًا خافوا عليهم﴾، فكما يخافون على أولادهم بعدهم كذلك يخافون على أولاد الناس، ﴿فليتقوا الله﴾ في شأنهم، وليحفظوا عليهم أموالهم ، وليرفقوا بهم ويلاطفوهم في الكلام، كما يُحبون أن يلاطف بأولادهم...[١].

"وإن الله تعالى يحفظ الأولاد ببركة الأجداد.وقد تذاكر بعض التابعين ما يكون في آخر الزمان من الفتن والفساد ، فقال بعضهم: يا ليتني كنت عقيمًا أو لم أتزوج، فقال له من هو أكبر منه: ألا أدلك على ما يحفظ الله عقبك؟ قال: نعم ، دلني، قال: قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً...﴾الآية[النِّساء : ٩]"[٢].

ثالثها: الدعاء بحفظ الذرية، بعد عمل السببين السابقين.

أيها الأخيار الأفاضل، إن اليتم ضعف يحتاج إلى قوة أمينة ترعاه وتحميه، وتحسن إلى روحه فتربيه على الصلاح والهدى، وتحسن إلى جسده فتغذيه وتداويه، وتحسن إلى نفسيته فتزرع فيها الأمل، وتغرس فيها الهمة إلى معالي الأمور، وتضيء لطموحاته الخيرة سبلها الصالحة.

فلتكن هذه المهمة مهمة المجتمع كله وخصوصًا أقارب اليتيم؛ فإنهم أولى بذلك من غيرهم.

---

(١) البحر المديد، لابن عجيبة(٢/١٦).

(٢) البحر المديد، لابن عجيبة(٢/٥٦٥).

واعلموا -عباد الله- أن الإحسان إلى اليتامى باب إلى الجنة، وما من مسلم إلا يحب دخولها، والإساءة إلى اليتامى باب إلى النار وما من عاقل إلا ويكره ولوجها.

فاتقوا الله- معشر المسلمين- في الأيتام: أدوا إليهم حقوقهم، وتجنبوا الإساءة إليهم، وتذكروا مستقبل أولادكم غداً، لتحسنوا إلى اليتامى اليوم.

هذا وصلوا وسلموا على البشير النذير...

التوكل على الله تعالى
حقيقته ومواطنه وثمراته(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، إن الحياة الدنيا معركة محتدمة يتعارك فيها الحق والباطل، والإيمان والكفر، والمحبوب والمكروه، والرخاء والشدة، والآمال والآلام.

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ١/٤/١٤٣٨هـ، ٣٠/١٢/٢٠١٧م.

والإنسان هو الذي تدور عليه رحاها، فإما أن ينتصر وينال مطلوبه، وإما أن ينهزم فتقيم ببابه المكاره. وليس للإنسان من قوة يحصل بها كل ما يحب، ويدفع بها كل ما يكره، فالإنسان ضعيف القوى، كثير العجز. فلابد له إذن من قوة تعضده، وقدرة تسنده، حتى ينال المحبوبات، ويسلم بذلك من المكروهات.

فمن كان معرضًا عن ربه إما بكفره وإما بفسوقه فإنه يرى قوته وقدرته بما يمتلك من القوى البشرية الحسية والمعنوية، ويعتقد أنها سبيله الوحيد إلى نيل ما يريد. ومن كان حاله كذلك فمآله إلى الضعف والعجز والهزيمة والندم.

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يقضي عليه اجتهاده

أما من كان من عباد الله الصالحين، ومن أهل الإيمان المتين فإنه ليرى أن قوته بقوة تعلقه بالله، وكثرة اعتماده على ربه ومولاه. فالله عز وجل هو القوي ولا أحد أقوى من الله، والله تعالى هو القادر ولا أحد أقدر من الله. فالمؤمن يظل قلبه معتمداً اعتماداً كليًا في جميع أحواله الدينية والدنيوية على الله القوي القادر، وهذا هو التوكل على الله تبارك وتعالى الحي الذي لا يموت.

قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾[الفرقان:٥٨].

أيها المسلمون، إن التوكل على الله تعالى عمل قلبي، يتبعه عمل بدني، ومعناه: "صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المنافع ودفع المضار من أمور الدينا والآخرة، وتفويض الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع، ولا يضر ولا ينفع سواه"(١).

(١) جامع العلوم والحكم (٢/٥١).

قال الإمام أحمد رحمه الله: صدق المتوكل على الله عز وجل: أن يتوكل على الله ولا يكون في قلبه أحد من الآدميين يطمع أن يجيئه بشيء، فإذا كان كذا كان الله يرزقه، وكان متوكلاً"(١).

فالمتوكل على الله توكلاً صادقًا يعتقد اعتقاداً جازمًا بأن كل شيء بيد الله، فنيل آماله لا يتحقق إلا بالله، وإذهاب آلامه لا يكون إلا بالله. ومن كان كذلك صار قلبه متحرراً من التعلق بالخلق رغبة ورهبة، وأصبح ينظر إلى السماء تاركًا أهل الأرض؛ إذ إنهم لا ينفعون ولا يضرون إلا بإرادة الله تعالى.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، و إذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك بشيء إلا قد كتبه الله عليك، جفت الأقلام ورفعت الصحف)(٢).

فأما من رضي لنفسه العبودية لغير الله ، ورضي لها الهوان بعرض حاجاته على الخلق من غير تعلق بالله، وإنما يصبح تعلقه الكامل بالخلق؛ فقد خسر الدنيا والآخرة.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل)(٣).

---

(١) الآداب الشرعية(٣/ ٢٦٢).

(٢) رواه أحمد والترمذي والحاكم، وهو صحيح.

(٣) رواه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

عباد الله، إن التوكل على الله تعالى بصدقٍ عبادةٌ من أعظم العبادات التي يتقرب بها المسلم إلى ربه؛ لأنها برهان من أعظم براهين العبودية للمعبود الحق سبحانه وتعالى؛ فلذلك أمر الله تعالى به في عبادات كثيرة، قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[النمل:٧٩]، وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[المائدة:٢٣]. وذكر سبحانه وتعالى أن التوكل من صفات أهل الإيمان فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال:٢].

وذكر كذلك أن التوكل الصادق على الله وحده يعد حصنًا حصينًا وحرزاً أمينًا من الشيطان الرجيم.قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[النحل:٩٨-٩٩].

أيها الأحباب الفضلاء، إن المسلم يحتاج في هذه الحياة إلى ملازمة التوكل الصادق في كل أعماله وأقواله وأحواله، لكن هناك مواطن على المسلم أن يحرص فيها على العمل بالتوكل على الله وتحصيله فيها:

ومن هذه المواطن:

عند القيام بعبادة الله تعالى، فالإنسان مهما كان عنده من القدرة والقوة والرغبة فإن ذلك قد لا يستمر ولا يدوم معه؛ فلذلك يحتاج إلى التوكل؛ لأن التوكل يحمل على الاستعانة والإخلاص، قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود:١٢٣].

ومن المواطن التي يطلب فيها التوكل: في أيام الشدائد، ونزول المكروهات والمصائب حتى يخرج منها ويطلب الفرج من شدتها. قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[التوبة:٥١]. فمن أراد النجاة من

مصيبته والخروج من أزمته فليتوكل على الله، ويعلق قلبه بالله تعالى وحده للنجاة منها.

ومن أحب سرعة الفرج من شدائد الحال، والخروج من أوحال المكروهات فليتمسك بحبل التوكل فهو سبب النجاة.

ومن المواطن التي يحتاج فيها إلى التوكل على الله تعالى: عند مواجهة العدو في طريق العزة والكرامة، ونشر الحق، والدفاع عن النفس والمال والعرض. قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[آل عمران:١٦٠].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[آل عمران:١٧٣-١٧٤]. **عن** ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾. قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وآله وسلم حين قالوا: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾(١).

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا غزا قال: (اللّهم أنت عضدي وأنت نصيري، بك أحول وبك أصول وبك أقاتل)(٢).

ومن المواطن التي يحتاج فيها إلى التوكل على الله تعالى: عند خوف مكر الماكرين وكيد الكائدين، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه، وهو صحيح.

عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ﴾[يونس:٧١].

وقال: ﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾[الأحزاب:٤٨].

وقال هود عليه السلام لقومه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[هود:٥٥- ٥٦].

ومن المواطن التي يحتاج فيها إلى التوكل على الله تعالى: عند طلب الرزق؛ فإن الرزق لا ينال بقوة قوي ولا حرص حريص ولا ذكاء ذكي.

قال رسول الله ﷺ: (لو أنكم توكلون على الله تعالى حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطاناً)(١).

ومن المواطن التي يحتاج فيها إلى التوكل على الله تعالى أيضًا: عند الخروج من المنزل، قال رسول الله ﷺ: (إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم الله توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، فيقال له: حسبك؛ قد هُديت وكُفيت ووقيت، فيتنحى له الشيطان فيقول له شيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدي وكفي ووقي؟)(٢).

أيها المسلمون، إن التوكل على الله تعالى وتفويض الأمر إليه ليس معناه تعلق القلوب بالله وترك العمل بالأسباب الجالبة للمصالح المرغوبة، والدافع للمضار المكروهة، فهذا ليس من التوكل في شيء، بل هو من الخبال وضعف العقل وضحالة

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم، وهو صحيح.

(٢) رواه أبو داود والنسائي وابن حبان، وهو صحيح.

العلم.فالتوكل الله تعالى حقًا هو: تعليق القلب بالله عز وجل، مع الحرص على فعل الأسباب الممكنة لنيل الرغائب ودفع المكاره.فمن أراد النصر على العدو فليفوض أمره إلى ربه، وليعد القوة المادية المستطاعة لدفع ذلك العدو، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[الأنفال:٦٠].

ومن أراد الرزق فليعلق قلبه بالله، وليسعَ في تحصيل أسباب الرزق كالسعي للعمل، قال تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[الملك:١٥].

ومن أراد التحرز من مكر الماكرين، فليعلق قلبه بالله وحده، وليتخذ الأسباب الواقية المستطاع عليها، قال تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا﴾[الكهف:١٦].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون، إن التوكل التام على الله تعالى، القائم على التفويض الكامل إليه، والعمل بالأسباب الممكنة يثمر أهله مصالح وخيرات في الدنيا والآخرة، فمن ثمرات التوكل على الله تعالى:

أولاً: أنه يجلب للعبد معية الله ونصره وتأييده وعونه، وكفى ذلك ربحًا وثمرة.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق:٣].

ثانيًا: أنه ينيل العبد أجوراً عظيمة، وحسنات كثيرة؛ لأنه عبادة من أعظم العبادات القلبية.

ثالثًا: التوكل على الله من أسباب محبة الله لصاحبه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران:١٥٩].

رابعًا: أنه يدفع أذى الشيطان وتسلطه على صاحبه، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[النحل:٩٩].

خامسًا: أنه من أسباب دفع التشاؤم والشكوك التي تكدر حياة الإنسان وتخلع عليها جلباب الشقاء، قال رسول الله ﷺ: (الطيرة شرك، الطيرة شرك، الطيرة شرك، وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل)(١).

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وغيرهما، وهو صحيح.

سادسًا: أن التوكل على الله من أعظم الدروع التي تقي العبد من أذى المؤذين، وعدوان المعتدين، وظلم الظالمين، فيشعر المتوكل عند ذلك بالأمان والاطمئنان.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[آل عمران:١٧٣-١٧٤].

قال ابن القيم رحمه الله: " والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم "[١].

سابعًا: أنه من أسباب دخول الجنة، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: (يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب، هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون)[٢].

فيا أيها المسلمون، لنتوكل على الله توكلاً صادقًا صحيحًا في جميع شؤون حياتنا؛ فإن المتوكل على الله أسعد الناس، وأحراهم بنيل ما يرجو، والأمان مما يخاف، وتذكروا قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[الطلاق:٣].

هذا وصلوا وسلموا على النبي المختار....

(١) بدائع الفوائد (٣/٣٤٨).

(٢) متفق عليه.

قومُ سبأ والنعمة التي لم يشكروها(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ٢٠/١٠/١٤٣٨هـ، ١٤/٧/٢٠١٧م.

عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[سبأ:١٥-١٩].

عباد الله، ما أحسن أن يقرأ الإنسان التاريخ قراءة متأنية فيعرف أخبار الأمم والدول والأفراد والمجتمعات، فينظر كيف كانت الحال وكيف أضحى المآل، وكيف كانت العاقبة والخاتمة للمحسنين والمسيئين.

ليقيس أحوال الزمان الحاضر على أحوال الزمان الغابر؛ فسنة الله في عباده واحدة متقدمهم ومتأخرهم: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[فاطر:٤٣].

أيها المسلمون، إن في القرآن الكريم من أخبار الأمم وأحوال أهلها أفراداً وجماعات أصدق الأخبار وأحسنها، وأكثرها عبرة للمعتبرين وموعظة للمتعظين.

ففي الآيات السابقة ذكرَ الله تعالى خبراً عن قوم سبأ الذين كانوا يعيشون في مأرب، وينتمون إلى رجل يقال له: سبأ، وهو من نسل قحطان، وكان رجلاً مسلمًا، وقد أرسل الله تعالى إلى قومه أنبياء فاهتدوا بهم، فأنعم الله عليهم بنعم كثيرة، فطاب هواؤهم، وحسنت أرضهم، ودرّ رزقُهم، وجمل حالهم في حلهم وترحالهم(١).

فاستمروا على هذه الحال إلى أن كفروا وجحدوا، وأعرضوا عن الهدى، فأبدلهم

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (٢/١٥٨)، تفسير السراج المنير، للشربيني (٣/٢٤٣)، اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل (١٦/٣٩).

الله بعد تلك النعم جوعًا وظمأ، ونقمًا وبلاء، وتفرقًا وتمزقًا في أرجاء الجزيرة العربية.

جاء في سنن أبي دود وفي سنن الترمذي -بسند حسن صحيح- عن فروة بن مسيك المرادي قال: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ما سبأ: أأرض هو أم امرأة؟ قال: ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب، فتيامن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة[1]، فأما الذين تشاءموا: فلخم وجذام، وغسان وعاملة، وأما الذين تيامنوا: فالأزد والأشعريون وحمير، وكندة ومذحِج وأنمار).

لقد بقي قوم سبأ على شركهم وضلالهم يعبدون الشمس إلى عهد ملكتهم بِلقيس، وكان من خبرها مع نبي الله سليمان عليه السلام ما قصَّ اللهُ تعالى في سورة النمل.

أيها الأحباب الفضلاء، ذكر الله تعالى الآيات الماضية عن قوم سبأ في سورة سُميت باسمهم، فذكرها عقب الحديث عن نبيه سليمان؛ لِمَا بين قوم سبأ وسليمان من الارتباط في عهد ملكة سبأ.

وقد ذكر سبحانه هذه الآيات في سورة مكية تحاجج قريشًا المشركين الذين أنعم الله عليهم بجوار البيت الحرام الذي كثر فيه رزقهم واتسع بسببه أمنُهم، وأنعم الله عليهم بالنعمة الكبرى ألا وهي بعثُ نبي آخر الزمان منهم، قال تعالى: ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾[قريش:١-٤]. ولكنهم استمروا على شركهم وعنادهم لرسوله عليه الصلاة والسلام، فذكَّرهم الله بقصة سبأ حتى يعلموا أن النعم إذا لم تشكر فإن مصيرها الزوال، ومآل أهلها الكافرين الهلاك.

---

(١) (فتيامن منهم ستة) أي: أخذوا ناحية اليمن وسكنوا بها. (وتشاءم منهم أربعة) أي: قصدوا جهة الشام. ينظر: تحفة الأحوذي (٩/ ٦٤).

ففي هذه الآيات الكريمات يصف الله تعالى حال هؤلاء القوم الذين رغد عيشهم، وحسنت أحوالهم، وعظم أمنهم، غير أنهم لم يستجيبوا لدعوة الأنبياء، ولم يشكروا الله على هذه النعماء. فأمهلهم حتى انتهت المهلة فنزلت العقوبة عليهم وعلى نعمتهم فاجتاحت تلك المزارع، وأجدبت الأرض وساء الهواء، فلم يستطع جمعُهم البقاءَ في تلك المجاعة والظروف السيئة.

فتفرقوا بعد اجتماعهم وقوتهم إلى جماعات جماعات، كل منها اتجه إلى مكان داخل اليمن وخارجها، حتى وصل بعضهم إلى الشام، وبقوا هناك، ولازال لبعضهم في الشام والعراق نسل إلى اليوم.

أيها المسلمون، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[سبأ:١٥].

يعني: لقد كان لقوم سبأ في مأرب برهان يدل على قدرة الله تعالى في الخلق والرزق، هذا البرهان والعلامة على القدرة هو بستانان متصلان، على يمين الوادي أو الطريق وشماله، هذان البستانان مملوآن بما لذ وطاب من الخضروات والفواكه.

وكانت تلك البلاد طيبة التربة صالحة لإنبات تلك الفواكه والخضروات أحسن ما يكون الإنبات، كما كانت طيبة الهواء، فياضة الماء، مما يساعد على نماء تلك النعمة، وعلى حسن مقامهم في تلك البلاد. فهي بلاد صالحة للسكن والزراعة؛ إذ ليس فيها آفات تؤذي الساكن، ولا آفات تعدم الزراعة أو تنقصها.

فأباح الله تعالى لهم هذه النعمة الجزيلة التي هي رزق منه وحده، وأمرهم بعبادته وشكره، ووعدهم بأنه رب غفور لذنوبهم إذا استغفروه وتابوا إليه.

من هذه الآية الكريمة يتبين أن صلاح الأرض للزراعة، ووفرة الماء، وطيب الهواء، من أعظم نعم الله على الخلق. وذلك مما يساعد على الاستقرار والكفاية، ويعين على عبادة الله وعدم الحاجة إلى الآخرين، وقطع المسافات لجلب ذلك الرزق الذي لا يمكن الاستغناء عنه.

ومن هذه الآية الكريمة نستفيد أن النعمة إذا كانت في مسكن الإنسان وموضع قراره فهي أعظم من النعمة المماثلة التي تُجلب من خارجه. ومن العِبر في **هذه الآية:** أن الله تعالى ينعم على عباده بنعم لينظر من يشكره فيُبقي عليه النعمة ويزيده، ومن يكفر نعمته فيذهبها عنه ويعاقبه.

ومنها: بيان عظم هذه النعمة الغذائية والبيئية والأمنية التي كان يَنعم بها قوم سبأ.

ومنها: أن النعمة بدون حارس الشكر تهجم عليها العقوبة، فمن شكر نعمة الله -وأعظم الشكر العمل بأوامره واجتناب نواهيه- فقد حرس نعمته من الذهاب، ومن لم يشكرها -فصار بعيداً عن طاعة الله عاملاً بمعصيته- فإن نعمته ستذهب ولو بعد حين.

ومنها: أن طيب البلاد وحسن جوها نعمة عظيمة قد لا يعرف قدرها بعضُ الناس إلا إذا صار إلى بلاد كثيرة الوخم والوباء، سيئة الأحوال والهواء.

ومنها: بيان سعة حلم الله على عباده وعظيم رحمته بهم؛ فإنه وعدهم بالمغفرة إذا تابوا إليه واستغفروه مهما فعلوا من الخطايا.

أيها الإخوة الفضلاء، ثم يقول تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾[سبأ:١٦-١٧].

لقد مكث قوم سبأ في تلك النعمة الوارفة لاهين في نعمتهم، غافلين عن ربهم، عاصين لرسله، غير شاكرين اللهَ على فضله؛ فقد أعرضوا عن دعوة المرسلين الذين جاءوهم بالتوحيد، والدعوة إلى شكر النعمة. فأمهلهم الله، ولكنهم لم يستفيدوا من الإمهال، فجاءت العقوبة عليهم من رب العالمين الذي أنعم عليهم فكفروا نعمه.

فأذهب عز وجل تلك النعمة، حيث أرسل عليهم السيل الشديد الآتي من الأمطار الغزيرة ومن خراب سد مأرب، فخربت مزارعهم وبساتينهم، وانقطع عنهم الماء بعد ذلك، فصاروا بلا مزارع ولا ماء، ولا طيب هواء. وأُبدلوا بعد تلك الأشجار المثمرة أشجاراً مُرَّة غير مثمرة، أو أشجاراً قليلة الثمر وكثيرة الشوك، فكان منها الأثل والنبق.

وما حصل هذا التبديل إلا بسبب كفرهم بربهم وعدم شكرهم له سبحانه. وما يجازي الله بهذه العقوبة الشديدة إلا الجاحدين المبالغين في الكفر، والجزاء من جنس العمل، أما من لم يكن مثلهم فيجازي الله كلاً بقدر ذنبه وجحوده.

أيها الإخوة الأفاضل، من هذه الآية الكريمة نستفيد **من العبر**: أن النعمة إذا لم توافق نفسًا صالحة فإنها تكون سببًا للبطر والأشر والكبر وكثرة المعاصي.

ومنها: أن الإعراض عن شكر الله وطاعته سبب لذهاب النعمة، فطاعة الله سبب البقاء، ومعصيته طريق الفناء.

ومنها: أن كثرة الجحود مع سعة النعمة يقرِّب العقوبة؛ فلهذا قال: ﴿فأعرضوا فأرسلنا﴾ بدون مهلة كثيرة.

ومنها: أن الله يسلط على النعمة التي لم تُشكر شيئًا يذهبها قد لا يتوقعه أصحاب النعمة.

ومنها: أن المـاء حينما كان عليهم نعمة في تلك البلاد فلم يشكروها، أرسله الله بعد ذلك عذابًا عليهم؛ حيث جاء كثيراً عن الحاجة فاجتاح نعمتهم فأفسدها وأذهبها.

ومنها: أن النعمة قد تذهب في طرفة عين دون وقت كثير، وهذا أنكى في العقوبة.

ومنها: بيان عدل الله تعالى، وأنه جل وعلا أنزل عليهم العقاب بسبب كفرهم، ولا يظلم ربك أحداً.ومنها: أن جزاء المعاصي منه ما هو معجل، وهو ليس نهاية الجزاء وتمامه، بل هو جزء مقدَّم فقط، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

ثم يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[سبأ:١٨-١٩].

أيها المسلمون، لقد كان مما أنعم الله على قوم سبأ: أنهم إذا سافروا إلى أرض الشام كانوا آمنين من الأعداء، مطمئنين على الغذاء، غير خائفين من الجوع والظمأ؛ فقد كانت لهم مدن متصلة من مأرب إلى الشام، فكلما انتهوا من واحدة بدتْ أخرى، وفيها حراسة الطريق، وفيها طعام وشراب، وفيها يقيلون وينامون، فلا يجدون مشقة، ولا يشكون حاجة، ولا يتعبهم بُعدُ شُقّة. فلا يحتاجون ما يحتاج غيرهم في سفره من أخذ الزاد والماء، ولا يخافون لصوصًا وقطاع طريق، بل يسيرون إلى وجهتهم ويعودون آمنين متى شاءوا من ليل أو نهار، وهذه نعمة عظيمة عليهم.

ولكنهم ملُّوها وكرهوها، فطلبوا تباعد تلك القرى ليقطعوا الفيافي والقفار كبقية الناس، ويأخذوا معهم زادهم وسلاحهم، وغير ذلك من حاجات المسافر في الأرض المهلكة!

فظلموا أنفسهم بكفرهم وجحود هذه النعمة عليهم، فعاقبهم الله بخراب بلادهم، وذهاب نعمتهم، فاضطروا للهجرة عنها متفرقين في البلاد حولهم، واشتهر ذلك عنهم في بلاد العرب، فصار الناس يضربون بتفرقهم وتمزقهم المثل فقالوا: "تفرقوا أيدي سبأ" يعني: ذهبوا مذاهب شتى يسلكون منها إلى أقطار عدة.

قال الشاعر:

فيا لكِ من دارٍ تفرَّق أهلُها أياديْ سباً عنها وطالَ انتقالُها[١]

عباد الله، من هذه الآيات الكريمة نستفيد من العبر: أن توفر الأمن والغذاء في الأسفار من نعم الله، وعلى أولياء أمور الناس توفير ذلك لمن ولاهم الله عليهم. **ومنها:** أن سفر الإنسان ورجوعه من سفره من غير خوف ولا مشقة ولا حاجة نعمة من الله عظيمة. ومنها: أن بقاء الإنسان في وطنه الذي يجد فيه رزقه الكافي وعدم حاجته إلى الاغتراب نعمة من نعم الله كذلك.

ومنها: أن التفرق والتمزق عقوبة آتية بسبب المعاصي. ومنها: أن كثيراً من الناس يسمعون أو يقرأون ما حلّ بالعصاة ولكنهم لا يعتبرون! فهلا اعتبر أعداء الأمة الإسلامية بما حل بأسلافهم المتجبرين المترفين، وكيف ذهبت قواتهم المتعددة، ولحقوا بها هالكين! إن في ذلك لعبرة لمن كان له قلب.

ومنها: أن النعمة تحتاج إلى صبر شديد عليها، كما تحتاجه البلية، بل إن الصبر على ما يحب الله في النعم قد يكون أشد من الصبر على البلاء والمصائب.

ومنها: أن النعمة تحتاج إلى شكر كثير، وإلا فمصيرها الزوال والهلاك.

ف"من لم يشكر النعم فقد تعرّض لزوالها، ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها، والشكر قيدٌ للموجود، وصيدٌ للمفقود"[٢].

فاشكروا النعمةَ-عباد الله- بطاعة الله وحُسنِ الثناء عليه، واستعمالها فيما يرضي

---

(١) البيت لذي الرمة، التحرير والتنوير (٢٢/٤٥).

(٢) شرح الحكم العطائية (ص:٦٤).

واهبها تعالى، وإياكم وجحودَ النعم بعصيان المنعِم، والبطرِ بالنعمة، والتكبر بها على الخلق، فيا سعادة الشاكرين في العاجل والآجل، ويا شقاء الجاحدين في الدنيا وفي اليوم الآخر.

هذا وصلوا وسلموا على خير البرية...

الغَيرةَ الغيرةَ يا أمة محمد![(١)]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، إن الأخلاق الكريمة مقياس تُعرف به سلامة المجتمعات من الفساد، ونقاؤها من أسباب الكوارث والهلاك، وطهارتها من نزول الخبث والدنس بين أفرادها. وبتلك الأخلاق النقية يَشرُف أهلها بين الناس، ويعلو قدرهم ويكثر الثناء عليهم.

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ٢٩/١٠/١٤٣٩هـ، ١٣/٧/٢٠١٨م.

إن تلك الأخلاق الحميدة تحمل النفس على الأنفة والسمو والشهامة والشرف والعزة والنخوة والمروءة، فتتحلى النفس حينها بأحسن الصفات الإنسانية وتعمل أفضل الأعمال، وتتخلى عن سيء الخِلال وتجتنب قبيح الفعال.

لقد كان لدى العرب في الجاهلية أخلاق حسنة، وشمائل كريمة فُطروا عليها وتربوا على التمسك بها وتواصوا على حفظها، حتى تجذرت فيهم ورسخت جذورها في أقوالهم وأعمالهم.

ومن تلك الأخلاق الكريمة: خُلق الغيرة على الحرمات والحمية على المرأة؛ فإنهم قد بلغوا في ذلك الخلق الكريم مبلغًا عظيمًا، وحكت مواقفهم وأشعارهم تلك الغيرة الشديدة على زوجاتهم وبناتهم وأخواتهم وأمهاتهم وجاراتهم ونساء قومهم، وتعددت صور غيرتهم عليهن: من سترهن والمحافظة عليهن، والدفاع عنهن وبذل النفس في حمايتهن وإطلاقهن من أسر العدو لو أُسرن، ولو أدى ذلك إلى الهلاك.

بل وصلت غيرة بعضهم إلى حد غير مقبول شرعًا وعطفًا ألا وهو الإقدام على وأد البنات؛ خشية العار(١).

قال بعض المفسرين عند قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾[الفتح:١١]. "ولعل ذكر الأهل بعد الأموال من باب الترقي؛ لأن حفظ الأهل عند ذوي الغيرة أهم من حفظ الأموال"(٢).

وقال بعضهم أيضًا: "كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم؛ ليبعثهم

---

(١) قال ابن عاشور في قوله تعالى: {وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ} [التكوير: ٨، ٩]. "وقيل: كانوا يفعلون ذلك من شدة الغيرة؛ خشية أن يأتين ما يتعير منه أهلهن". التحرير والتنوير (٧/٧٥).

(٢) روح المعاني (٢٦/٩٨).

الذب عن الحرم والغيرة على الحرم على بذل تجهيداتهم في القتال أن لا يتركوا وراءهم ما يحدثون أنفسهم بالانحياز إليه، فيجمع ذلك قلوبهم، ويضبط هممهم، ويوطن نفوسهم على أن لا يبرحوا مواطئهم، ولا يخلوا مراكزهم، ويبذلوا منتهى نجدتهم، وقصارى شدتهم"(١).

فلما جاء الإسلام زاد الغيرة على المحارم اعتناء واهتمامًا وضبطها لتكون في مسارها الصحيح فنهى عن الصور التي تخرج بها عما جاء به من العدل والرحمة وحسن الظن.

وقد بقي المسلمون بعد ذلك جيلاً بعد جيل يحافظون على خلق الغيرة بينهم وهو يحافظ على عزهم وشرفهم حتى وفدت على الناس مدنيةُ هذا العصر التي عملت معاولها على تحطيم جدار الغيرة على الأعراض والحمية على الحُرَم، ونادت أبواقها بالانعتاق عن الماضي الذي يمثل لديها الرجعية والجهل، وضرورة مواكبة العصر الحاضر بالدعوة إلى خروج النساء متبرجات سافرات، ومشاركة الرجال ومخالطتهم فيما هم فيه. ومن هناك بدأ ماء الحياء بالنضوب، وقوة الغيرة بالضعف شيئًا فشيئًا، إلا من حماه الله تعالى بتمسكه بدينه وإيمانه، وأخذه بمبادئ العادات القبلية الحميدة، والأعراف المجتمعية السديدة.

إن مقود الحضارة المعاصرة اليوم بيد غير المسلمين وهم يديرونه إلى حيث شاءوا، وأمتنا اليوم حينما أضحت ترزح تحت وطأة الهزيمة والانبهار بما عليه الغرب من تقدم وتطور حياتي؛ راحت تحاكي أولئك القوم في أساليب حياتهم وأفانين عيشهم، ومن المعلوم أن الغيرة لدى أصحاب تلك الحضارة ضعيفة وحميتهم على الأعراض قليلة

---

(١) تفسير البحر المحيط (٤/٤٩٦).

والواقع يشهد بذلك.ومع ذلك قلد بعض المسلمين-وللأسف- أولئك الكافرين في قلة غيرتهم وضعف حميتهم، ونسوا أخلاق آبائهم وأجدادهم من الحياء والنخوة والغيرة والعزة!

ونحن في هذا المجتمع المحافظ على أخلاقه وعاداته الحميدة لم نسلم من حملة تذويب الغيرة ووأد الحمية؛ فقد بدأ الداء يتسع، والمؤامرة على هدم أبنية الفضيلة تزداد.

فلا بد علينا إزاء ذلك أن نتناصح قبل استفحال الداء، وندّرع بالحياء والغيرة قبل الندم والمأثمة.

أيها المسلمون، إن الغيرة تعني الغضب من أن يصل إلى حرمات الإنسان رجل أجنبي، أو تزيغ إليهن عينه أو أذاه، وتعني أن لا يرضى المرء بخروج امرأة من نسائه سافرة عن مفاتنها فيراها الناس وتمتد إليها أبصارهم وتتعلق بها قلوبهم.

فالرجل الكامل الغيور يأبى أيما إباء أن يتطلع الرجال إلى وجوه نسائه فضلاً عما فوق ذلك من المفاتن، ذكر ابن الجوزي قصة وقعت عند قاضٍ بالري سنة ست وثمانين ومئتين حيث: " ادعى ولي امرأة على زوجها خمسمائة دينار مهراً، فأنكر، فقال القاضي: شهودكِ، قال: قد أحضرتهم، فاستدعى بعض الشهود أن ينظر إلى المرأة؛ ليشير إليها في شهادته، فقام الشاهد وقال للمرأة: قومي فقال الزوج: تفعلون ماذا؟ قال الوكيل: ينظرون إلى امرأتك وهى مسفرة-يعني: كاشفة وجهها- لتصح عندهم معرفتها، فقال الزوج: فإني أُشهد القاضي أن لها علي هذا المهر الذى تدعيه ولا تسفر عن وجهها، فأخبرت المرأة بما كان من زوجها فقالت: فإني أشهد القاضي أن قد وهبته هذا المهر وأبرأته منه في الدنيا والآخرة.فقال القاضي: يكتب هذا في مكارم الاخلاق "(١).

---

(١) المنتظم (٦/١٨).

عباد الله، إن الغيرة في الإسلام خلق فاضل يتكون من أخلاق فاضلة أخرى، فيكون هو نتيجتها وثمرتها، فمن كان أكمل غيرة محمودة مع حرماته كان أكمل غيرة مع حرمات غيره. قال بعض أهل العلم: " الغيرة خلق فاضل متركب من النجدة والعدل؛ لأن من عدل كره أن يتعدى إلى حرمة غيره، وأن يتعدى غيره على حرمته. ومن كانت النجدة له طبعاً حدثت فيه عزة، ومن العزة تحدث الأنفة من الاهتضام"(١).

فتكون الغيرة بذلك خصلة ذات أهمية كبيرة، وما كان ذات أهمية كبيرة فإنه يستدعي الحرص عليه والسعي إلى زيادته وحمايته.

ومما يدل على الأهمية أيضًا: أن الغيرة من صفات المؤمنين الكاملين، ومن لا غيرة له لا إيمان له.

قال رسول الله ﷺ: (إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وَغَيْرَةُ الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه)(٢). وقال رسول الله ﷺ: (المؤمن يغار، والله أشد غَيْرًا)(٣).

فالإيمان يحمل صاحبه على أن يكون غيوراً لا يرضى بالسوء في دينه ولا في حرماته؛ وذلك أن" أصل الدين الغيرة، ومن لا غيرة له لا دين له، فالغيرة تحمي القلب، فتحمي له الجوارح، فتدفع السوء والفواحش، وعدم الغيرة تميت القلب فتموت الجوارح، فلا يبقى عندها دفع البتة، ومثل الغيرة في القلب مثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه، فإذا ذهبت القوة وجد الداء المحل قابلاً ولم يجد دافعًا فتمكن فكان الهلاك، ومثلها مثل صياصي الجاموس -أي: قرونها- التي تدفع بها عن نفسه

---

(١) رسائل ابن حزم (١/٣٧٣).

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

وعن ولده، فإذا تكسرت طمع فيها عدوه" (١).

ومما يبين أهمية الغيرة أيضًا: أن الغيرة صفة من صفات الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: (لا أحد أغير من الله؛ فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن)(٢).

وقال ﷺ: (يا أمة محمد، ما أحد أغير من الله أن يرى عبده أو أمته تزني)(٣).

" فالغيور قد وافق ربه سبحانه في صفة من صفاته، ومن وافق الله في صفه من صفاته قادته تلك الصفة إليه بزمامه، وأدخلته على ربه، وأدنته منه، وقربته من رحمته، وصيرته محبوباً له؛ فإنه سبحانه رحيم يحب الرحماء، كريم يحب الكرماء، عليم يحب العلماء، قوي يحب المؤمن القوي وهو أحب إليه من المؤمن الضعيف، حيي يحب أهل الحياء، جميل يحب أهل الجمال، وترٌ يحب أهل الوتر "(٤).

ومما يدل على أهمية الغيرة كذلك: أنها صفة سامية من صفات الرجال الشرفاء، الكُمَّل الأعزاء، قال النبي ﷺ في عمر رضي الله عنه: (دخلت الجنة فرأيت فيها داراً أو قصراً فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: لعمر بن الخطاب، فأردت أن أدخل فذكرت غيرتك، فبكى عمر وقال: أيْ رسولَ الله، أوَ عليك يُغار؟!)(٥).

وعن المغيرة قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: (تعجبون من غيرة سعد! والله لأنا أغير

---

(١) الجواب الكافي (ص:٤٥).

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) الجواب الكافي (ص:٤٤).

(٥) متفق عليه.

منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن)[١].وفي رواية عند أحمد: (قالوا: يا رسول الله، لا تلمه؛ فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً، وما طلق امرأة له قط، فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها من شدة غيرته".

قال ابن القيم: " الغيرة حرارة القلب وناره التي تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة، كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديد، وأشرف الناس وأعلاهم قدراً وهمة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس؛ ولهذا كان النبي ﷺ أغير الخلق على الأمة، والله سبحانه أشد غيرة منه "[٢].

وذكر الإمام مالك في موطئه قصة فتى من الأنصار كان حديث عهد بعرس، فخرج مع النبي ﷺ إلى الخندق، ثم استأذن رسول الله ﷺ أن يرجع إلى أهله، فلما رجع وجد زوجته على باب منزله، فأهوى إليها بالرمح ليطعنها وأدركته غيرة-يعني- حينما رآها خارج البيت على الباب- فقالت: لا تعجل حتى تدخل وتنظر ما في بيتك، فدخل فإذا هو بحية منطوية على فراشه، فركز فيها رمحه، ثم خرج بها فنصبه في الدار فاضطربت الحية في رأس الرمح وخر الفتى ميتًا، فما يدري أيهما كان أسرع موتًا: الفتى أم الحية، فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: (إن بالمدينة جِنًّاً قد أسلموا، فإذا رأيتم منهم شيئًا فآذنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه؛ فإنما هو شيطان)[٣].وقال بعض أهل العلم: " ولعمري إن الغيرة لتوجدُ في الحيوان بالخلقة، فكيف وقد أكدتها عندنا الشريعة؟! وما بعد هذا مصاب "[٤].

---

(١) متفق عليه.

(٢) الجواب الكافي (ص:٤٤).

(٣) موطأ مالك (٥/١٤٢٣).

(٤) رسائل ابن حزم (١/٢٧٩).

يذكر أن رجلاً يقال له: الأشجعي بلغ من فرط غيرته أنه منع زوجته الحج خشية رؤيتها الناس، وهذا وإن كان غير مقبول، لكنه يدل على مبلغ غيرته على زوجته.فإنه لما حج بامرأته نظر إلى الناس يوم التروية فهاله كثرتهم فقال: إن رجلاً يُدخل امرأته وسط هؤلاء لمجنون! وضرب وجه راحلته وعاد ولم يحج وقال:

وليس بحرٍّ من يوسِّط زوجةً ... له بين أهل الموسم المتقصدِ
وفيهم رجالٌ كالبدور وجوهُهم ... فمِن بين ذي طرفٍ كثيرٍ وأمردِ[١]

أيها الغيارى الكرام، إن حرص أعداء الفضيلة، واستمرارهم في محاربتها بشتى أنواع الأسلحة قد وصل إلى غاية من الغايات التي يرجونها في المجتمعات المسلمة؛ فقد ظهر ضعف الغيرة بين بعض هذه الأمة اليوم في صور شتى، **منها:**

سماح بعض الرجال بخروج المرأة من البيت ومخالطتها الرجالَ في الدراسة والوظيفة وأماكن العمل.

ومنها: إذن بعض أولياء الأمور لبناتهم بكشف وجوههن أمام الرجال الأجانب، وفي بعض البلاد بكشفهن سُوقَهن وشعورهن وسواعدهن وغير ذلك.

ومنها: عدم إنكار بعض الأولياء والأزواج على زوجاتهم وبناتهم لبس العبايات غير الساترة؛ كالضيقة والرقيقة والشفافة والمزخرفة والمزينة.

ومنها: السماح للنساء بمشاهدة المسلسلات وسماع الأغاني ومتابعة البرامج التي تخدش الحياء وتعرض العورات وتثير الغرائز.

يذكر " أن الحطيئة أقحمته السنة فنزل ببني مقلد بن يربوع، فمشى بعضهم إلى

---

(١) محاضرات الأدباء (١/ ٤٢٦).

بعض وقالوا: إنِ هذا الرجل لا يسلم أحد من لسانه، فتعالوا حتى نسأله عما يحب فنفعله وعما يكره فنجتنبه، فأتوه فقالوا له: يا أبا مليكة، إنك اخترتنا على سائر العرب ووجب حقك علينا، فمُرنا بما تحب أن نفعله، وبما تحب أن ننتهي عنه، فقال: لا تكثروا زيارتي فتملوني، ولا تقطعوها فتوحشوني، ولا تجعلوا فناء بيتي مجلسًا لكم، ولا تُسمعوا بناتي غناء شُبانكم؛ فإن الغناء رقيةُ الزنا.فأقام عندهم وجمع كل رجل منهم ولده وقال: لأمكم الطلاق لئن تغنى أحد منكم والحطيئة مقيم بين أظهرنا لأضربنه ضربة بسيفي، فلم يزل مقيمًا فيما يرضى حتى انجلت عنه السنة فارتحل وهو يقول:

جاورتُ آلَ مُقَلِّدٍ فَحمِدتُهم إذ ليس كلُّ أخي جِوارٍ يُحْمَدُ

أيامَ مَنْ يُرِد الصنيعةَ يَصْطنعْ فينا ومن يُرِد الزَّهادةَ يَزْهَد)[1]

ومنها: ترك الحبل على الغارب في استعمال الزوجات والبنات للجوال عبر خدماته المختلفة من وسائل التواصل الاجتماعي وتصفح المواقع واليوتيوب وغيرها من المسميات.

ومنها: الإذن لخروج الزوجات والبنات إلى الشوارع والأسواق المزدحمة بالرجال وقضاء الأوقات الطويلة هناك من غير محرم.

وردَ عن علي رضي الله عنه أنه قال: (ألا تستحيون أو تغارون؛ فإنه بلغني أن نساءكم يخرجن في الأسواق يزاحمن العلوج!)[2].

وجاء عن الحسن قول قريب من ذلك حيث قال: (أتدعون نساءكم يزاحمن العلوج في الأسواق؟! قبح الله من لا يغار!")[3].

---

(١) الأغاني (٢/١٧١).

(٢) موسوعة المفاهيم الإسلامية (٢/٢٩٦).

(٣) قوت القلوب (٢/٤١٨).

ومنها: عدم إنكار بعض الأزواج وأولياء الأمور على زوجاتهم أو بناتهم الركوبَ مع السائقين من غير أن يكون مع المرأة أحد في تلك السيارة غير السائق.

ومنها: عدم الغضاضة من ذهاب الزوجة أو البنت أو الأخت إلى طبيب في مرض من الأمراض وهناك طبيبات لعلاج ذلك المرض، بل قد يصل الحال إلى النظر إلى العورات المغلظة!

ومنها: السماح للنساء بإبقاء صورهن في الجوالات وقد تكون المصيبة أن تكون الصور في حال تزين المرأة في أعراس وحفلات، ومن المعلوم أن الجوالات معرَّضة للضياع والسرقة والذهاب إلى المهندسين.

ومنها: انتشار الألبسة الفاضحة؛ كالعارية والشفافة والضيقة كالبنطال، وأحيانًا قد تلبسها البنت الشابة أمام إخوانها أو أعمامها وأخوالها، أو الزوجة أمام إخوة زوجها وأقاربه!

ومنها: سماح بعض الآباء بسفر بناتهم للدراسة في الخارج من غير محرم ولا زوج، أو السماح لهن في العمل في محافظة أخرى أو في مكان قد تبيت فيه، وكم من مآسٍ حصلت بسبب ذلك!

هذه بعض المظاهر المؤسفة التي تدل على قلة الحياء وضعف الغيرة، التي نسأل الله أن يعافي المجتمعات المسلمة منها، وأن يرد أهل الزلل إلى رشدهم وكمال حيائهم وغيرتهم.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

أيها المسلمون، إن ضعف الغيرة الذي أدى إلى المظاهر السالفة لم يحصل فجأة أو جاء من غير طرق كانت هي الوسائل إليه، بل وصل الحال إلى تلك النتيجة المرّة عبر أسباب متعددة، **فمن تلك الأسباب:**

أولاً: تكاثف الذنوب وانغماس الإنسان فيها؛ ومن عقوبات المعاصي: "أنها تطفئ من القلب نار الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن"[(١)]، ولأن العاصي يخف وهج الإيمان في قلبه فلا تتم غيرته، بخلاف المؤمن الذي تقوى غيرته بقوة إيمانه. قال ابن القيم: " والمقصود أنه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس، وقد تضعف في القلب جداً فلا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ولا من غيره، وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك، وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح، بل يحسن الفواحش والظلم لغيره ويزينه له ويدعوه إليه ويحثه عليه، ويسعى له في تحصيله؛ ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله، والجنةُ عليه حرام، وكذلك محلل الظلم والبغي لغيره ومزينه لغيره، فانظر ما الذي حملت عليه قلة الغيرة؟! "[(٢)]

ثانيًا: اعتبار أن الغيرة على النساء من العادات والتقاليد وليست من الشرع والدين، فسرعان ما يتركها الإنسان إذا غيَّرَ البيئة السابقة المحافظِة، وهذا ظاهر للعيان

---

(١) الجواب الكافي (ص:٤٣).

(٢) الجواب الكافي (ص:٤٥).

اليوم، فكم من أسرة كانت محافظة على غيرتها في القرى فلما تحضرت وخالطت أهل المدن الحديثة تخلصت من بعض تلك الغيرة السابقة!

ثالثًا: الانبهار بعيش الكفار مما أدى إلى محاكاتهم في أشكال حياتهم حتى بدأت الغيرة بالذوبان بالتدرج.

رابعًا: ممارسة الزوج أو رب الأسرة لخدش أعراض الآخرين فتخف غيرته لذلك على عرضه.

خامسًا: مجاراة المجتمع وإرضاء الناس الذين قد تعودوا على قلة الغيرة؛ خشية من المخالفة والتعيير بقلة الحضارة والتطور!

سادسًا: متابعة الإعلام السيء عبر وسائله المختلفة التي تعمل ليل نهار على نزع خلق الغيرة من المجتمع المسلم.

سابعًا: ضعف قوامة الرجل؛ إما لضعف شخصيته، أو لحبه المفرط لزوجته وبناته، حتى أدى ذلك إلى تصرفهن كما يحلو لهن، قال بعض العلماء في المرأة التي راودت يوسف: " وذلك أن زوجها كان قليل الغيرة أو عديمها، وكان يحب امرأته ويطيعها؛ ولهذا لما اطلع على مراودتها قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[يوسف:٢٩]. فلم يعاقبها، ولم يفرق بينها وبين يوسف؛ حتى لا تتمكن من مراودته، وأمر يوسف أن لا يذكر ما جرى لأحد؛ محبة منه لامرأته، ولو كان فيه غيرة لعاقب المرأة"(١).

وقال آخر: " الرجال أغير على البنات من النساء، فلا تستوي غيرة الرجل على

(١) مجموع الفتاوى (١٥/١١٩).

ابنته وغيرة الأم أبداً، وكم من أم تساعد ابنتها على ما تهواه، ويحملها على ذلك ضعف عقلها، وسرعة انخداعها، وضعف داعي الغيرة في طبعها، بخلاف الأب؛ ولهذا المعنى وغيره جعل الشارع تزويجها إلى أبيها دون أمها "[١].

أيها الأحباب الكرام، وكنتيجة حتمية جاءت عن تلك المقدمة المؤلمة برزت آثار وخيمة لضعف الغيرة وقلة الحمية، فمن تلك الآثار المؤسفة:

قلة الصيانة في بعض النساء وتجرؤهن على ارتكاب ما لا يحل، قال بعض العلماء: " إنّ من ثمرة الحميّة الضعيفة: قلّة الأنفة من التّعرّض للحرم والزّوجة والأمة، واحتمال الذّلّ من الأخسّاء، وصغر النّفس، والقماءة، وقد يثمر عدم الغيرة على الحريم، فإذا كان الأمر كذلك اختلطت الأنساب؛ ولذلك قيل: كلّ أمّة ضعفت الغيرة في رجالها ضعفت الصّيانة في نسائها؛ فإنّه قد خلقت الغيرة لحفظ الأنساب، فعلى هذا كلّ أمّة فقدت الغيرة في رجالها فقدت الصّيانة في نسائها "[٢].

ومن الثمرات المرة: سوء السمعة، وفساد حال الأسرة، وحصول العلاقات غير الشرعية والوقوع في الفاحشة ، وقد يحصل الهروب من البيوت، والوقوع في القتل، وقد تصل الحال إذا ذهبت الغيرة كليةً ولم يتبق منها شيء إلى منحدر الدياثة، وصاحبها هو الذي يرضى الخبث في أهله؛ ولذا استحق من هذا شأنه أن يحرم دخول الجنة.كما قال رسول الله ﷺ: (ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والديوث، ورجلة النساء)[٣].

---

(١) زاد المعاد (٥/٤١٦).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/١٦٨).

(٣) رواه النسائي والبزار، وهو صحيح.

أيها الإخوة الفضلاء، إن الغيرة منها ما هو محمود، ومنها ما هو مذموم؛ فمحمودها أن تكون باعتدال واتزان، من غير سوء ظن واتهام، وأن توافق محلها الشرعي، وتجانب ما نهى عنه الشرع.

وفي اتباع ما جاء به الشرع الحكيم من أسباب الصيانة للمرأة، ووسائل العفة للرجل ما يعين على استقرار الغيرة على ميزان الاعتدال، وهذه هي الغيرة التي يحبها الله تعالى.

وأما الغيرة المذمومة فهي التي جاوزت الحدود الشرعية، وخرجت عن إطار المعقول، حتى وصلت إلى الشكوك وسوء الظنون وتصديق الوشاة من غير تثبت، فحملت صاحبها بعد ذلك على الطعون والقذف وإيذاء حرماته والناس، بلا أدلة كافية ولا براهين قاطعة، ولا سير على منوال الشرع في مجالات التخلق بالغيرة. وهذه الغيرة هي التي يكرهها الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: (إن من الغيرة ما يحب الله، ومنها ما يبغض الله، فأما الغيرة التي يحب الله فالغيرة في الريبة، وأما الغيرة التي يبغض الله فالغيرة في غير ريبة)[1].

قال الشاعر:

ما أحسنَ الغيرةَ في حينها ... وأقبحَ الغيرةَ في كُلِّ حِينْ!
من لم يَزَلْ متّهماً عِرْسَهُ ... مناصباً فيها لريبِ المنونْ
أو شكَ أن يغريَها بالذي ... يخافُ أن يُبْرِزَها للعيونْ
حَسْبُكَ من تَحْصِينِها وضعُها ... منكَ إلى عِرْضٍ صحيحٍ ودِينْ[2]

(١) رواه أحمد والنسائي وأبو داود، وهو حسن.

(٢) الشعر والشعراء (ص:١٨٨).

"قال سليمان لابنه: "يا بني، لا تكثر الغيرة على أهلك؛ فتُرمى بالسوء من أجلك وإن كانت بريئة"(١).

قال بعض الفضلاء: " أما الغيرة فهي خلق طبيعي عام للإنسان والبهائم، وهو ممدوح إذا كان على شرائط الأخلاق، أعني إذا وضع في خاص موضعه ولم يتجاوز به المقدار الذي يجب، ولم ينقص عنه على مثال ما ذكرناه فيما مضى من سائر الأخلاق؛ كالغضب والشهوة؛ فإن هذه أخلاق طبيعية، وإنما يحمد منها ما لم يخرج عن الاعتدال، أو أصيب به موضعه الخاص به، وحقيقةُ الغيرة هي منع الحريم، وحماية الحوزة لأجل حفظ النسل والنسب، فكل من كانت غيرته لأجل ذلك- ثم لم يتجاوز ما ينبغي حتى يحكم بالتهمة الباطلة فيصدق بالظنون الكاذبة، ويبادر إلى العقوبة على ذلك ولم ينقص عما ينبغي حتى يتغافل عن الدلائل الواضحة، ويترك الامتعاض من الرؤية والسماع إذا كان حقاً وكان معتدل الخلق بين هذين الطرفين يغضب كما ينبغي وعلى ما ينبغي-؛ فهو محمود غير ملوم، فأما من فرط أو أفرط في الغيرة فسبيله سبيل من تجاوز الاعتدال في سائر الأخلاق إلى الزيادة أو النقصان، وقد بينا أن الزيادة والنقصان في كل خلق يهجم بصاحبه على ضروب من الشر وأنواع من البلايا والمكاره، ويكون هلاكه على مقدار زيادته أو نقصانه منها"(٢).

فيا عباد الله، يا أيها الغيارى، يا أمة محمد، هذه صيحة نذير، ولوعة حزين، ونصيحة ثمينة، ودعوة محبٍّ، فالغيرةَ الغيرة، والحمية الحمية، والأنفة الأنفة على الأعراض والحُرم، اتبعوا شرع ربكم في غيرتكم، ولا يكن همكم موافقةَ مجتمعكم إن

---

(١) الدر المنثور (٥/٦٤٩).

(٢) الهوامل والشوامل (ص:٢٧٢).

حاد عن شرع الله، ولا تصدقوا حضارة الغرب ودعاتها، فقد نادى عقلاؤهم وحذروا مما وصلت إليه حضارتهم من انعدام الغيرة وذهاب الحمية، ولكن لم يسمع لهم.

فرابطِوا-عباد الله- على حصن الحماية للنساء من الاختلاط بالرجال، وخروجهن من غير رقيب ولا حسيب، احفظوهن في الحجاب الساتر، والمكان الطاهر، ولا تتركوهن ضحايا للإعلام الفاجر، ووسائل التواصل غير الصالحة، وربوهن قبل كل هذا على مراقبة الله تعالى وقوة الإيمان به، والحفاظ على دينهن وحيائهن وعفافهن، فهذا هو الحارس الأمين لهن ولو غابت عنهن أعين الرقابة والصرامة.

إن الكريمةَ ربما أزرى بها ... لينُ الحجاب وضعفُ من لا يحزمُ
وكذاك حوضَك إن أضعتَ فإنه ... يوطأْ ويُشربُ ماؤه ويهدّمُ[1]

هذا وصلوا وسلموا على القدوة المهداة...

(١) محاضرات الأدباء (١/ ٤٢٥).

الفهم السليم، والفهم العقيم
منطلقات وغايات (١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، إن العقل السليم نعمة عظيمة، ومنّة جسيمة؛ فهو نور نستطيع به أن نعرف صواب الأمور من خطئها، وصحيحها من فاسدها، غير أن العقل لا يكتمل إشراقه، و لا يتم ضياؤه حتى يستنير بنور الوحي، فإذا حصل له ذلك فهو العقل التام، والحجا المستقيم.

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ١٧/١٢/١٤٣٨هـ، ٨/٩/٢٠١٧م.

ألا وإن من أعظم أعمال العقل في العمر: الفهم للحياة والأحياء، وفهم ما ينفع الإنسان وما يضره في عاجل أمره وآجله، وتمييز الخير من الشر، والصديق من العدو، والحق من الباطل. فيكون عند الإنسان بعد ذلك تصور صحيح العاقبة لا يهدده شك ولا تراجع، ولا حيرة ولا اضطراب، حتى يصبح فهمه كنور الصباح الذي يشرق على الحياة فيُري الناظرين الأشياء التي أخفاها عنهم ظلام الليل الدامس.

عباد الله، إن صحة الفهم مطلب عظيم، وهدف كبير لابد لكل من أراد السلامة في دنياه وآخرته أن يسعى إليه، ويحرص عليه؛ لأنه القائد الذي يستطيع به المرء أن يصل إلى حقائق الأشياء، وسلوك السبيل الهادية إلى خير الدنيا والآخرة. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: " صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده، بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجلَّ منهما، بل هما ساقا الإسلام وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أُمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة. وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد يميز به بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل والهدى والضلال والغي والرشاد، ويمده حسن القصد، وتحري الحق وتقوى الرب في السر والعلانية، ويقطع مادته اتباع الهوى، وإيثار الدنيا وطلب محمدة الخلق، وترك التقوى "(١).

أيها المسلمون، إن عدو الله إبليس لا يحب للإنسان أن يصل إلى الفهم الصحيح، والتصور السليم في المنافع والمضار؛ فلذلك سعى إلى تزيين الباطل وأهله، وتشويه

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٩٥).

الحق وحملته، ثم جند لهذه المهمة جنوداً من بني آدم وظيفتهم ركوب صهوة الكلمة المسموعة أو المقروءة، والانطلاقُ عليها لبث الظلام في طريق الحق، حتى يثنوا الناس عن الوصول إليه، ونشر التحسين والتزيين للباطل حتى يقبل الناس عليه.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾[الأنعام:١٣٧].

ولا نبالغ إذا قلنا: إنه لا يوجد عصر من العصور على مر الدهور حورب فيه الفهم الصحيح كهذا العصر، الذي ظهر فيه أهل سوء الفهم، وآل إليهم زمام الكلمة والإعلام المتنوع، فراحوا يبثون سمومهم في العقول والتصورات، فألبسوا على الناس دينهم، وأبعدوا كثيراً منهم عن مصالح دنياهم وآخرتهم.

فلما كان الأمر كذلك وجب على المسلم أن يحرص على الفهم الصحيح في أمر دينه أكثر من حرصه على طعامه وشرابه، وأن يحذر كل الحذر من أن تتسلل إليه طلائع سوء الفهم فتصيبه في مقتل، فيصير الحق أو بعض مفرداته في ذهنه باطلاً، أو يصبح الباطل أو بعض مظاهره لديه حقًا وصوابًا.

أيها الأحباب الكرام، إن صحة الفهم بناء يحتاج إلى منطلقات وقواعد يقوم عليها، ثم يكون الشروع بعد ذلك في تشييده وتحسينه، وإيجاد ما يحميه ويدفع عنه عاديات الهدم والاضطراب والتشويه. وبناء الفهم الصحيح أهم من بناء المساكن والأجسام وسائر مصالح الدنيا الفانية؛ لأن صلاح الفهم واستقامته طريق صلاح الدنيا والدين.

فنقول: إن حسن الفهم يقوم على دين متين، وعقل رزين؛ فصاحب الدين المتين ينشد الحق الموافق لكتاب الله وسنة رسوله أينما كان، ولا يجعل شهواته ورغبه ورهبه حائلاً عن الأخذ بذلك الحق.

وصاحب العقل الرزين لا يقبل كل ما يسمع أو يقرأ حتى يعرضه على كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام إن كان له بهما علم، فإن وافقهما قبله، وإن خالفهما تركه، فليس عظم مصدر الكلمة، ولا الدرجة العلمية، ولا المكانة السامية في النفس لقائلٍ ما تجعل الإنسان يسلم بكل ما يقول ذلك القائل، فالحق أحق أن يتبع، وإن لم يكن قائله في تلك المراتب.

قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[الزمر:١٧-١٨].

قال ابن عباس، في معنى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ قال: "هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن، وينكف عن القبيح، فلا يتحدث به"(١).

وقال بعض المفسرين: " وقد دل ثناء الله على عباده المؤمنين الكُمَّل بأنهم أحرزوا صفة اتباع أحسن القول الذي يسمعونه، على شرف النظر والاستدلال للتفرقة بين الحق والباطل، وللتفرقة بين الصواب والخطأ، ولغلق المجال في وجه الشبهة ونفي تلبس السفسطة. وهذا منه ما هو واجب على الأعيان وهو ما يكتسب به الاعتقاد الصحيح على قدر قريحة الناظر، ومنه واجب على الكفاية وهو فضيلة وكمال في الأعيان وهو النظر والاستدلال في شرائع الإسلام وإدراك دلائل ذلك، والفقه في ذلك والفهم فيه والتهمم برعاية مقاصده في شرائع العبادات والمعاملات، وآداب المعاشرة لإقامة نظام الجامعة الإسلامية على أصدق وجه وأكمله، وإلجام الخائضين في ذلك بعماية وغرور، وإلقام المتنطعين والملحدين "(٢).

---

(١) أضواء البيان (٦/٣٥٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/٥٢).

عباد الله، إن من منطلقات **الفهم الصحيح** أن يكون الإنسان مخلصًا لله تعالى، طالبًا لرضاه، فإذا كان كذلك حرص كل الحرص على فهم الأمور على حقيقتها حتى يعبد الله وحده على بصيرة. ولابد عليه كذلك من أن يكون من أهل المراقبة الصادقة لله عز وجل، فهي النور الكاشف الذي يريه ما يصلح تصوره، والعمل به، وما لا يصلح، فإن كان مراقبًا لربه فسيبحث عن الحق ليعمل به.

وُيبنى الفهم الصحيح كذلك على حب الله تعالى وصدق العبودية له؛ فإن من كان محبًا لله صادقًا في عبوديته فسيبني فهمه على الحقائق الثابتة والتصورات التي لا يخالطها غبش ولا حيرة.

ويبنى الفهم الصحيح أيضًا بالعلم النافع، وتتبع المعلومات الصادقة عن الشيء الذي يراد بناء تصور صحيح عنه، والرجوع إلى الموثوق بهم علمًا وديانة. فيكون عند المرء وعي جمعي نتج عن تراكم معلومات وحقائق، وليس وعيًا لحظيًا جاء نتيجة موقف معين فحسب.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[المؤمنون:٦٠] أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال: (لا، يا بنت أبي بكر، أو يا بنت الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلي، وهو يخاف أن لا يتقبل منه)(١).

ويُبنى الفهم الصحيح كذلك على تحري الحق من مصادره الأصلية من غير سماع من أعدائه، أو غير المتثبتين عنه، وفي قصة الطُفَيْل بن عمرو الدَّوْسي ما يدل على هذا؛

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه، وهو صحيح.

فقد قدم مكة في السنة: (١١) من النبوة فحذره المشركون من سماع رسول الله ﷺ، متهمين نبي الله بالسحر؛ ليصرفوا الطفيل عنه. قال الطفيل: "فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئًا، ولا أكلمه، حتى حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد كُرْسُفًا؛ فرقًا من أن يبلغني شيء من قوله".ثم راجع الطفيل نفسه حتى استمع لرسول الله فعرض عليه الإسلام، وتلا عليه القرآن، فقال الطفيل: " فوالله ما سمعت قولًا قط أحسن منه، ولا أمرًا أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق "[1].أرأيتم كيف وصل إلى الحقيقة حينما ترك الوسائط ووصل إلى المصدر الأصلي؟

عباد الله، ويبنى الفهم الصحيح على التثبت والنظر والتأني الذي لا يأخذ بالإشاعة والكلمات الطائرة التي لا زمام لها ولا خطام.قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[الحجرات:٦].

ويبنى الفهم الصحيح أيضًا على تمسك الإنسان بالعدل والإنصاف، الذي يجعل صاحبه يضع الأمور في مواضعها، والأوصاف على موصوفيها، والأسماء على مسمياتها حقًا. لا كما سمع أو قرأ، ولا انتصاراً لنفسه أو لحزبه أو جماعته أو من ينتمي إليه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المائدة:٨].

ويبنى الفهم الصحيح كذلك على استعداد صادق لصحة الفهم، واستقامة

---

(١) الرحيق المختوم (ص:١٠٥).

التصور، ولو كان في ذلك مخالفة لأهوائه وشهواته. أما من لم يكن عنده استعداد وتهيؤ لذلك فإنه قد يقبل ما يصل إليه، ويوافق ما هو عليه من غير أن يبحث ويتحرى الحقيقة؛ ليعرف الحق من الباطل والصدق من الكذب.

أيها الإخوة الفضلاء، إن المسلم إذا رزق الفهم السليم، والتصور المستقيم عن دينه وواقعه، وعمن حوله من أصدقاء وأعداء، وعن أعمال الناس من خير وشر، وصار من أهل صحة الفهم، ومعرفة الأمور على ما هي عليه؛ فإنه سينفع نفسه وغيره ممن سيصلهم قوله أو فعله.

فصحة الفهم تورث صاحبها سلامة المعتقد والفكر، فيبني عقيدته وأفكاره على ما وافق وحي السماء، دون أن يتشرب عقله وقلبه الانحرافات والتأويلات والتشكيكات والتمويهات التي يبثها ذوو الفهم العقيم.

وصحة الفهم تُهدي صاحبها صدق العبادة والمسارعة إلى مرضاة الله تعالى، والبعد عن معصيته.

وبصحة الفهم يحسن التعامل مع الخلق، وبذل الأخلاق الطيبة بينهم.

وفي صحة الفهم يتخذ المرء الموقف المناسب مع الأولياء والأعداء الذي دعا إليه الوحي، فالولاء للمؤمنين، والبراء من الكافرين، والتواضع مع أهل الإيمان، والعزة مع أهل الكفران.

وصحة الفهم تجعل صاحبها عادلاً في أحكامه على الناس فلا يحيد عن الحق في شعوره من حب أو بغض، ولا في أقواله من مدح أو ذم، بل يضع شعوره وأقواله وأوصافه في مواضعها اللائقة بها.

وصحة الفهم تقود إلى النجاة في الدنيا والآخرة، فمن سلم فهمه عمل في دنياه ما يرضي الله ويعينه على الحياة حتى يلقى ربه. ومن سلم فهمه سعى سعيًا حثيثًا للعمل للآخرة، فأقبل على الطاعات واجبها ومستحبها فعملها، وعلى المعاصي فتركها وأبعد نفسه عنها. من غير غلو ولا تقصير، ولا ابتداع ولا خروج عن منهج الحق الذي جاء به محمد ﷺ.

بارك الله لي ولكم بالقرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم.

قلت ما سمعتم، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على النبي المصطفى، وعلى آله وصحبه أهل الهدى، **أما بعد:**

أيها الأحباب الكرام، وفي مقابل الفهم السليم يوجد الفهم العقيم، أو الفهم الخاطئ، أو المنحرف، أو المظلم، أو السطحي، أو غير ذلك من الأسماء المترادفة.

إن سوء الفهم للدين وللحياة والأحياء من المصائب الحالَّة في مجتمعاتنا.والكارثة أنها لا تقتصر على عموم الناس، بل صارت ظاهرة بارزة على بعض الناس من النخب والمثقفين والموجهين للناس من أصحاب الكلمة المسموعة أو المقروءة.

والسبب أن هناك ضعفَ إيمان، وقلةَ مراقبة وتقوى وحرصٍ على الحق والصواب، وهناك ضعف وعي للماضي والحاضر والمستقبل، وهناك قراءات خاطئة من بعض الناس لدين الله تعالى تخالف ما أراد الله تعالى أن يكون عليه عباده.وهناك نظرة قاصرة أو مشوهة عن تاريخ الإسلام وأهله منذ بزوغ فجره إلى اليوم.وهناك تبجيل للحضارة الغربية والمتأثرين بها الذين تنصلوا عن الحضارة الإسلامية، وهناك انجراف نحو التنازل عن الثوابت.وهناك تسليم كامل في الفهم لشخصيات أو جهات ولو كانت النتائج الفهمية مخالفة للشريعة الإسلامية!!.

وهناك فهم جزئي للدين في جانب معين يُعتقد أنه هو الدين كله، دون أن يكون هناك فهم شمولي لمعنى دين الله تعالى.

أيها المسلمون، إن هذه المظاهر وغيرها دعت إليها أسباب أدت إليها؛ فبعض الناس قد ينحدر إلى سوء الفهم للحقائق والأمور بسبب جهله للحق في تلك القضايا،

والمطلوب من المصاب بهذا الداء: أن يتعلم ويبحث عن الحق في مظانه قبل أن تنطبع في ذهنه المفاهيم الخاطئة فيصعب حينها تغييرها.

ومما لا يُشك فيه أيضًا أن البيئة الفاسدة التي يعيش فيها الإنسان لها دور كبير في الوصول إلى سقم الفهم، سواء البيئة الخاصة وهي الأسرة والأقارب، أم البيئة العامة وهي المجتمع الذي يعيش فيه المرء.

ومن العلاج لهذه المشكلة: التعلم النافع الذي يستطيع به الإنسان التمييز بين الحق والباطل، فيوافق أهل بيئته في الحق، ويفارقهم في الباطل.

ويأتي التعصب المقيت والتقليد الأعمى لشخصية أو لحزب أو لجماعة أو لفكرة ما، ليعمي صاحبه عن الفهم الصحيح بحيث يصير فهمه أسير تلك الجهات، فما صدر عنها فهو الحق الذي لا باطل معه، من غير أن يعرض ذلك على ميزان الوحي المعصوم، ليعرف أذلك موافق للحق أم لا؟

وهذه مصيبة كبيرة بُلي بها المجتمع المسلم اليوم، حتى أدى ذلك إلى شيطنة الملائكة، وأملكة الشياطين، وتخوين الأمناء، وائتمان الخائنين، وتصديق الكاذبين وتكذيب الصادقين!!

والعلاج لهذه المصيبة: أن يعلم المرء أن هؤلاء الناس الذين يسلم عقله وفهمه لهم أنهم بشر يخطئون ويصيبون، وليسوا معصومين من الخطأ والهوى والزلل.

أيها الإخوة الأفاضل، ولا ننسى أن شهوات الدنيا من حرص على المال، أو الشهرة، أو الوظائف والمناصب، والحفاظ على المكانة والرئاسات الدنيوية على الناس تمثل سببًا رئيسًا لسوء الأفهام أيضًا.

فكم من إنسان أظلم فهمه حينما أغرته أعراض الدنيا الفانية، فباع دينه وأخلاقه الحميدة متجهًا نحوها.

فأين تقوى الله تعالى، والخوف منه، واليقين بأن ما عنده لأهل طاعته خير من الدنيا وما فيها، وما تساوي الدنيا أمام جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، ولم تعد للذين باعوا دينهم بعرض من الدنيا قليل؟

عباد الله، ومع كل هذه الأسباب المؤدية إلى اسوداد الأفهام وانحرافها فإن هناك سببًا آخر انفرد به عصرنا يفوق ما تقدمه من الأسباب، هذا السبب هو الإعلام السيء على اختلاف وسائله: المرئية والمسموعة والمقروءة.فكم أحدث إعلام الباطل من زلازل ذهنية، وكوارث فهمية في عقول بعض المسلمين، حتى أصبحوا أرقّاء لتلك الوسائل التي صارت توجههم إلى أي فهم سيء تريد، وهم يقبلون ما جاء فيها من غير رفض ولا غربلة.ولم يعد خافيًا أن أكثر وسائل الإعلام وأعظمها تأثيراً بين الناس هي بأيدي أعداء الحق والفضيلة.

إخواني الفضلاء، إن سوء الفهم مصيبة قد تؤدي إلى ترك الطاعات، وارتكاب السيئات، وقد يوصل بعض الناس إلى الخروج عن الإسلام بما ثقل به من الشبهات والأفكار المخالفة لثوابت الإسلام وأصوله الراسخة.

وسوء الفهم يؤدي إلى الشك والحيرة في الأمور اليقينيات، فيصبح الإنسان مضطرب الحال، متموج البال.

وسوء الفهم ساق بعض الناس إلى عد المعاصي طاعات وقربات، وجعل الطاعات تهمًا وسيئات عظيمات.

وسوء الفهم أدى في المجتمع المسلم إلى التهاجر والقطيعة والتراشق بالألقاب والاتهامات والتبديع والتفسيق والتكفير من غير برهان من الله ورسوله.

فيا عباد الله، الحرصَ الحرص على جلاء الأفهام، وتصحيحها وتلقيحها بالإخلاص والتقوى والإنصاف، وبالعلوم والمعارف التي توصل إلى مرضاة الله، والتثبت قبل إصدار الأحكام على القائلين والأقوال.

والبعد كل البعد عن وسائل الإعلام التي تزين الباطل وأهله، وتشوه الحق وذويه، وتصرف العقول عن سلم الوصول إلى نيل المأمول من معرفة الحقائق، وكشف زيف معوجِّ الطرائق.

هذا وصلوا وسلموا على النبي الكريم....

اليقين بحُسن فعل ربِّ العالمين (١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، لقد خلق الله تعالى الجن والإنس لتكليفهم أمراً ونهيًا، فأمرهم بأوامر يمتثلونها، ونهاهم عن نواهٍ يجتنبونها؛ رحمة بهم، وإكرامًا منه لهم؛ لكي يسعدوا بذلك في حياتَيْهم: الأمدية، والأبدية، فينالوا رضوان الله تعالى وجنته، ويُرزقوا سماعَ خطابه ورؤيَتَه، وذلك غاية النعيم، والفوزِ العظيم.

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ١٤٣٨/٧/١٧هـ، ٢٠١٧/٤/١٤م.

وقد كان من تكليفه لعباده: أن يحسنوا الظن بفعله، ويوقنوا بحسن ما عنده؛ فإن أفعاله -جل وعلا- كلُّها حسنة، قائمة على الصواب والحكمة، والعلم والقدرة، فلا يتطرق إليها شيء من الخطأ والعبث، ولا الجهل والظلم، فتبارك ربنا، وتنزَّه عن كل سوء.

فلما كان الأمر كذلك وجب اليقين بحسن صنعه، فيما أحبَّ الإنسانُ وكَرِه، وأُعطيَ ومُنِع.

فالخير كلُّه بيد الله، والأمر أجمعه إليه، فما أحسنَ اليقين بجميل فعله، وحسنِ صنعه جل جلاله.

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الشورى:٣٦].

عباد الله، إن اليقين درجة عليا من درجات العلم، توصل صاحبَها إلى الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، الذي لا يزول بتشكيك مشكِّك، ولا ترددِ ظانٍّ.

وليس المسلمون على درجة واحدة في اليقين بحسن فعل رب العالمين، بل تفاوتت درجاتهم فيه، وظهر التمايز بينهم في كماله ونقصانه.وبرهن على ذلك الاختلافِ علواً وانخفاضًا أعمالُ الباطن والظاهر؛ فمن كان أكثرَ يقينًا كان أكثر توكلاً، وأخلصَ عملاً، وأسبق خيراً، وأقل همًّا، وأكثر لله حبًّا، وأشدَّ إقبالاً على عمل الآخرة، وإعراضًا عن ملهيات الدنيا.

ومتى امتلأ القلب باليقين بحسن فعل رب العالمين شعَّ القلب نوراً وبصيرة، فرأى الطريقَ إلى الله واضحة بيِّنة فسلكها بعزم وجِدٍّ، وترك ما سواها من السبل التي تصدُّ عنها، وتلهي مَن سلكها عن تلك السبيل.

فأسرَجَ في تلك السبيل عزيمةً ... تُسابِقُ عدوَ الريح حين تثورُ
ويمَّمَ وجهَ الفوزِ والعزِّ موقنًا ... بفجر وراء الليل سوف يُنيرُ

أيها المسلمون، إن الحياة الدنيوية مشوبة بالابتلاءات، مليئة بالمنغصات، ولكن أمام المؤمن موعودات سماوية عاجلة، وآجلة إذا كمل يقينه بها هانت عليه أحزانه، وخفَّت مصائبه، وأشرقت حياته، وتاقت نفسه إلى لقاء ما وعد الله تعالى به.

كم يقاسي الإنسانُ في هذه الحياة ما يُضيِّق عليه عيشَه، ويكدِّر خاطرَه، ويوحش أُنسَه، ويؤلم نفسه. فكم يتجرَّع آلامَ السقم، ويذوق أوجاع الألم، وكم يُفجع بفقد حبيب، ورحيلِ صديق أو قريب، وكم تمتد إليه يدُ الظلم والجور، ويُسلَب بعضَ حقوقه، ومصالحه المشروعة، وكم ينال من أذى المؤذين، واستطالة المعتدين، وكم تفزعه المخاوف، وتقلق سكينتَه همومُ آتِ الزمان، وكم تحول الحوائل دون بلوغ آماله، وطموحاته، ورغائبه، ومطالبه، وكم يتمنى ويرجو، ولا تتحقق كل أمانيه، وجميعُ رجائه.

وبين شدة معاناة وقوع الآلام، وشدة امتناع تحقق الآمال يأتي اليقين بحسن فعل الله تعالى ليجد المؤمن الموقن تحت ظله الظليل برْدَ الاطمئنان، وراحة البال، وخفة البلاء، والتفاؤلَ بمجيء النعماء. فعنده إيمان جازم بأن الله تعالى هو خالق الحياة ومدبِّرها، وأنه لن يخرج شيء عن تقديره وتدبيره، وعلمه وحكمته.

فبيقينه بحكمة الله التي لا يتطرق إليها خطأ ولا عبث يعلم أن ما يجري هو قدرُ الله الذي قد كُتب على الخلق قبل وجودهم، وليس من خيارٍ أمام قضاء الله وقدره الحكيم إلا الرضا والتسليم، فحينئذٍ تسكن نفسُه، ويأمن روعه، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحديد:٢٢].

وبيقينه بعدل الله الذي لا يُظلم عنده أحد، وقدرته التي لا يفوتها شيء يعلم أن كل ظالم له أو لغيره سينال جزاءه العادل، إن عاجلاً، أو آجلاً، فعند ذلك يتفاءل ويطمئن، ولا يتسلط عليه اليأس، ولا القنوط.

وما من يدٍ إلا يدُ الله فوقَها ولا ظالمٍ إلا سيُبلى بظالم[1]

وبيقينه برحمة الله التي وسعت كلَّ شيء-إن كان هو من أهل التقوى- يعلم أن ما جرى له هو مظهر من مظاهر رحمة الله به، ولو جاء ذلك في ثوب ما يكره، ولا يريد، فإن في طيات ذلك ما يحب؛ فالمنح قد تلدُها أرحامُ المحن.

وبيقينه بعون الله القوي القادر الذي يتفضل بعونه على عباده المؤمنين يقوى قلبه، ويشتد رجاؤه في نيل ذلك الفضل ما دام من المؤمنين، فيتسلى عند ذلك من أشجانه، ويتطلع إلى عون الله تعالى في آفاق آماله.

أيها الأحباب الكرام، إن المؤمن الموقن بحسن فعل الله حينما تعصف به الشدائد، وتحيط به المكاره، وتضيق عنه أبوابُ الفرج فإنه لا ييأس ولا يجزع، بل يعلم أنها بقدر الله تعالى، وأن لله عز وجل فيها حكمًا، وغايات حميدة في أسبابها، وفي آثارها، وأن تلك البلايا إلى زوال مهما اشتد حبلها وطال.

فإذا قُدِر على المؤمن رزقُه، وضاق عليه عيشه، فقد يكون ذلك نتيجة ذنوبٍ مضت تلك كفارتها، وأن ذلك الألم المعيشي يسوقه إلى التوبة، والتضرع بين يدي ربه، والتوكل عليه، وسؤاله وحده، ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[النساء:١٩].

(١) أدب الدنيا والدين (ص:٤١١).

وإذا ظلَّلته سحبُ الحروب ونتائجها المرَّة علم أنها جنينُ سيئات الماضي قُدِّر أن تولَد في هذا الحاضر؛ تأديبًا للمعرضين عن ربهم، وإرجاعًا للشاردين عن معبودهم، وتخليصًا للمظلومين، وتخلّصًا من الظالمين، وغربلة لصفوف المسلمين؛ لإظهار الصادقين من الكاذبين في إيمانهم. كما يعلم كذلك أن تلك الحروب لابد منتهية، وغير باقية، فقليلاً من الصبر والتجلد فعسى أن تشرق شمس الفرج.

وإذا نزلت به الأمراض، واستولت عليه الغموم والأحزان فإنه يكشفها، أو يخففها بحسن ظنه بما عند الله تعالى من الموعودات الكاملة للراضين بقضائه، الصابرين على بلائه. فهو على يقين بجزاء الصابرين المؤمنين ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[البقرة:١٥٦-١٥٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر:١٠].

وقال النبي ﷺ: (ما يصيب المؤمنَ من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه)(١).

وقال: (أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صُلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة) (٢).

كما أنه على يقين بثواب الله تعالى الذي أعده لعباده المؤمنين الموقنين، من نعيم الجنة، وحلول رضوان الله عنهم، بعدما عبروا الدنيا ثابتين على الحق، صابرين على طاعة الله وقدره، ومصبِّرين أنفسهم عن مجاوزة حدوده.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[فاطر:٣٤-٣٥].

أيها الإخوة الفضلاء، إن الموقن بحسن فعل الله تعالى أيضًا: إذا رأى علوَ الباطل، وانتفاش أهله، وإيذاءهم للحق وذويه، فظهرت بذلك المنكرات، وقلَّ المعروف، فأصبح ذو الطاعة المنيب غريبًا عن مجتمعه، مسخوراً منه؛ فإن الموقن في هذه الليالي الحالكة لا يقنط، ولا يذيبه الحزن؛ لإيقانه بأن الباطل قد يعلو لكنه لا يدوم، فهو إلى ذهاب وزهوق، وأهلُه إلى ذل وهلاك.

قال تعالى: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[آل عمران:١٩٦-١٩٧]، وقال: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[الإسراء:٨١]. وعندما يدمغ الحقُّ الباطلَ ويُذهِبه ترفرفُ أعلامُ النصر المنشود، وتبتهج الحياة تحت لوائه المعقود، فيظهر المعروف، ويأفل المنكر، ويعلو الحق، ويسفل الباطل.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الروم:٤٧]، وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾[غافر:٥١].

خرج موسى عليه السلام من مصر ببني إسرائيل خوفًا من فرعون وملائه أن يفتنهم، فتبعهم فرعون بجنوده، فأصبح قوم موسى بين هلاكين: البحر أمامهم، والعدو خلفهم، فما كان موقف بني إسرائيل، وما موقف موسى الذي كمل يقينه بحسن فعل الله تعالى، وماذا كانت النتيجة؟ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ *

وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء:٦١-٦٧].

وخرج نبينا محمد ﷺ صحبةَ أبي بكر مهاجراً إلى المدينة، ومشركو قريش يتتبعون آثار أقدامه حتى وصلوا إلى باب الغار، مريدين الفتك به، وإرجاعه إلى مكة حيًا، أو ميتًا، فما كان موقفه والعدو لو نظر تحت قدميه لرآهم؟ قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:٤٠].

فتمَّ لنبي الله موسى عليه السلام النجاة، والانتصار على فرعون وجنده، وتم لرسولنا محمد عليه الصلاة والسلام النجاة، والانتصار على قريش ومكرهم.عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا! فقال: (ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما) (١).

عباد الله، كما أن الموقن بحسن فعل الله تعالى لا تذهب نفسُه حسرات، ولا يرهقه الغم حينما يشاهد بطشَ الكافرين بالمسلمين، وشدة سطوتهم عليهم، وإطالة أمد ظلمهم، وامتداد حلم الله عليهم؛ فإنه يعلم أن هناك موعداً أليمًا يستقبل إدبار حياة أولئك الظالمين، وأن هناك عاقبة حسنة تكمن خلف رهج البلاء يوشك الجوُّ أن يصفو من كدره فتبدو أسارير سرورها، وإشراقات أفراحها.

قال تعالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[آل عمران:١٧٨]، وقال: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا

(١) متفق عليه.

يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ۞ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[إبراهيم:٤٢-٤٣].

وعن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته).قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[هود:١٠٢][١].

أيها المسلمون، إن الموقنين بحسن فعل الله تعالى أقدموا على القيام بطاعة الله، وسارعوا إلى مراضيه، فالتزموا الواجبات، وسابقوا إلى المستحبات، فهم معروفون بالخيرات، متنافسون على القربات.فالصلاة والصيام، والصدقات، والأخلاق الحسنة، وأعمال القلوب الحميدة تشهد لهم بالحضور والسبق.

وإنما أقبلوا على ذلك، وداوموا عليه ليقينهم القوي بما عند الله من الثواب الجزيل لأهل طاعته، والمسارعين إلى مرضاته، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء:٩٠].

وفي الجانب الآخر من جانبي التكليف أحجموا عن معصية الله جل وعلا، وكبحوا جماح نفوسهم عن ركوب الشهوات المحرمة، وحفظوا جوارحهم عن ورود المأثمة، وظلوا مراقبين لله تعالى، خائفين أن يقعوا في سخطه، فإن وقعوا لم يستصغروا، ولم يصروا على ما فعلوا، بل أقلعوا، وتابوا، واستغفروا.وإنما صنعوا ذلك لكمال يقينهم بما عند الله لأهل معصيته من عظمة العقاب، ولما في جزائه عليها من أليم العذاب.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) متفق عليه.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون، وفي مقابل أهل اليقين بحسن فعل رب العالمين في العاجل والآجل؛ يبدو على أسوأ حال أهلُ السخط، والتكذيب، والشك بفعل ربهم تبارك وتعالى.

وليس ضعفاء اليقين على دركة واحدة في الموقف من فعل الله عز وجل، فهناك الكافر، وهناك المنافق، وهناك المسلم المتردد الضعيف.

ولن نتحدث عن الأول والثاني؛ لأن تكذيبهم وشكهم تابع لمعتقدهم الذي يوردهم إلى جهنم وبئس المهاد إن ماتوا عليه.

ولكن نتحدث عن المسلم الضعيف في يقينه بفعل ربه سبحانه وتعالى، **فنقول:**

إن بعض الناس قد لا يعرف أنه من ضعفاء اليقين بفعل الله، فكيف يدرك ذلك؟

والجواب: أن هناك **أربعة أمور** يمكنه من خلالها أن يعرف هل هو من أهل قوة اليقين، أو من أهل ضعفه.

الأول: عليه أن يختبر نفسه مع الطاعات وجزائها، فإن كان تاركًا للواجبات، غيرَ مسارع إلى المستحبات، شاغلاً وقته بملهيات الحياة الدنيا، غافلاً عن الآخرة، وما فيها من جزاء الطائعين العظيم، فإن كان كذلك فليعلم أنه ضعيف اليقين؛ لأنه لو كان قوي

اليقين لما صار إلى تلك الحال من التفريط؛ فقوي اليقين بما أعده الله لأهل طاعته من الأجر والمثوبة لا يتخلّف عن سبيل الوصول إلى ذلك، ولا ينشغل عن تلك الوعود بغيرها.

الثاني: أن يختبر نفسه مع المعاصي؛ فإن رآها ميَّالة إلى الذنوب، مستمرة عليها، غير مقلعة عنها، غير مفكر في وعيدها وعقابها؛ فليعلم أنه ضعيف اليقين؛ إذ لو كان قويَّه لحجز نفسَه عن سلوك تلك المهالك، أو تاب منها، وأقلع عن اقترافها إذا فعلها.

الثالث: أن يختبر نفسه كذلك مع الأقدار المؤلمة، وثواب من صبر عندها، فإن كان حين نزولها ساخطًا متضجراً، جزعاً كارهًا؛ فليعلم أنه ضعيف اليقين؛ لأنه لو كان من أهل قوته لرضي وصبر، وانقاد وسلَّم؛ لما يعلم من حكمة الله في أقداره، وحسن جزائه للصابرين على بلوائه.

الرابع: أن يختبر نفسه أيضًا مع ما وعد الله به عباده المؤمنين من العاقبة الحسنة، والظفر والظهور، والفرج وزوال الشدائد؛ فإن أهل الإيمان يمرون بمنعطفات البلاء فإن صبروا وصابروا، وأيقنوا واتقوا، وثبتوا وتفاءلوا نالوا تلك الوعود الكريمة. قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[النور:٥٥]. وقال: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[الأعراف:١٢٨]. وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[البقرة:٢١٤].

فإن كان هذا الإنسان مصدقًا بما وعد الله موقنًا بحصوله غير شاك في مجيئه فهو

قوي اليقين. فإن شك واستبعد، أو يئس من حصول تلك الوعود فليعلم أنه ضعيف اليقين.

فيا أيها المسلمون، اليقينَ اليقينَ بحسن فعل رب العالمين، فما عند الله خير للمؤمنين، واختيارُ الله لعبده المؤمن خير من اختيار العبد لنفسه، فمن نال هذه الدرجة فما أحسن حالَه، وما أنعم مآلَه!

هذا وصلوا وسلموا على خير البشر....

قصة أصحاب الجنة..دروس وعبر [(١)]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي نبيه محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، إن في القرآن الكريم لعبراً للمعتبرين، ومواعظ للمتعظين، ونوراً مبينًا لمن يروم أحسن المسالك، والنجاة من طرق المهالك.فمن اعتبر به واتعظ دلَّه إلى كل خير، وحال بينه وبين كل شر، ومن تأمله وعقله وتدبره ووعاه وجعله دليله حيثما توجه لم تَغْشه ظلمات الشبهات والآراء، ومضلات الشهوات والأهواء، بل عاش به تحت ظلال النور الوارف، الذي يسدل عليه ضياء الحق والهدى.

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في الشهر الثاني عشر سنة: (٢٠١٦م).

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[الإسراء:٩-١٠].

عباد الله، إن القرآن الكريم منهج حياة منير، ودستور نجاة كبير، وليس كتابًا تقدسه القلوب، وتقرأه العيون فحسب، دون أن تعمل الجوارح بهداياته وأوامره في واقع الحياة.

إننا نحن المسلمين لو تدبرنا القرآن وعملنا بما فيه، وجعلناه قائدنا في كل شؤون حياتنا الدينية والدنيوية لربحنا السعادة في الدنيا والآخرة، بل لصرنا أعزة بعد الذلة، أقوياء بعد الضعف.

أيها الأحباب، إن الناظر في القرآن الكريم يجد فيه الدعوة إلى الحق والهدى، والنهيَ عن الباطل والردى بنصوص صريحة، وقد يجد ذلك يُساق بغير تصريح، لكن يجيء في قالب الاعتبار والاتعاظ الذي يحمل في طياته أوامر تُعمل، ونواهي تجتنب، ومن أمثلة هذا: القِصص القرآنية، التي تأتي أحداثها عن الأمم والأفراد، فتذكر ما كان يعمل أولئك الناس وكيف كانت عاقبتهم.ومن تلك القصص التي ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم لنتعظ بها، ونأخذ منها الدروس والعبر: قصة أصحاب الجنة في سورة القلم.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَارِمِينَ * فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا

تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ * كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[القلم:١٧-٣٣].

أيها الإخوة الفضلاء، هذه الآيات الكريمة تحكي قصة قوم عاشوا في غابر الزمن، قريبًا من منطقة ضروان من صنعاء اليمن. كانت لهم مزرعة عظيمة ورثوها عن أبيهم الصالح، الذي سار فيها قبلهم سيرة حسنة بإعطاء حق الفقراء منها؛ طاعة لله تعالى، وعطفًا على أولئك المحتاجين. لكن أولاده من بعده حادوا عن طريق أبيهم، ولم يسيروا سيرته الحسنة فيما يَخرج من تلك المزرعة من الزرع والثمر، حيث منعوا حق الفقراء والمساكين منها، فعوقبوا بذهاب تلك المزرعة كلها.

وجوُّ القصة يكشف لنا أن أولئك الأولاد لم يكونوا كفاراً، بل كانوا مسلمين، لكنهم بطروا النعمة، ومنعوا الزكاة، وقسوا على المعوزين ولم يرحموهم فيُرحموا ببقاء جنتهم.

لقد نزلت هذه الآيات الكريمة على نبينا ﷺ وهو في مكة بين ظهراني قريش التي ما زالت تحاربه وتكذبه، وتصد الناس عنه، وهي تعيش في ربوع مكة في أمن ودعة ورغد عيش وسعة؛ حيث أطعمهم الله تعالى من جوع وآمنهم من خوف، والقبائل من حول قريش يتخطفها الخوف والجوع. قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾[النحل:١١٢]، وقال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[القصص:٥٧]. فلما كانت قريش ترفل في سربال هذه النعم، وتصد عن الحق هذا الصدود الصلف أنزل الله تعالى على رسوله هذه الآيات؛ ليعظ بها قريشًا ومن معها، ويبين لهم أنهم إن لم

يشكروا الله فيؤمنوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، فإن الله سيذهب عنهم تلك النعم، وينزل عليهم مكانها النقم، كما فعل بأصحاب مزرعة ضروان.

وهي رسالة عظةٍ لكل منحرف عن الحق أو ظالم للخلق وهو يعيش بين أحضان النعم، ويتيه في جوانب رغد العيش، ولازال عن شكر ربه معرضًا، ولحقوق خلقه منتهكًا، أن يصحو من سكرته، ويفيق من غفلته قبل أن تنزل العقوبة بساحته كما نزلت بأصحاب هذا البستان.﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾[النازعات:٢٦].

عباد الله، يقول تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلا يَسْتَثْنُونَ﴾[القلم:١٧-١٨]. والمعنى: إنا اختبرنا المكذبين من قريش كما اختبرنا أصحاب بستان ضروان، فكما أمد الله أصحاب هذه الجنة بنعمة سعة الرزق فلم يشكروها أمد كذلك قريشًا بنعمة الأمن السابغ، والرزق الواسع، وأتم نعمته عليهم ببعثة رسوله محمد عليه الصلاة والسلام من أرضهم.

لقد أجمع أصحاب هذه الجنة واتفقوا على حرمان اليتامى والمساكين حقهم من ثمارها، وأكدوا هذه النية بأن أقسموا أيمانًا على ذلك؛ ليلزموا أنفسهم بما عزموا عليه. واتفقوا على قطع ثمر تلك الجنة في أول وقت الفجر قبل مجيء الفقراء إليهم، وعزموا على الأمر من غير إبقاء شيء للمحتاجين، ولم يقولوا: إن شاء الله حينما صاروا لا يتوقعون شيئًا يعوقهم عن هدفهم المنشود.

فيستفاد مما سبق: أن العقلاء يأخذون العبرة من غيرهم فلا يستمرون في السير على طريق يؤول إلى العاقبة السيئة، ويستفاد كذلك: أن نهايات المسرفين على أنفسهم قد تتفق، وإن تباعدت الأزمان والأماكن والأسباب، وأن العزم على المعصية وسلوك طريقها معصية وإن لم تُعمل، وأن النية الفاسدة تقضي على الخير الموجود لدى صاحبها.

لقد نزلت العقوبة بقريش بعد خروج رسول الله ﷺ من مكة؛ فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن قريشًا لما استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد فأنزل الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الدخان:١٠-١١]. قال: فأتي رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله، استسق الله لمضر. فإنها قد هلكت. قال: (لمضر؟ إنك لجريء). فاستسقى فسقوا. فنزلت: ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾[الدخان:١٥] فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية فأنزل الله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾[الدخان:١٦] قال: يعني: يوم بدر.[1].

أيها المسلمون، ثم يقول تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾[القلم:١٩-٢٠].

هذا هو المشهد الثاني من القصة، وهو مشهد نزول العقوبة عقب ذلك العزم السيء من أصحاب الجنة على منع المساكين حقهم. فما هي العقوبة؟ ومتى كان وقتها؟ وكم كان قدرها؟ وكيف كانت صورتها؟.

إن العقوبة التي حلت بهذه الجنة الظالم أهلها هي إحراق تلك المزرعة؛ فقد أنزل الله تعالى عليها في الليل ناراً أحرقتها كلها من جميع جوانبها، وأصحابها يغطون في نوم عميق ينتظرون بزوغ الفجر لتنفيذ مكرهم وكيدهم. فصارت تلك الجنة بعد اخضرارها وبهجتها سوداء كالليل المظلم.

فمن العبر مما جرى: بيان سعة علم الله تعالى، وإحاطته بكل شيء، فبينا أولئك

---

(١) رواه البخاري.

النفر يعقدون حبال المؤامرة على منع الحق في الأرض إذ بالعقوبة تتهيأ في السماء لتنزل عليهم.

ومن العبر: أن البخل بالحقوق يوصل إلى العقوبات المالية التي تورث الحسرات والندامات والخسارات.

وأن النعمة التي لا تحرس بالشكر والطاعة قد تنقلب إلى نقمة في لمحة بصر. أحوج ما يكون صاحبها إلى تلك النعمة.

أيها الإخوة الكرام، ثم يقول الله تعالى: ﴿فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَارِمِينَ * فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾[القلم:٢١-٢٥].

لقد أصبح الصباح ففرح أصحاب المزرعة ببزوغ نوره لتلبية رغبات النفوس الشريرة، فنادى بعضهم بعضًا صباحًا؛ لكي يذهبوا إلى مزرعتهم مبكرين؛ من أجل قطع ثمراتها قبل مجيء الفقراء، أو من أجل قطع الفقراء أو منعهم حقهم. فذهبوا مسرعين يكلم بعضهم بعضًا سراً؛ حتى لا يسمعهم الفقراء فيتبعوهم إلى المزرعة، فذهبوا وهم يعتقدون بأنهم قادرون على تنفيذ ما دبروه من غير مانع يحبسهم عن ذلك.

فماذا رأوا في جنتهم عندما بلغوها، وما الصورة التي شاهدوها حينما وصلوا إليها، وماذا قالوا حينما رأوا ذلك المشهد المؤلم الذي لم يتوقعوه؟ وهل كانوا على رأي واحد أو أنهم انقسموا في الرأي؟ وما كان حالهم وعاقبة أمرهم بعد فناء نعمتهم؟ سنتابع ذلك في الخطبة الثانية إن شاء الله تعالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

أيها المسلمون، يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾[القلم:٢٦-٢٧].

هنا مشهد الفاجعة، ورؤية الكارثة، ومشاهدة آثار العقوبة التي عمت النعمة التي لم يشكرها أصحاب الجنة. ولما كان هذا الأمر غير متصور في بالهم، وغير داخل في خيالهم، وصلوا إلى درجة الحيرة والشك وتكذيب أبصارهم فيما رأوا، فقالوا: لقد تهنا عن طريق جنتنا التي نعرفها، فلعل هذه الجنة غيرها، فنحن تركناها حسنة المنظر، طيبة الثمر!

غير أن سكرة التكذيب ذهبت بصحوة التصديق بُعيد التأمل، فتيقنوا حينها أنها جنتهم لا غيرها. فنكسوا على رؤوسهم واعترفوا بحرمانهم خيرها، وأنهم كانوا بعزمهم الذميم عن الحق ضالين، ومن الثواب محرومين.

أيها الأحبة الأفاضل، إن أصحاب الجنة لم يكونوا على درجة واحدة من العزم على تلك المعصية التي بيتوها، وأصبحوا ساعين إليها، بل كان فيهم ناصح منهم، لكنهم لم يستمعوا نصيحته، فغلبوه حتى صار معهم في غدوهم على مضض. فلهذا لما رأوا نزول العقوبة على مزرعتهم قام أفضلهم وخيارهم يذكرهم بنصحه السابق لهم قائلاً: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾[القلم:٢٨]. يعني: هلا استغفرتم الله من عزمكم السيء،

وذكرتم الله ونزهتموه عما لا يليق به. فلما سمعوا منه هذا التذكير رجع إليهم صوابهم، وآبت إليهم عقولهم، وطار عنهم كبرياؤهم، فسمعوا كلماته ونصيحته الآن، ولكن بعد فوات الأوان.

قال تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾[القلم:٢٩-٣١].

يعني: فنزهوا الله عن أن يكون ظلمهم بهذه العقوبة، بل اعترفوا على أنفسهم بأنهم هم الظالمون، ولام بعضهم بعضًا على سوء صنيعهم، وأقروا على أنفسهم بأنها تجاوزت حدود الله تعالى. فكان هذا الندم منهم والاعتراف بخطيئتهم توبة قدموها إلى الله تعالى، طامعين في مغفرته، وتبديله وفضله.

قال تعالى: ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾[القلم:٣٢].

ثم إن الله تعالى ختم هذه القصة -بعد أن أطلع المشركين على حال هذه الجنة التي لم يشكر أصحابها ربهم عليها قبل ذهابها- ببيان أن المصير واحد لكل من جحد نعم الله عليه، فقال: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[القلم:٣٣]. يعني: وهكذا يكون عذاب الدنيا لمن خالف أمر الله، ولكن العذاب الشديد هو عذاب الآخرة لمن لم يتب قبل موته.

أيها الأحباب، وبعد هذه النهاية المأساوية التي لقيتها جنة هؤلاء القوم الذين لم يشكروا الله على نعمته بها فيؤدوا حقه منها، ويذهب عنهم غرور الغنى، والكبر بالنعمة غير المشكورة؛ **نقول:**

-إن النعمة-أيًا كانت- هي ابتلاء من الله لمن أُعطيها: هل يشكرها أو لا يشكرها؟

-وأن الإحسان إلى المساكين والمحتاجين مما تحفظ به النعمة المالية من الكوارث والجوائح.

-وأن النعمة مهما اتسعت وعظمت ليست في مأمن من الفناء والمحق الذي قد يزيلها في طرفة عين.

-وأن الذنوب تورث العقوبات العاجلة، مهما امتد حبل الإمهال للمذنب.

-وأن بعض المصائب قد ترد بعض الناس إلى جادة الصواب، وتعيدهم إلى الحق بعد أن شردهم عنها البطر بالنعم.

-وأن حال الإنسان الدينية بعد ذهاب النعمة غير المشكورة قد تكون أحسن مما قبلها.

فيا من أسبغ الله عليه نعمة: اشكرها ولا تكفرها، واحفظها من عوامل الزوال ولا تضيعها، واحرسها بطاعة من أنعم عليك بها، واستعملها فيما يرضيه. وأحسن منها على الخلق، ولا تبخل بمنعهم حقهم منها.

وإياك أن تجعل نعمتك سبيلاً إلى الكبر على ربك، والظلم لأبناء جنسك.

فمن لم يعرف حق الله في نعمته، واستخدمها في معصيته، وسعى بها إلى إيذاء خلقه فليكبر عليها أربعًا، وليستعد لقبول العزاء عليها إن بقي بعدها، وليوفر لها دموع الحزن والحسرة، وزفرات الندم زفرة على إثر زفرة؛ فإنها ذاهبة بعقوبة نازلة مهما طال الزمن. ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾[الأحزاب:٣٨].

هذا وصلوا وسلموا على النبي الكريم...

أمانةُ الوُدِّ القديم (١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، إن الخلق الحسن، من أعظم المنن، وأجزلِ عطايا الرزاق، وأعظمِ منح الخلاَّق؛ وذلك أن الخلق الفاضل يبعث صاحبَه على فعل الفضائل، واجتناب اقتراف الرذائل، كما يحرس المسلمَ من التقصير في حق الخالق، وهضمِ حق المخلوقين.

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ١٤٣٨/٦/٤هـ، ٢٠١٧/٣/٣م.

ألا وإن من أعظم الأخلاق التي ينبغي للمسلم أن يحرص على ملازمتها، والرباطِ على ثغورها، وعدمِ الانسلاخ منها-مهما تغير زمانه أو مكانه، أو داره، أو وطنه، أو منزلته أو رتبته: خلقَ حفظِ الود القديم، ورعايةِ العشرة السابقة، وتعاهد العلاقات الحسنة الماضية. هذا الخلق العظيم إنما يتحلى به الإنسان الكريم الذي لمع نجمه في آفاق عزة النفس وشرفها، ولم يرضَ لنفسه مهانة اللؤم والدناءة، ومخادنة الذل والقماءة، فصار ذاكراً أيامَ الصفاء السابقة، مجانبًا نكرانَ يد الإحسان السالفة، وكفران العشير القديم، غير ناسٍ الفضلَ الذي كان بينه وبين أهل حياته الماضية.

إن هذا الخلق الحسن خصلة من خصال الإيمان، وشعبة من شعبه، وخلق من أخلاق أهله.

فعن عائشة رضي الله عنا قالت: جاءت عجوز إلى النبي ﷺ، وهو عندي، فقال لها رسول الله ﷺ : (من أنت ؟ قالت: أنا جَثَّامة المزنية ، فقال: بل أنت حَسَّانة

المزنية، كيف أنتم ؟ كيف حالكم، كيف كنتم بعدنا ؟ قالت: بخير -بأبي أنت وأمي- يا رسول الله. فلما خرجت، قلت: يا رسول الله، تُقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟! فقال : إنها كانت تأتينا زمن خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان)(١).

أيها المسلمون، إن الإنسان يعيش في هذه الحياة مع أناس كثيرين، فتحصل بينه وبينهم علاقات؛ كعلاقة الأبوة، أو الأخوة، أو القرابة، أو الزوجية، أو الصداقة، أو الجوار، وفي إطار هذه العلاقات يحدث بينه وبين الناس محبة ومودة، وبر وإحسان، ومصالح ومنافع، ووصول خير، واندفاع شر.

---

(١) رواه الحاكم والبيهقي، وهو حسن.

ولكن هذه الروابط والوشائج قد لا يدوم الاجتماع بأهلها بسبب الافتراق إما بموت، وإما بغياب عن موطن تلك العلائق.

فإذا كان الإنسان كريمًا عظيمًا فإنه سيحتفظ بود أولئك الناس الذين التقى بهم على جوِّ المحبة والإحسان، وسيبقى ثابتًا على قمة الوفاء بحقوق تلك الصحبة القديمة، مراعيًا حرمتَها في حياة أهلها، وبعد مماتهم.ويستمر مؤديًا هذا الحق ولو طالت سنوات الفراق، أو تباعد عنهم بالسفر والانتقال، أو علت مكانته في الحياة، بعلو جاه، أو بسطة علم، أو كثرة مال، أو زيادة قوة.

ولا يمكن أن ينسى الجميل، أو يجحد الإحسان، ولو كان صاحبه كافراً.

فرسول الله ﷺ لما عاد من الطائف، ولقي من أهلها ما لقي، وأراد دخول مكة استجار ببعض كبرائها فأجاره المطعم بن عدي، فدخل مكة في جواره، فلم ينس رسول الله هذا الجميل للمطعم؛ فقد قال في حق أسرى بدر من المشركين: (لو كان المطعم بن عدى حيًا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له)[1].

ومن العجب: أن حفظ الود القديم يبقى عند بعض الحيوانات، ولا يبقى عند بعض البشر! قال إبراهيم النخعي: "إن المعرفة لتنفع عند الأسد الهصور، والكلب العقور، فكيف عند الكريم الحسيب!"[2].

ذكر الجاحظ أنَّ رجلاً خرج إلى مكان ينتظر رِكابَه فأتبعه كلبٌ كان له فضرب الكلبَ وطردَه، وكره أن يتبعه، ورماه بحجر فأبى الكلبُ إلاّ أن يذهب معه، فلما صار

(١) الرحيق المختوم (ص:١٠١).

(٢) عيون الأخبار (ص:٢٨٥).

إلى الموضع الذي يريد فيه الانتظار ربَضَ الكلبُ قريباً منه، فبينا هو كذلك إذ أتاهُ أعداءٌ لَهُ يطلبونه، وكان مع الرجل أخوه وجاره، فلما رأيا الأعداء هربا وتركا صاحبَ الكلب، فهجم عليه أعداؤه فجرحوه جِراحاتٍ، ثم رموه في بئرٍ غيرِ بعيدة القعر، ثم حَثَوْا عليه من التراب حتَّى غَطَّى رأسه، والكلبُ في ذلك كان يهر عليهم، فلمَّا انصرفوا أتى الكلب رأسَ البئْر فما زال يَعوي وينبث عنه ويحثو التُّرَابَ بيده، ويكشف عن رأسه حتى أظهر رأسه فتنفّسَ ورُدَّتْ إليه الرُّوح وقد كاد يموتُ، فبينا هو كذلك إذ مَرّ ناس فأنكروا مكان الكلب، ورأوه كأنّه يحفِر عن قبر فنظروا فإذا هم بالرَّجُلِ في تلك الحال فأخرجوه حيَّاً وحَملوه حتَّى أدَّوه إلى أهله![1].

عباد الله، إن أولى الناس بحفظ الود السابق معه، ورعايته، وعدمِ نسيان فضله ومعروفه: الأبوان، فإحسان الأب والأم إلى أولادهما طول حياتهما كثير كبير؛ فلهذا أمر الله تعالى ببرهما، وإحسان صلتهما.

فمتى حصلت الفرقة بسفر أو غياب بين الإنسان ووالديه فإن الولد الكريم يظل يحن إليهما، ويتصل بهما، ويشكرهما، ويدعو لهما في حال حياتهما، فإذا ماتا، أو مات أحدهما لم ينس معروفه، ولم يغفل عن ذكره، والدعاء له، وبذل ما ينفعه في قبره.

قال رسول الله ﷺ: (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)[2].

ومِن حفظ الود لهما كذلك: صلة أصدقائهما، والإحسان إليهم بعد وفاتهما، فعن عبدالله بن دينار عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه كان إذا خرج إلى مكة كان له حمار يتروّح عليه

(١) كتاب الحيوان (٢/ ١٢٢).

(٢) رواه مسلم.

إذا ملّ ركوب الراحلة، وعمامة يشد بها رأسه، فبينا هو يومًا على ذلك الحمار إذ مر به أعرابي فقال: ألست ابن فلان بن فلان ؟ قال: بلى، فأعطاه الحمار وقال: اركب هذا، والعمامة قال: اشدد بها رأسك، فقال له بعض أصحابه: غفر الله لك! أعطيت هذا الأعرابي حماراً كنت تروح عليه، وعمامة كنت تشد بها رأسك! فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن من أبر البر صلةَ الرجل أهل ودِّ أبيه بعد أن يولِّي) وإن أباه كان صديقًا لعمر(١).

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: "من أحب أن يصل أباه في قبره، فليصلْ إخوان أبيه بعده"(٢).

وعن يوسف بن عبد الله بن سلام قال: "أتيت أبا الدرداء- وكان في مرضه الذي قبض فيه- فقال لي: يا ابن أخي، ما جاء بك إلى هذا البلد؟ قلت: صلة ما كان بينك، وبين والدي عبد الله بن سلام"(٣).

أيها الأحباب الكرام، ومن حفظ الود: ما يكون بين الأقارب؛ فإن علاقة القربى يحدث فيها من الالتقاء والمعروف والصفاء-غالبًا- ما لا يحصل في غيرها، فكانت أولى بتعاهد الود والإحسان، وتذكر أيام الألفة الماضية، خصوصًا عند الفراق والغياب، بل حتى عند الشجار والاختلاف فإن سابق المودة عند كرام الأقارب لا يبعث على القطيعة، ووأدِ المعروف، وجحود الفضل.

أيها المسلمون، ومن العلاقات التي حث الشرع الحنيف على حفظ الود السابق

---

(١) رواه مسلم.

(٢) شرح السنة.للإمام البغوي(١٣/٣٣).

(٣) مختصر تاريخ دمشق (ص:٣٧٧٥).

فيها، وتذكّر الإحسان الذي جرى في ربوعها: علاقة الزوجية، فما حصل بين الزوجين من سنوات المودة والرحمة، واللقاء الحنون والألفة، وصالحاتِ الأقوال، وحسنات الأفعال، وجميل الصحبة، واجتماع القلوب، وتقاسم الهموم، وطول العشرة المقدسة؛ كل ذلك يغرس في النفس الكريمة -زوجًا كان صاحبها أو زوجة- دوامَ الوفاء والإحسان، والتعهد والرعاية، وستر كل مكروه وسر، وبث كل خير وبِر، سواء كان ذلك في حال بقاء الزوجية، أو انتهائها بطلاق أو موت.

فإن حدث بين الزوجين خصام أو كراهية فإن خلق حفظ الود الماضي يحث على العفو والمسامحة، وغضّ الطرف عن استيفاء كامل الحقوق، وعدم نكران الجميل، قال رسول الله ﷺ: (لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها آخر)[١].

وقال: (أُريتُ النارَ فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن).قيل: أيكفرن بالله؟ قال: (يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان لو أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئًا قالت: ما رأيت منك خيراً قط)[٢].

فإذا وصل الأمر إلى الطلاق كان طلاقُ الكريم طلاقَ إحسان لا إساءة، فيعطيها ما فرضه الله لها عليه.وإن كان الزوجان ممن يحفظ الود القديم فحصل بينهما الطلاق فإن من مظاهر ذلك الخلق الفاضل: أن يمسك كل منهم عن الطعن في صاحبه، وعشيره السابق، وتشويه صورته بين الناس، ويبتعد عن بث عيوبه وأسراره، وإخراج خفياته وأخباره، قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[البقرة:٢٣٧].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

فإذا مات الزوج أو الزوجة أضحى من حقوق المودة القديمة: الدعاء، والذكر الحسن، والإحسان إلى الأقارب والأصدقاء.ومن الأمثلة في هذا الوفاء: ما كان يفعله نبينا الكريم ﷺ لزوجته خديجة رضي الله عنها بعد وفاتها، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة! فيقول: (إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد)[١].

أيها الإخوة الفضلاء، ومن العلاقات التي يعظم فيها حفظ الود القديم: علاقة الجوار في الدار أو العمل، فجار الإنسان من أعلم الناس بجاره، بسبب القرب المكاني الذي جمعهما على اللقاء والصفاء، وتبادل الأفراح والأتراح، وإسداء الخير، وإعطاء الفضل.فالتحلي بخلق رعاية صفاء الجوار، ووداد الماضي يجعل الجار يراعي حرمة جاره، ويسعى إلى بذل وجوه الإحسان إليه، والصبر على إساءته.

ومتى غاب الجار الكريم عن جيرانه فإنه لا ينسى سابق عهده الجميل معهم، فيظل يذكرهم، ويشد حبل التواصل بهم، وإذا سافر جاره أو مات فإنه يحفظ جاره في أهله وولده وماله.قيل لأحد السابقين ": يا فلان، مالي أرى فلاناً يسيء إليك وأنت تتحمل منه؟ فقال له: والله ما كان ذلك مني إلاّ لأنه من بلدي، فكنت كما قال القائل:

رأى المجنونُ في البيداء كلباً ... فجلَّله من الإحسان ذيلا
فلاموه على ما كان منه ... وقالوا: لِمْ أنلتَ الكلبَ نيلا
فقال دعوا الملام فإن عيني ... رأته مرة في حيٍّ ليلى[٢]

---

(١) متفق عليه.

(٢) المحاضرات في اللغة و الأدب (ص:٩٤).

أيها المسلمون، ومن العلاقات التي يراعى فيها حق الود القديم: علاقة الصداقة والأخوة، فاجتماع الإنسان مع غيره على مائدة الأخوة والصداقة يحصل فيه تبادل الوداد، ونشر بعض الأسرار، وتعاطي أسباب الحب والإخاء، وتداول خصال المعروف.والكريم من الأصدقاء من يتعاهد شجرة الصداقة بدوام المودة، وتنقية تربتها من أسباب الذبول، وحصولِ الإساءة.ويبقى على عهده في حفظ ودّه لإخوانه وخلاّنه ما دامت الحياة به، سواء بقي معهم، أم فارقهم لسفر أو رحيل.بل إنه يستمر على وفائه، وأمانة صداقته عند حدوث الشقاق والاختلاف-لو حصل-؛ فمتى حدث ذلك ذكرَ ضياء المودة القديمة فمحى به ظلامَ الكراهية الحادثة فعفا وصفح.وتذكّر أيضًا ترقرقَ ماء المعروف على أرض الأخوة والصداقة الماضية فسقى به ما أجدب من جوانب تلك العلاقة، فعادت إلى بهجتها ونضرتها.ولم تحمله إساءة صديقه على كفر معروفه، وإنكار جميله، وكشف أسراره وأخباره، ففي صلح الحديبية حينما أرسلت قريش عروة بن مسعود-قبل أن يسلم- إلى النبي ﷺ من أجل الصلح، فقال للنبي عليه الصلاة والسلام: "أي محمد، أرأيت لو استأصلتَ قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فوالله إني لا أري وجوهًا، وإني أري أوباشًا من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر : امصص بَظْر اللات، أنحن نفر عنه ؟! قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده لولا يدٌ كانت عندي لم أجْزِكَ بها لأجبتك"(١).

فقد منع عروةَ من إجابة أبي بكر معروفُ أبي بكر السابق له، وهذه "اليد المذكورة أن عروة كان تحمل بدية فأعانه أبو بكر فيها بعون حسن"(٢).

---

(١) الرحيق المختوم (ص:٣٠٠).

(٢) فتح الباري (٥/ ٣٤٠).

معشر المسلمين، إن خلق حفظ الود القديم يحمل صاحبه على عدم نسيان أرض تربى فيها، ووطن عاش فيه سنوات من عمره سعيداً، فإنه إذا فارق تلك الديار فلا يزال يذكر تلك الأرض التي درج بين جنباتها، ويذكر أهلها الذين تبادل معهم الصفاء في نواحيها، ويحمله الحنين على مواصلة أحبابه من ساكنيها، ويغلبه الشوق على حب زيارتها، وتجديد أطلال أيامه السالفة فيها، قال رسول الله ﷺ بمكة: (ما أطيبك! وأحبك إليّ! ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك)(١).

وكان بلال رضي الله عنه يقول حينما يمرض وهو في المدينة مشتاقًا إلى مكة:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً ... بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ
وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ ... وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شَامَةٌ وَطَفِيلُ(٢)

وهذا الحنين إلى الأرض التي عاش فيها الإنسان، والشوق إلى أهلها من علامات الوفاء، وشيم الرجال الكرماء؛ فقد قيل لبعض الحكماء: "بِمَ تعرف وفاءَ الرجل، وذمام عهده دون تجربة واختبار؟ فقال: بحنينه إلى أوطانه، وتشوقه إلى إخوانه، وتلهّفه على ما مضى من زمانه"(٣).

وربما قال ذلك الإنسان الكريم بلسان حاله- وهو يتقلب بين أعطاف الغربة، والشوقُ يؤزه إلى تلك الرياض العتيقة أزّاً-:

جسمي معي غيرَ أن الروح عندكمُ ... فالجسم في غربةٍ والروح في وطنِ
فليعجبِ الناس مني أن لي بدناً ... لا روحَ فيه ولي روحٌ بلا بدنِ(٤)

(١) رواه أحمد وابن حبان والترمذي، وهو صحيح.
(٢) صحيح البخاري (٤/٥٥٦). وما في البيتين من الأسماء مواضع في مكة وقربها.
(٣) المحاضرات في اللغة و الأدب (ص:٨٢).
(٤) المحاضرات في اللغة و الأدب (ص:٨٢).

ويبقى على عهد الوفاء لرفقاء الحب في تلك الديار، ويعاهد نفسه على دوام التعلق بها وبهم، ويقول:

مَا زِلْتُ مُذْ سَكَنُوا قَلْبِي أَصُونُ لَهُمْ ... لَحْظِي وَسَمْعِي وَنُطْقِي إِذْ هُمُ أُنُسِي
حَلُّوا الفُؤَادَ فَمَا يَنْدَى وَلَوْ وَطِئُوا ... صَخْرَاً لَجَادَ بِمَاءٍ مِنْهُ مُنْبَجِسِ
وَفِي الحَشَا نَزَلُوا وَالوَهْمُ يَجْرَحُهُمْ ... فَكَيْفَ بَاتُوا عَلَى أَذْكَى مِنَ القَبَسِ
لأَنْهَضَنَّ مِنَ الدُّنْيَا بِحُبِّهِمُ ... لا بَارَكَ اللهُ فِي مَنْ خَانَهُمْ فَنَسِي(١)

ومع مفارقته وغربته تذكره أشياء بقديم عهده، ولقاء أحبابه في داره الماضية، فيقول:

ما ناحَ في أعلى الغصونِ الهَزارْ ... إلاّ تشوَّقتُ لتلك الديارْ
ولا سرى من نحوكمْ بارقٌ ... إلاّ وأجريتُ الدموعَ الغزارْ
وا أسفي أين زمان الحمى؟ ... وأين هاتيك الليالي القصار؟
واحر قلبي فمتى نلتقي ... وتنطفي من داخل القلب نار؟
وأنظرُ الأحبابَ قد واصلوا ... ويأخذ الوصلُ من الهجر ثار
أقول للنفس ابشري باللِّقا ... قد واصلَ الحبُّ وقرَّ القرار(٢)

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) المحاضرات في اللغة و الأدب (ص:٨٢).
(٢) المحاضرات في اللغة و الأدب (ص:٨٢).

الخطبة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

إن لؤمَ الطبع، ودناءة النفس، وضعف الإيمان، والحسد والبغضاء، والخلاف والجهل؛ قد يؤدي ذلك أو بعضه إلى خيانة الود القديم، ونسيان الجميل والمعروف، وتركِ تعاهد المحبة السابقة، وقطع الصلة بالعلاقات الاجتماعية الطيبة الماضية. كما أن تطاول الزمن، وتفاوت منازل الناس الدنيوية، واختلاف أحوالهم الحياتية مِسبارٌ يُعرف به كرم النفوس من لؤمها، وشرفها من ذلها، وصدق ودادها من كذبه.

فمن فارق أحباءه السابقين بسفر ونحوه، أو زاد عليهم في متاع الدنيا، أو نال فوقهم وظيفة راقية، أو مرتبة عالية، فصار يتكبر عليهم، أو يعاملهم معاملة الطارئ الغريب، بعدما كان يعاملهم معاملة القريب الحبيب، وأصبح ينظر إليهم من آفاق الثريا على أنهم تحت أطباق الثرى، أو زاد في لؤمه فغدا يؤذيهم، أو يسيء إليهم فإنه قد عرَّفهم بلؤم نفسه، وصَغار طبعه، حينما انحدر إلى هذه الدركة السحيقة من تغيّر الحال، وتبّدل الأقوال والأفعال، وتبيّن لخلانه الماضين أن حبه السابق كان لمصلحة عاجلة انتهى بانتهاء تلك المصلحة.

وقد قيل: "يود الكريم عن لُقية واحدة، ومعرفة يوم فقط، واللئيم لا يصل أحداً إلا عن رغبة أو رهبة"(١).

---

(١) مضاهاة أمثال كليلة و دمنة (ص:١٠٠).

يذكر أن أبا العتاهية لحقه جفاءٌ من الكاتب البليغ عمرو بن مسعدة بعد أن أصبح وزيراً للمأمون، فقال أبو العتاهية معاتبًا له:

غَنِيتَ عن الودّ القديم غَنِيتَا ... وضيعّتْ ودّاً كان لي ونسِيتا
وقد كنتَ في أيام ضعفٍ من القوى ... أبرَّ وأوفى منك حين قوِيتا
عهدتُك في غير الولاية حافظاً ... فأغلقتَ بابَ الودّ حين ولِيتا
تجاهلتَ عما كنت تحسن وصفَه ... ومتَ عن الإحسان حين حيِيتا
ومن عجبِ الأيام أن بادَ من يفي ... ومن كنتَ ترعاني له وبقِيتا![1]

فيا أيها المسلمون، تبادلوا بينكم كؤوسَ المعروف والإحسان، وأوثقوا علائقكم بصدق المحبة والألفة، وحافظوا عليها بتعاهدها، والوفاء بها، والثبات عليها، وشكرها، ورعاية أهلها، والحذرَ كل الحذر من نسيان وداد الماضي، وجحود الفضل السابق، وكفران عشرة السنوات الخالية؛ فإن الكريم لا يخون عهده، ولا ينسى مودة مَن ودَّه، ولا يكفر نعمة من أحسن إليه، ولا ينكر فضل من أفضل عليه؛ فإن حسن العهد من الإيمان.

هذا وصلوا وسلموا على النبي المختار...

---

(١) أخبار أبي القاسم الزجاجي (ص:٥٢).

حمد الله تعالى
معناه، وفضائله، ومواضعه (١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، "**الحمد لله**" كلمةٌ من أحسن الكلمات التي يُعمر بها الجَنان، وتنطق بها اللسان، وتسمعها الأذنان، وتخطُّها للحقِّ البَنان.

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ١٤٣٩/١٠/٨هـ، ٢٠١٨/٦/٢٢م.

و"**الحمد لله**" من أطيب ما تعطرت بلفظه الأفواه، واستراحت به النفوس، وكثرت به الأجور، وارتفعت به المنزلة عند الله رب العالمين.

و"**الحمد لله**" عبارة تحمل في حروفها المضيئة إشراق النفس وامتلاءها بشكر المنعم سبحانه، الذي أعطى فأجزل، ورزق وتفضَّل.

و"**الحمد لله**" تعبير عن صبر النفس ورضاها بما نزل عليها من المكاره، موقنة بأن الله تعالى في قدره الذي نزل عليم حكيم، لا ينزل على عبده المؤمن إلا ما وافق حكمته وعلمه ورحمته، وكان بالمؤمنين رحيمًا.

إن" **الحمد لله**" كلمة تختصر كلمات الثناء والشكر، والتعظيم والصبر، فما أحسنها وهي تخرج من قلب صابر، أو لسان ذاكر، أو عبد شاكر، وما أجملها أن تكون حقيقة قلبية لا جملة لسانية فحسب، فأصدق الحمد ما نطق به القلب قبل أن يفوه به اللسان.

عباد الله، "**الحمد لله**" هي أول الكلام ونهايته، وأول الخلق وخاتمته، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام:١]. وقال تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الزمر:٧٥]. وأول سورة في ترتيب المصحف الشريف مبدوءة بالحمد، وبها افتتحت خمس سور من القرآن: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر. وما ذلك إلا لفضل هذه الكلمة وعظم مكانتها.

إن حمد الله يعني: الثناء على الله تعالى لصفات كماله، ونعوت جلاله، وآيات جماله، والثناء عليه لإحسانه لعبده، وجميل فعاله به، مع حبه وتعظيمه تبارك وتعالى.

فقد أمر الله تعالى بحمده على تنزهه عن النقائص فقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ

يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾[الإسراء:١١١]. وأمر بحمده على نعمة إيضاحه لعباده الدينَ الحق إيضاحًا بيِّناً فقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[النمل:٩٣]. والحمد لله على نعمة الخلق والإيجاد، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام:١]. والحمد لله على إمداده عباده بالنعم البدنية الحسية التي بها يعيشون، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الفاتحة:٢]. فالرب هو المربي لعباده المصلح لشؤونهم بنعمه سبحانه. والحمد لله على إمداده عباده بالنعم المعنوية التي تصلح أرواحهم، وتهديهم إلى الصراط المستقيم بنور الوحي المبين. قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجَا﴾[الكهف:١]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[الأعراف:٤٣].

أيها المسلمون، إن حمد الله تعالى عبادة شريفة أمر الله تعالى بها، ودعا عباده إليها؛ ليأجرهم عليها، ويحفظ نعمه عليهم بها، كما حث عليها رسول الله ﷺ في سنته على العموم وعلى الخصوص، مبينًا عظم الثواب الحاصل من قولها بصدق وإخلاص.

فحمد الله تعالى من أحب الكلام إليه؛ قال رسول الله ﷺ: (أحب الكلام إلى الله تعالى أربع: لا يضرك بأيهن بدأت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)[١].

والحمد لله لها ثواب يملأ ميزان الحسنات يوم القيامة؛ قال رسول الله ﷺ: (الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان)[٢].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

وقول الحمد لله من الأعمال الصالحة التي هي خير من الدنيا وما فيها؛ لما فيها من الأجر العظيم الذي لا تساويه الدنيا؛ قال رسول الله ﷺ: (لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر؛ أحب إلي مما طلعت عليه الشمس) (١).

والحمد لله من الأعمال الصالحة التي يبقى لصاحبها أجرها، وتقيه عذاب النار؛ قال رسول الله ﷺ: (خذوا جُنتكم من النار قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر؛ فإنهن يأتين يوم القيامة مقدِّمات(٢)، ومعقِّبات(٣)، ومجنِّبات(٤)، وهن الباقيات الصالحات)(٥).

للمؤمنين الحامدين اللهَ على مصيبة فقدِ الولد صابرين محتسبين بيتٌ في الجنة يقال له: بيت الحمد؛ فعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم.فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم.فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع.فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة وسموه بيت الحمد) (٦).

إن الحمد لله مع الإيمان سبب لدخول الجنان، قال رسول الله ﷺ: (لقيت إبراهيم ليلة أُسري بي فقال: (يا محمد، أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا

---

(١) رواه مسلم.

(٢) مقدمات لقائلهن على غيره.

(٣) معقبات: عُدن على قائلهن بالخير.

(٤) مجنبات له من النار.

(٥) رواه النسائي والحاكم، وهو حسن.

(٦) رواه الترمذي وابن حبان، وهو حسن.

الله، والله أكبر)(١).

والحمد لله سبب لنيل رضوان الله تعالى إذا قال المسلم ذلك عند كل أكلة وكل شربة، قال رسول الله ﷺ: (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها)(٢).

إن حمد الله تعالى إذا أكثر منه العبد المؤمن فصار ديدنه في السراء والضراء كان من أفضل عباد الله يوم القيامة. قال رسول الله ﷺ: (أفضل عباد الله تعالى يوم القيامة الحمَّادون)(٣).

أيها الأحباب الكرام، إن المؤمنين تلذذوا بقولهم: الحمد الله وآثاره عليهم في الدنيا، ويستمر تلذذهم به في الجنة، غير أن حمد الله منهم كان في الدنيا عبادة، وأما في الآخرة فصار قولهم له تلذذاً وتنعماً فحسب، قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[القصص:٧٠]. فمما يحمدونه في الجنة: حمدهم له تعالى على إذهاب الحزن عنهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾[فاطر:٣٤]. ومما يحمدونه: نعمة تحقق وعده لهم بدخول الجنة والنجاة من النار، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[الزمر:٧٤].

وحينما ينالون النعيم في كل موطن في الجنة يكون الحمد آخر دعائهم؛ شكراً لله تعالى على ما مكنهم في الجنة من ذلك النعيم، حتى يصير التحميد كالنفَس منهم هناك، قال تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ

---

(١) رواه الترمذي والطبري، وهو حسن.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الطبراني، وهو صحيح.

لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[يونس:١٠]. **وقال** رسول الله ﷺ: (إن أهل الجنة ...يلهمون التسبيح والتحميد كما يُلهمون النَّفَس)[١].

أيها المسلمون، إن حمد الله تعالى عبادة مشروعة على الدوام؛ لكونها ثناء على الله تعالى الذي كمل في ذاته وصفاته وأفعاله، ولأن نعمه لا تزال بعباده متصلة غير منفصلة، بل صار الحمد عملاً دائمًا من أعمال بعض العبادات لا ينفك عنها؛ كالصلاة والحج، ففي الصلاة نجد حمد الله تعالى من جملة أدعية الاستفتاح، ومنها قول: (الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا)[٢].

وهو ذكر للرفع من الركوع، قال رسول الله ﷺ: (إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: اللّهم ربنا لك الحمد)[٣].

وعن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: (اللّهم ربنا لك الحمد، ملء السماوات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد..)[٤]. وهذه الصيغة في حديث أبي سعيد من أكمل صيغ الحمد.

والحمد كذلك ذكرٌ في الركوع والسجود، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقول في ركوعه وسجوده:(سبحانك اللّهم ربنا وبحمدك اللّهم اغفر لي)[٥].

وفي الحج كذلك فإن من شعاره: الحمد، **فعن** عائشة رضي الله عنها قالت: إني لأعلم كيف كان

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه مسلم.

(٥) متفق عليه.

النبي ﷺ يلبي: (لبيك اللَّهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك)(١).

أحبتي الكرام، إن المسلم يحمد الله تعالى في جميع أحواله في ضرائه وسرائه، فمتى أصابه ضر أو نزل به حزن، أو آلمه مصاب فإنه يحمد الله تعالى؛ لأن ذلك بقدر الله وقضائه، وفي ذلك خير للمسلم أجراً ومثوبة، وصقلاً للنفس من كبريائها، ورداً لها من شرودها عن ربها؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى ما يحب قال: (الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا رأى ما يكره قال: الحمد لله على كل حال)(٢). " وهذا على حسن الظن بالله تعالى، وأنه لم يأت قضاؤه بالمكروه إلا لخير علمه لعبده فيه وأراده به، فكأنه قال: اللَّهم لك الخلق والأمر تفعل ما تريد، وأنت على كل شيء قدير "(٣).

قال عمر رضي رضي الله عنه: "ما ابتُلِيت ببلية إلا كان لله علي فيها أربع نعم: إذ لم تكن في ديني، وإذ لم أُحرم الرضا، وإذ لم تكن أعظم، وإذ رجوت الثواب عليها".

وقال الغزالي: "لا شدة إلا وفي جنبها نعمٌ لله، فليلزم الحمد والشكر على تلك النعم المقترنة بها".

وقال إمام الحرمين: "شدائد الدنيا مما يلزم العبدَ الشكرُ عليها؛ لأنها نعم بالحقيقة؛ بدليل أنها تعرض العبد لمنافع عظيمة ومثوبات جزيلة، وأغراض كريمة تتلاشى في جنبها شدائد"(٤).

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه غفور رحيم.

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه ابن ماجه، وهو حسن.
(٣) فيض القدير (٥/٨٨).
(٤) فيض القدير (٢/١٣٣).

الخطبة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

أيها المسلمون، إن المسلم إذا نزلت عليه نعم الله تعالى، وأحاط به فضله سارع إلى حمد الله تعالى على ذلك؛ شكراً لربه، ورجاء لبقاء نعمته عليه.وقد ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام بعض الأحوال التي يستحب فيها حمد الله تعالى؛ **فمن ذلك:**

حينما يصبح المسلم وحين يمسي؛ فبقاؤه من الليل إلى الصباح، ومن الصباح إلى المساء حيًا يعبد الله تعالى، ويستعفي من ذنوبه؛ نعمة عظيمة تستحق الحمد.فقد كان رسول الله ﷺ إذا أمسى يقول: (أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير...) وإذا أصبح قال ذلك أيضًا: أصبحنا[(١)].

ويحمد الله تعالى كذلك إذا أقبل على النوم، وإذا استيقظ منه؛ فالنوم نعمة من أجل النعم، والاستيقاظ منه وقد نال البدن راحته وذهب عناؤه نعمة تستحق الحمد.

فقد كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه يقول: (الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي)[(٢)]. وإذا استيقظ قال: (الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور) [(٣)].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

وعندما يرى المسلم في منامه ما يحب من الرؤى فإنه يحمد الله؛ لأن ذلك من جملة ما يسر النفس، وتلك نعمة تستحق الحمد. قال رسول الله ﷺ: (إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنما هي من الله فليحمد الله عليها، وليحدث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره، فإنما هي من الشيطان، فليستعذ بالله ولا يذكرها لأحد؛ فإنها لا تضره)(١).

إخواني الكرام، إذا دعا المسلم دعوة فاستجيبت له؛ كدعوته بحصول الولد له بعد العقم فإنها نعمة تستأهل الحمد، كما قال تعالى عن الخليل إبراهيم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[إبراهيم:٣٩].

وإذا رأى في نفسه نعمة فاق بها غيره، وفضل بها على من سواه كنعمة العلم النافع دينيًا كان العلم أم دنيويًا فليحمد الله تعالى كما قال عز وجل عن نبييه داود وسليمان: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[النمل:١٥].

وإذا عطس العطاس الطبيعي وليس العطاس المَرَضي الناتج عن الزكام فإنه يشرع له أن يحمد الله على هذه النعمة؛ ففي العطاس منفعة عظيمة للبدن؛ إذ فيه "الشعور بالارتياح في الدماغ وخفة الرأس وانشراح النفس"(٢).

قال النبي ﷺ: (إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب، فإذا عطس أحدكم فحمد الله فحقٌّ على كل مسلم سمعه أن يشمته)(٣).

أيها الفضلاء الكرام، حصول الإنسان على الطعام والشراب، وسهولة سياغته لهما

(١) رواه البخاري.
(٢) روائع الطب الإسلامي (٢/ ١٣٢).
(٣) رواه البخاري.

نعمة عظيمة تستحق الحمد؛ فلهذا يستحب للمسلم أن يحمد الله تعالى عند الفراغ من تناول ذلك.

فقد كان النبي ﷺ إذا رفع مائدته قال: (الحمد لله كثيراً طيبًا مباركًا فيه، غير مكفي، ولا مودَّع، ولا مستغنى عنه ربنا[١])[٢].

وقال رسول الله ﷺ: (من أكل طعامًا فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة؛ غفر له ما تقدم من ذنبه)[٣].

وحينما ينظر المسلم إلى نعمة الكساء الذي رزقه الله إياه ليستر عورته، ويزينه بين الناس فإنه يستحب له إذا لبس ثوبًا جديداً أن يحمد الله تعالى، **قال** رسول الله ﷺ: (ومن لبس ثوبًا جديداً فقال: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه)[٤].

ومتى تأمل في تسخير الله للإنسان وسائلَ النقل القديمة منها والحديثة كيف تخفف عنه من عناء وتوصله إلى غاية لم يكن بدونها بالغها إلا بشق النفس؛ فإنه يحمد الله تعالى عند ركوبه عليها، **فقد كان رسول الله** ﷺ إذا استوى على ظهر الدابة قال: الحمد لله، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، الحمد

---

(١) (غير مكفي) أي: ربنا غير محتاج إلى الطعام فيكفى لكنه يُطعِم ويكفي (ولا مودع) بفتح الدال الثقيلة أي: غير متروك فيعرض عنه (ولا مستغنى عنه) بفتح النون وبالتنوين أي: غير متروك الرغبة فيما عنده فلا يدعى إلا هو ولا يطلب إلا منه. فيض القدير (١٣٩/٥).

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه أحمد والأربعة، وهو حسن.

(٤) رواه أبو داود، وهو حسن.

لله، الحمد لله، الحمد لله...[١].

فيا أيها المسلمون، علينا -بعد هذا- أن نتأمل في نعم الله تعالى علينا، وحسن بلائه لنا، فنحمد الله في السراء ونحمده في الضراء، ونحمده في الصباح وفي المساء، وفي سائر الأوقات والأحوال التي حثنا الشرع الشريف على حمد الله تعالى فيها.

فحمد الله صدقًا من القلب واللسان يزيد الإيمان، ويأتي بالثواب الذي يثقل الميزان، ويغفر الذنوب، ويجلب النعم، ويصرف النقم، ويورث صاحبه الاطمئنان، ويوصله إلى محبة الله ورضوانه.

هذا وصلوا وسلموا على النبي المختار...

(١) رواه أبو داود، وهو صحيح.

خير الناس، وشر الناس (١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، إن "الخير" كلمة من أحسن الكلمات، وصفة إنسانية من أجمل الصفات، وهي لفظ يحتوي على أقوال وأفعال وأحوال فيها منافع ولذات، وسعادة ومسرات.وأهل هذه الكلمة في المجتمع ينتفعون وينفعون، ويَسعدون، ويُسعدون، فهم كالغيث حيثما وقع نفع، وكالنور الذي يبدد الظلمات، وينير بين الخلق الطرقات.

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ١١/٦/١٤٣٨هـ، ١٠/٣/٢٠١٧م.

ونفوسُ أهلها بذلك الخير على عمومه: نفوسٌ صافية نقية، لا يشوبها الكدر، ولا يعكر صفوَها القذر، وقلوبهم مَجمَع المقاصد الحسنة، والإرادات الطيبة، وعقولهم مسرح الأفكار النافعة، وآفاق الإفادة الجامعة، وألسنتهم منطلق الألفاظ العذبة التي تروي ظمأَ السامعين، وتنفعهم في أمر الدنيا والدين، وأيديهم ببذل النفع ممدودة، وعن إيصال الأذية للخلق مكفوفة. فالخير إذن يتوزع على باطن الإنسان وظاهره، وقلبه وسائر جوارحه.

فبهذا الخير الذي تزينوا به باطنًا وظاهراً ارتاحوا وأراحوا، وسلِموا من الشر، وسلَّموا غيرهم منه، فما أجملَ حياتَهم، وما أجمل الحياة معهم!

عباد الله، إن المسلم مكلَّف بفعل الخير، وأن يكون مصدر خير للخلق، وموردَ إحسان للأحياء والحياة، حسب ما يحبه الله ويرضاه. وبذلك يظفر بنيل سعادة الدنيا والآخرة.

وأعمالُ الخير التي يصير بها المسلم من خيار عباد الله كثيرة، فمن جمعها فقد جمع الخير، ومن تحلى ببعضها فقد جمع من الخير بقدر ما تحلى به.

والمتتبع لسنة رسول الله ﷺ يجد أنها قد زخرت بذكر خيار عباد الله بأعمال صالحة يعملونها، وبذلك نالوا هذا الوسام الكريم، ووصلوا بها إلى هذا الشرف العظيم.

وما ذكره خير البشرية ﷺ من الأعمال الصالحة التي حاز بها بعض الناس قصب السبق لإحراز الخيرية يتفرق في ميادين حياتية كثيرة؛ فقد ذكر رسولنا الكريم ﷺ خير الناس في ميدان المعاملة الإنسانية، وخير الناس في ميدان الحياة السلوكية والأخلاقية، وخير الناس في ميدان الحياة الاجتماعية، وخير الناس في ميدان الولاية والمسؤولية،

وخير الناس في ميدان التعلم والتعليم، وخير الناس في ميدان المعاملة المالية، وخير الناس في فرصة الحياة العمرية، وخير الناس في ميدان الحياة الزوجية والأسرية، وغير ذلك من مجالات الخيرية في السنة النبوية الشريفة، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

أيها المسلمون، ففي مضمار الحياة الإنسانية على جهة العموم يقول رسول الله ﷺ: (ألا أخبركم بخيركم من شركم؟) فقال رجل: بلى، يا رسول الله، قال: (خيركم من يُرجى خيره، ويؤمن شره، وشركم من لا يرجى خيره، ولا يؤمن شره)[1].

فبيّن ﷺ أن خير الناس في هذا المجال: من يؤمِّل الناسُ فيه صنعَ الخير لهم، وكَفَّ الشر عنهم، فيكون كذلك، فهو مع الخلق بين نعمة يهديها لهم، وإحسان يوصله إليهم، ونفع يقدمه لصالحهم، وبين نقمةٍ يزيلها، وضر يرفعه، وأذى يذهبه من طريقهم، وذلك كله في حدود استطاعته.

فما أعظمَ هذه النفسَ التي تقوم بهذه المهمات، وأكثرَ حب الناس لصاحبها!

وقال رسول الله ﷺ: (وخير الناس أنفعهم للناس)[2].

فمن النفع: أن يصرف عنهم شراً، ويوصل إليهم مصلحة عاجلة، أو آجلة، **ألا وإن أعظم المنافع**: منافع الدين التي بها هداية من ضلالة، أو تعليم من جهالة، أو إعانة على فعل طاعة، أو تجنب معصية، أو كشف شبهة، وتنوير محجة تثبِّت المسلم على طريق الحق والصواب.

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن حبان، وهو صحيح.

(٢) رواه الدارقطني والقضاعي، وهو حسن.

ومن أعظم منافع الدنيا والدين: ولاية إمام عادل يسوس الدنيا بالدين، ويراعي مصالح المسلمين، فيوصل إليهم ما استطاع من النعم، ويدفع عنهم ما قدر من النقم.

وفي مضمار الحياة السلوكية والأخلاقية يقول رسول الله ﷺ: (إن خياركم أحاسنكم أخلاقا)(١).

فخيار الناس تعاملاً: من حسنت أخلاقهم، فبذلوا المعروف؛ من لين جانب، وبشاشة وجه، وسهولة مخالطة، وتودد ورحمة، وصبر وحلم، وكف الأذى عن الناس، فلم يجئ منهم فحش ولا بذاء، ولا فضاضة ولا ظلم، ولا كبر ولا احتقار.

يألفون ويُؤلفون، يُحِبون، ويحَبون، يتواضعون ولا يتيهون، فإنعامهم مبذول، وفضلهم بالاستمرار بين الناس موصول، فيحسنون إلى المخلوقين، ويحسنون عبادة رب العالمين.

أيها المسلمون، وفي مضمار الحياة الاجتماعية، ومخالطة عموم الناس وخصوصهم يقول رسول الله ﷺ -حينما سئل: أي المسلمين خير؟ فقال: (خير المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده)(٢).

فمن خيار المسلمين: من حبس باطلَ لسانه عن إخوانه، فلا سب ولا شتم ولا طعن، ولا استهزاء ولا أذى، وحبَسَ يدَه عن الاعتداء، فلا قتل ولا جرح، ولا ضرب ولا خدش، ولا سرقة ولا سلب ولا خيانة، فلسانه لا يطلقه إلا في الحق، ويده لا يمدها إلا إلى الحق. ولا يعني ذلك سكوته عن الباطل وأهله، وكف يده عن الشدة على من يستحق في شرع الله الشدة.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

ويقول نبي الله ﷺ: (خير الناس ذو القلب المخموم، واللسان الصادق، قيل: يا نبي الله، قد عرفنا اللسان الصادق، فما القلب المخموم؟ قال: التقي النقي الذي لا إثم فيه، ولا بغي ولا حسد)[١].

فهذا الإنسان حينما كان نقيَ اللسان من الطعن في الناس بسوء كلماته، وشدة عباراته، وكان نقيَ القلب من الحسد والبغي؛ كان من خيار الناس. وصفاءُ القلب واللسان من هذين المرضين من أعظم نعم الله على الإنسان.

ويقول رسول الله ﷺ: (خيركم من أطعم الطعام، ورد السلام)[٢].

وهذان الأمران من أعظم ما تقوى به رابطة الأخوة الإسلامية، وتشتد بهما محبة المسلمين؛ فإن إطعام الطعام -خاصة في أوقات الشدة- من أعظم أعمال الخير؛ لأن فيه حياة الأبدان، والعون على عبادة الله، وفي رد السلام نشر للسلام والأمن، والحب والإخاء، ونبذ للكراهية والتدابر، فمن فعل ذلك كان من خيار الناس.

ويقول نبي الله ﷺ: (خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره)[٣]. فمن كان أكثر نفعًا في الحق لصاحبه، وأكثر إيصالاً للخير إليه، ودفعًا للشر عنه، فهذا أفضل الأصحاب؛ فخيرُ الصاحب لصاحبه برهانٌ على صدق صحبته ومحبته. ومن كان أكثر إحسانًا لجاره، وأكثر صبراً على أذاه، وأحرص على أداء حقوقه، وصرف الشرور عنه كان أفضل الجيران عند الله تعالى، وعند خلقه. قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ

---

(١) رواه ابن ماجه والبيهقي، وهو صحيح.

(٢) رواه الحاكم وغيره، وهو حسن

(٣) رواه أحمد والترمذي والحاكم، وهو صحيح.

وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[النساء:٣٦].

أيها الأحباب الكرام، وفي مجال الولايات والمسؤوليات العليا يقول رسول الله ﷺ: (تجدون من خير الناس في هذا الشأن أشدهم له كراهية حتى يقع فيه)(١).

فبيّن ﷺ أن خير الناس في الولايات هم الذين يكرهونها؛ خوفًا من التقصير فيها، أو الفتنة بها، قال رسول الله ﷺ: (ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة)(٢).

وهذا الكره آتٍ من تقواهم وعلمهم، وجودة عقولهم، وزهدهم عن الدنيا.

وفي مجال حقوق الناس المالية يحدثنا رسول الله ﷺ أن خير الناس في اقتراض الأموال أحسنهم قضاءً، فيقول النبي ﷺ: (خيركم خيركم قضاء)(٣).

فمن اقترض من إنسان شيئًا فإنَّ من حسن القضاء: أن يسارع في رده إلى صاحبه، في وقته من غير مماطلة، وبصفته من غير نقصان أو تشويه، فإن زاد على الدين عند قضائه شيئًا من غير اشتراط الدائن فذلك إحسان وفضل، وليس من الربا، فعن أبي رافع أن رسول الله ﷺ استسلف من رجل بَكراً، فقدمت عليه إبل من إبل الصدقة فأمر أبا رافع أن يقضي الرجل بكره فرجع إليه أبو رافع فقال: لم أجد فيها إلا خياراً رَباعياً-يعني: أفضل من حق الدائن- فقال رسول الله: (أعطه إياه؛ إن خيار الناس أحسنهم قضاء)(٤).

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أحمد والنسائي، وهو صحيح.

(٤) رواه مسلم.

وفي مجال التعلم والتعليم يقول رسول الله ﷺ: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)(١).

فمن تعلم القرآن مخلصًا لله تعالى، وقرأه وتدبره وعمل بما فيه، ثم علّمه الناس فهذا خير الناس في ميدان العلم النافع، والسبب: أنه اشتغل بأعظم كلام، وصرف جلَّ وقته وجهده على علمٍ من أعظم علوم الإسلام.

عباد الله، وفي فرصة الحياة العمرية يخبرنا رسول الله ﷺ عن خير الناس في ذلك فيقول: (خير الناس من طال عمره، وحسن عمله، وشر الناس من طال عمره، وساء عمله)(٢).

لأن بزيادة العمر مع التقوى الزيادةَ في فعل القربات، وتحمل المشاق في ذات الله تعالى، وبذلك تكثر الحسنات، وتُرفع الدرجات.

فالعمر كرأس المال، والعمل الصالح هو الربح، فمن اتسع رأس ماله وكثر فقد ظفر بخير كثير، أما من طال عمره، ولم يزدد مع تقدم عمره إلا عصيانًا لله، وبعداً عنه فهو شر الناس في مضمار الأعمار.

وفي مجال الحياة الأسرية، والرابطة الزوجية يذكر لنا رسول الله ﷺ خير الأقارب لأقاربهم، وخير الأزواج لزوجاتهم، وخير الزوجات لأزواجهن، فيقول عليه الصلاة والسلام: (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي)(٣).

فذكر ﷺ أن خير الناس مع أهله- وهم أقاربه وذوو رحمه- هو من كان فضله

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أحمد، والترمذي، والحاكم، وهو صحيح.

(٣) رواه الترمذي وابن حبان، وهو صحيح.

ونفعه وإحسانه على أهله أكثر من غيرهم؛ خاصة إذا لقي من أقاربه أذى، وسوء معاملة، فعاملهم بالعفو والصبر، وحلم على جهلهم.

ويقول عليه الصلاة والسلام: (وخياركم خياركم لنسائهم)[١].

يعني: الذين يعاملون زوجاتهم بالحسنى، ويبذلون لهن المعروف، والعشرةَ الحسنة، ويكرمونهن، ويصبرون على نقصهن وضعفهن، ويربّونهن التربية الصالحة الحسنة.

ويقول رسول الله عليه الصلاة والسلام: (خير النساء التي تسره إذا نظر إليها، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها، ولا مالها بما يكره)[٢].

فالزوجة إذا اتصفت بطاعة زوجها، وعدم عصيانه في المعروف، وحسنت أخلاقها ومظهرها لزوجها، فهي خير الزوجات؛ لأن ذلك طاعة لله ورسوله، وإدخال للسرور على بعلها، وذلك من المعينات على دوام العشرة الحسنة التي يُرجى منها العفاف، وبناء المجتمع الصالح الطاهر.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه الترمذي وابن حبان، وهو صحيح.

(٢) رواه أحمد والنسائي والحاكم، وهو صحيح.

الخطبة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

أيها المسلمون، إنه ليس من المجهول أن الشر صفة مقيتة، وسيئة كبيرة، وعمل ينبئ عن نفس ذميمة، تحمل داخلها حقداً وحسداً، وبغضًا واستئثاراً، وانحرافًا عن طريق الحق القويم؛ فلذلك صار أهل الشر مصدرَ خطر على أنفسهم، وعلى غيرهم، وعواملَ فساد وإفساد للمجتمعات والبيئات.

وشر ذوي الشر قد يكون باطنًا، وقد يكون ظاهراً، فيكون شراً في القلب، أو شراً في العقل، أو شراً في اللسان، أو اليد، أو في بقية الجوارح. والنفوسُ السليمة، والفطر المستقيمة، والدين الحق كلُّ ذلك يدعو إلى مجانبة الشر، والحذرِ من قوله وفعله؛ لما لذلك من نتائج سيئة في الدنيا والآخرة.

فمن كان أوفى عقلاً، وأقوى تدينًا كان بعيداً عن الشر، قريبًا من الخير، صائنًا لجوارحه عن لقاء الشر وصحبته، كما قال الشاعر:

لعمرك ما أهويتُ كفّي لريبةٍ ... ولا حملتني نحو فاحشةٍ رجلي

ولا قادني سمعي ولا بصري لها ... ولا دلّني رأيي عليها ولا عقلي [1]

أيها الإخوة الفضلاء، كما أن رسولنا الكريم ﷺ ذكر أمثلة على خيار الناس في مجالات شتى فإنه أيضًا ذكر أمثلة على شر الناس في ميادين متعددة كذلك.

---

(١) أمالي القالي (ص:٢٤١).

ففي مضار التعامل مع القبور بيّن رسول الله ﷺ أن شر الناس هم الذين بنوا المساجد على القبور، واتخذوا القبور منازل مقدسة يصلون عندها، ويتضرعون بين أيدي ساكنيها كما يتضرعون بين يدي الله، فقال رسول الله ﷺ: (شر الناس الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)(١).

وفي مضار المجالسة والمخالطة ذكر رسول الله عليه الصلاة والسلام أن شر الناس في ذلك من ترك الناس مجالستَه والقربَ منه؛ لفحش قوله وفعله، وسوء ما يصدر عنه من ذميم المقال، وسيء الفعال، فقال عليه الصلاة والسلام: (إن شر الناس منزلةً عند الله من تركه أو ودعه الناس اتقاء فحشه)(٢).

وفي مضار التعامل بين الجهات المتباينة، وبين أهل الحق وأهل الباطل بيَّن رسول الله ﷺ أن شر الناس في ذلك ذو الوجهين، الذي يدخل الفساد بين العباد، ويثير الفتن، ويلبس النفاق شعاراً، وإرضاءَ الناس بالباطل دثاراً، ويتملق لكل طائفة بإظهار موافقته لها كذبًا وزوراً؛ من أجل الظفر بمصلحة دنيوية، فقال عليه الصلاة والسلام: (وتجدون شر الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، ويأتي هؤلاء بوجه)(٣).

وفي مضار زينة المرأة ذكر رسول الله ﷺ أن شر النساء نساءٌ مظهراتٌ زينتَهن، مُبدِيات مفاتنهن للرجال الأجانب، معجباتٌ بأنفسهن ومحاسنهن حتى تكبرن واختلن. فقال رسول الله ﷺ: (خير نسائكم الودود الولود، المواتية المواسية إذا اتقين الله -يعني: المتحببة لزوجها الموافقة له- وشر نسائكم المتبرجات المتخيلات)(٤).

---

(١) رواه أحمد، وهو صحيح.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه البيهقي، وهو صحيح.

فيا أيها المسلمون، كونوا من خيار عباد الله باطنًا وظاهراً، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون، فما أحسن أن يكون المسلم موسومًا بالخير بين الناس، محبًا للخير وأهله، وما أعظم ما ينتظره من جزاء الخير في الدنيا والآخرة!

مَـنْ يَفعِـل الخَـيرَ لاَ يعـدَمْ جَوَازِيَـه   لا يَذْهَبُ العُرفُ بينَ اللهِ والنّاسِ[1]

والحذرَ كل الحذر من الشر، اتصافًا وفعلاً، فما أسوأ أن يصير الإنسان معدوداً في أهل الشر، معروفًا به! متروكة مجالستُه بين الناس الصالحين؛ لشره وضره.

وما أشد ما ينتظره من العواقب الوخيمة إذا لم يتب من شروره وأذاه!

مـن يفعـلِ الحسـناتِ اللهُ يشـكرها   والشرُّ بالشرِ عنـد الله مـثلانِ[2].

قـال تعـالى: ﴿فَمَـنْ يَعْمَـلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ خَـيْرًا يَـرَه * وَمَـنْ يَعْمَـلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾[الزلزلة:٧-٨].

هذا وصلوا وسلموا على خير الورى...

---

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح (ص:٢٥٢).

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه (ص:٢٠٤).

سلوة المغموم (١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، لقد تكاثفت غيوم البلايا على سماء واقعنا، وبسقت أشجار الشدة على أرض أيامنا، حتى عمّت الخطوب، وأينعت الكروب، وتعددت الغموم، وتنوعت الهموم، وضاقت الأحوال، فخنقت الآمال، وعظُمت المصائب والعسر، وقلّت الرغائب واليسر. فالحرب لا تزداد إلا اشتعالا، والأزمة الاقتصادية تتسع يمينًا

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ٢٧/٥/١٤٣٨هـ، ٢٤/٢/٢٠١٧م.

وشمالا، وأكثر الموظفين يعيشون أشهراً بلا مرتبات، والكساد يعمُّ الأسواق والتجارات، والبطالة تمتد في جوانب الحياة، وهبوط الريال، وارتفاع الدولار يقتحم ما تبقى من أبنية العيش الكريم. وتحت ظلال هذه المآسي كَثُر المرضُ والمرضى، وقلّ الدواء أو ارتفع ثمنه، وهاجر ما تبقى من كبار الأطباء إلى خارج البلاد.

ومع هذا وذاك يعيش الناس في خوف وقلق، غيرَ سالمين من تسلط الظالمين، وشدة مكر أعداء المسلمين، وقبل هذا كله فإنه ليَكلِمُ أفئدةَ المؤمنين انتفاشُ الباطل وأهلِه المفسدين، وخفوت أو غياب الحق وأهلِه المصلحين، حتى اشتد ساق الباطل فغدا بين الخلق حقا، والحق صار باطلا، والصدق كذبا، والكذب صدقا، والمنكر معروفا، والمعروف منكرا، وفي مثل هذه الأجواء القاتمة، يقول المؤمن:

لمثلِ هذا يذوبُ القلبُ من كمدٍ إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ(١)

أيها المسلمون، هذه عينة من واقعنا، ومشاهد حية مما يزخر به عيشنا، ونماذج من المظاهر الملموسة في أيامنا هذه.

فإن سأل سائل: لماذا وصلنا إلى هذه الحال، ولِمَ وردنا إلى هذا المآل؟ إذْ لا بد لكل نتيجة من مقدمة، ولكل مسبَّبٍ من سبب، فإذا عُرف السبب بطل العجب، ومتى عُلم سبب الداء سهل على الطبيب تعيين الدواء، كما أن الإنسان إذا وصل إلى دراية بأسباب علته، وفهمَ عوامل محنته فإن ذلك يعد أولى درجات سلم الشفاء، والنجاةِ من شقاء الداء.

أيها الإخوة الفضلاء، إن **الجواب** على هذا نجده في كتاب ربنا الكريم الذي فيه صلاح جميع أمرنا لو تمسكنا به حق التمسك، فتأملوا معي وتدبروا وتفكروا في هذه

---

(١) البيت لأبي البقاء صالح بن شريف الرندي، جواهر الأدب (٢/ ١).

الآيات الأربع الكريمات، يقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأنفال:٥٣]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾[الرعد:١١]. وقال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم:٤١]، وقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾[الشورى:٣٠].

ففي الآية الأولى والثانية يبين الله تعالى أن تغيير النعمة إلى نقمة له سبب، فتغيّر التوفيق إلى خذلان، والإعطاء إلى حرمان، والأمن إلى خوف، والغنى والكفاية إلى فقر وحاجة؛ سببه: تغير النفوس، فالتغيير الخارجي المكروه سببه التغيير الداخلي المكروه.

فالنفوس حينما تغير حالها من طاعة إلى معصية، ومن قرب من الله إلى بُعد عنه، ومن شكر المنعم سبحانه إلى جحود نعمته، ومن التوكل عليه إلى التوكل على غيره، عند ذلك دهمَ ليلُ البلاء، فطردَ ضياءَ النعماء، وما ظلم اللهُ الكريمُ الرحيم سبحانه عبادَه، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.وفي الآيتين: الثالثة والرابعة يكشف الله لنا عن سبب حصول الفساد في الأرض في برها وبحرها، وعن علة نزول المصائب على الخلق فيقول لنا: إن سبب ذلك كسبُك أيها الإنسان، مهما حاولت تنزيه نفسك، عن كبار معاصي العاصين، وجرائرِ رؤوس المجرمين، فإن المعاصي- وإن صغرت- عندما يتواتر عليها ناس كثيرون تصبح خطراً كبيراً على المجتمع الذي يعيشون فيه.إذن: السبب هو: ما قدّمت أيدي الناس، مجتمعين أو متفرقين، خاصة كانت الذنوب أو عامة، فما أهلَكَ الشعوبَ أعظمُ من الذنوب.

ألا ترون بعين الحق واقعَ المسلمين-عباد الله- ألم يُعطَّل فيه كثير من شرع الله في سير الحياة؟، الحدود الشرعية غالبًا لا تُقام، الربا يعيش اليوم أبهى مراحل عزه، ويتربع على الاقتصاد على مرأى ومسمع المسلمين، قتلُ النفوس المعصومة فشا بين ذوي الأنفس الضعيفة، الزنا وقلة الحياء في ازدياد، وأخذ أموال الناس بالباطل، وموالاة أعداء المسلمين، ومعاداة أولياء الله الصالحين، وقطع الصلاة، ومنع الزكاة، وشرب المسكرات؛ كل هذه المعاصي وغيرها صارت ذنوبًا ظاهرة، واسمعوا ما قال رسولنا ﷺ ذاكراً السبب والنتيجة، وقارنوا الخبر النبوي بواقع البشر اليوم، فعن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: (يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتُلِيتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعضَ ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم)(١).

أحبتي الكرام، نعلم جميعًا أننا-نحن المسلمين- ما جئنا إلى هذه الدنيا لنعيش فيها خالدين، ونعمرها فنكونَ بها لاهين، وعن ذكْرِ الدار التي تنتظرنا غافلين أو ناسين. وإنما جئناها لنعبرها إلى دار أخرى، ونزرعها لنحصد في مكان سواها، ونغترب فيها ثم نعود من سفرنا إلى الوطن الخالد الذي هو دارنا الحقيقية، نعم، خُلقنا في الدنيا لنؤمن بالله، ونعمل الأعمال الصالحة التي نأخذ بها جواز دخول الجنة-برحمة الله

---

(١) رواه البيهقي والحاكم، وهو حسن.

تعالى- فأما من تركَ الإيمان والعمل الصالح، وركب مطايا الجحود والعمل السيء فما هو جواز سفره إلى الدار الآخرة؟

أقول: إذا كان الأمر هكذا، فكم هم الذين يعيشون منا -نحن المسلمين- من أجل الآخرة، ولم تغرهم الحياة الدنيا، وكم هم الذين تنافسوا على دار الغرور، وغفلوا عن العمل المنجي يوم النشور!

إن نسيان الآخرة، والانغماس في شهوات الدنيا الخاسرة، والاغترار بأموالها وعقاراتها، وجاهها وسلطانها، ولهوها وملذاتها أدى ذلك كله إلى الغفلة عن الدين، وتركِ جعلِه أهمَّ المهمات، وغاية الغايات في العمل في هذه الحياة، فلا غرابة حينئذ- وأحوالنا هكذا- أن تُغِير علينا جحافلُ المصائب، ونحن غرقى في بحار الدنيا، أو سكرى في خمرة الغفلة.

أيها الأحباب الفضلاء، هل سأل كل واحد منا نفسه هذا السؤال: كم هو عملي في اليوم والليلة لهذا الدين الذي خُلِقت من أجله، وتكفل الله لي بأني لو قمت به لصلحت حياتي في الدنيا والآخرة، وزال عنها الكربات الشِّداد؟، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[الأعراف:٩٦]، وقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النحل:٩٧]. اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، فكم نصيب الدين من هذه الساعات؟ فإذا كان نصيب الدنيا هو الأكثر منها كانت المكدرات والأحزان هي الأكثر، وإن كان نصيب الدين هو الأكبر فيها كانت الأحوال الطيبة هي الغالبة على الحياة.

ونحن -بلا شك- نعرف أن نصيب الدنيا من أكثرنا هو الغالب، فإذاً لا نستغرب

من نزول المصائب، وقلة الرغائب.

أيها المسلمون، إن هذا الواقع المظلم لا يدعو إلى اليأس، فمصباح التفاؤل، وتغييرِ الحال السيئة بيد من يصدق في سلوك درب النجاة، فما عليه إلا أن يشعل مصباح الضياء، ويسعى في سبيل الخروج من ظلمات واقعه الكئيب.فمن أراد السلوَّ من أحزانه، والاطمئنان في كدر أوقاته وأحيانه، والانتقالَ إلى يسره بعد عسره، وإلى سعادته بعد شقوته، وإلى سعته بعد ضيقه؛ فليعلم أن الدنيا لا تصفو جميعُ أحوالها، ولا تجمل كل أوقاتها، بل هي على مهب تقلب الأطوار، وتبدل الأحوال، فإن أضحكت اليوم أبكت غدا، وإن أحزنت غداً أفرحت بعد غد.فلا يقنطنَّ مصاب ولا مبتلى، ولا حزين ولا مظلوم؛ فإن الأيام دول، وأزمنة الضر إلى مرتَحل، والدهر قُلَّب، والعيش يتبدل.

فيومٌ علينا ويومٌ لنا ... ويومٌ نُسَاءُ ويَوْمٌ نُسَرّ

ففي مكة قاسى رسول الله ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم صنوفَ البلاء، وعانوا صروف العناء، غير أنهم لما هاجروا إلى المدينة حسُنت أحوالهم، فعزوا بعد الذلة، وكثروا بعد القلة، واغتنوا بعد العيلة.ومن أوثقت الدنيا عليه أغلالَهَا، وضيّقت عليه خناقها، وأحاطت به البلايا إحاطةَ الأطواق بالأعناق، فلم يجد من ضيقه مخرجا، ولا من شدته فرجا؛ فليتنفس الصعداء، وليبتسم في وجه البلاء، وليتجه بقلبه إلى ما أعد الله تعالى للمؤمنين العاملين الصابرين في دار البقاء في جنة عرضها السماوات والأرض أُعدت للمتقين.فمن كان من المؤمنين ففكر في أيام محنته بمجيء الموت، ورحيل الدنيا، وقدوم الآخرة وما فيها لأهل الإيمان والعمل الصالح من الخيرات؛ فإنه ستستريح نفسه، وتتسع حياته، ويعظم أمله، ويخف ألمه.فما دام أن هناك جنة تنتظر المؤمنين

الصابرين يذهب فيها حزن الدنيا وشقاؤها، ويخلد فيها المؤمن أبد الآباد؛ فلا حزن يبقى، ولا شرَّ دنيويًا يُخشى إذا كان الإنسان من أهل التقوى، فما عند الله خير وأبقى، ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت:٦٤].

ومن موارد السلوان، وجلاء الأحزان: أن تعلم -أيها المظلوم، وأنت أيها الفقير، وأنت أيها المريض، وأنت أيها المغموم- أنك لست وحدك في سوق البلاء، ومسلك العناء، فهناك من هو مثلك أو أكثر منك، فسلِّ نفسك بالتأسي، وفي كل وادٍ بنو سعد، ومن لم يُبتلَ اليوم سيبتلى في غد أو بعد غد، فأين المفر؟.

فمن كان مظلومًا فإن الله سينصره، ولو بعد حين، في الدنيا، أو في الآخرة؛ فقد خرج رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ من مكة مظلومين، فما هي إلا سُنيهات حتى نصرهم الله تعالى في يوم بدر وما بعدها.

ومن افتقر بذهاب راتبه، أو تسريحه من وظيفته، أو ذهاب تجارته، أو كساد سوقه، أو عدم حصوله على وظيفة تصونه ومَن يعول عن ذل الحاجة إلى غيره؛ فليعلم أن الفقر لا يدوم كما أن الغنى لا يستمر؛ فقد خرج عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه من مكة مهاجراً إلى الله ورسوله، فوصل إلى المدينة بلا أهلٍ ولا مال، حتى وجد بعد ذلك وتأهّل، وصار من أغنياء العرب.

ومن كان مريضًا فإن المرض تعقبه العافية في الدنيا، أو الموتُ الذي يذهب معه كلُّ ألم، ويحصل بعده كل جميل، ما دام صاحبه من المؤمنين الصابرين، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾[فاطر:٣٤].

ألا فليصبر كل مهموم، وكل مظلوم، وكل مريض، وكل فقير، وكل مبتلى، وكل

ضيِّق، وكل محزون؛ فإن صبر المؤمنين يورث جنة رب العالمين، ويُنزل على قلوب المصابين غيثَ الاطمئنان واليقين، ويسوق إليها سحائبَ الأمل، وحسن ما عنده.

الصبر مثلُ اسمه في كل نائبة ... لكنْ عواقبُه أحلى من العسل[1]

وقال الآخر:

بكى صاحبي لما رأى الموتَ فوقنا ... مُطلاًّ كإطلال السحاب إذا اكفهرْ

فقلتُ له لا تبكِ عينُك إنما ... يكون غداً حسنُ[الجزاء] لمن صبرْ[2]

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه؛ إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) جواهر الأدب (٢/٦٠).

(٢) عيون الأخبار (ص:٥٣).

الخطبة الثانية

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، والصلاة والسلام على خير من صبر وتعبّد، نبينا ورسولنا وقدوتنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، **أما بعد:**

أيها المسلمون، إن الفرج الجماعي يحتاج إلى عودة جماعية إلى الله تعالى، فما أذهبَ الكريهات، ورفعَ العقوبات، مثلُ ترك السيئات، ولزومِ الطاعات. فما نزلت مصيبة إلا بمعصية، ولا رُفعت إلا بتوبة.

ألا من كان بعيداً عن الله تعالى فليعدْ إلى الله، ومن كان مذنبًا فليتب من ذنبه، ومن كان ظالمًا فليتب من ظلمه، ومن كان تاركًا للصلاة فليصل قبل فجأة منيته، ومن كان مانعًا للزكاة فليدفع زكاة ماله قبل حلول عقوبته، ومن كان آكلاً للحرام فليترك الحرام، وليُقبل على ما أحلّ له قبل ندامته وحسرته.

ومن كان مسرفًا على نفسه بالمعاصي الأخرى فليرجع اليوم حتى تُرفع الكروب عنه وعن أمته. فلو غدا كل إنسان مصلحًا نفسَه وأسرته قيامًا بالواجبات، وهجراً للمحرمات لصلحَ المجتمع، ولو صلح المجتمع لانقشعت غيوم البلاء، وهطلت غيوث النعماء.

أحبابي الفضلاء، إن الدعاء الصادق، الجامع لآداب الدعاء وشروطه باب عظيم من أبواب كشف الغمة، وزوال الأزمة، فلو رفعنا كلنا أيدي الضراعة والإخلاص لأوشك باب الفرج أن يفتح.

وكذلك البحث عن حلول المعضلات هو مما يأمر به العقل والشرع، فمن ضاق

عليه باب رزق فليتوكل على الله تعالى وليبحث عن باب آخر، قال نبي الله ﷺ: (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطانًا)(١).

والاقتصاد من موانع النفاد، فعلى الإنسان في هذه الأيام أن يكون مقتصداً في عيشه، غيرَ مسرف في تلبية شهوات نفسه؛ فإن الكثير بالإسراف ينفد، والقليل بالاقتصاد يبقى.

عباد الله، إن من العوامل الحسنة التي تخف بها وطأة الأزمات: إحياءَ رابطة الأخوة الإسلامية التي تجعل المسلمين كالجسد الواحد، فيعطف في ظلها الغني على الفقير، والشبعان على الجائع، والقادر على العاجز، فمن كان ذا فضل فليعد بفضل منه على المحتاج من إخوانه المسلمين؛ فإن الزكاة والصدقة، والهبة والعطية في أيام الحاجات من أعظم القربات، فبين الموسع ونيل الأجر العظيم انتصارٌ على النفس الشحيحة.

فما أجملَ المجتمع الذي يهجم عليه البلاء، فيدفعه أهلُ المجتمع بالتراحم والإخاء، ويقتسمون للعيش اللقمة، كما قصمت ظهورهم الأزمة، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[المائدة:٢].

هذا وصلوا وسلموا على البشير النذير...

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان، وهو صحيح.

في ظلال آيات الصيام:

الجزء الأول [١]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، لقد فرض الله تعالى علينا صيام شهر رمضان من كل عام، وأنزل في ذلك خمس آيات متصلة في سورة البقرة، تبيّن حُكمه وأحكامه، وشروطه وآدابه، فما أحسن أن نتفيأ في ظلال هذه الآيات ونتدبرها فنأخذ منها العلم والعمل.

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ٢/رمضان/١٤٣٩هـ، ١٨/٥/٢٠١٨م.

قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:١٨٣]. هذه هي الآية الأولى من الآيات الخمس، **وقد اشتملت على:** نداء ومنادَى، وحُكم ومحكوم به، وتاريخِ تشريع، وغايةٍ لهذا التشريع.

فالنداء" يا أيها" وهو أسلوب قولي يستدعي انتباهَ السامع؛ حتى يُقبل على المنادي فيسمع ما يقوله.

والمنادى هو" الذين آمنوا " فأهل الإيمان هم المقصودون بهذا الحكم، وليس غيرهم ممن ليس مسلمًا، ولو كان عامًا يشملهم لقال: يا أيها الناس؛ لأن الكافر لا يُطلب منه الصيام حتى يُسلِم، ويشهد شهادة الحق.

والنداء بوصف الإيمان حاثٌّ على الامتثال والعمل؛ إذ إن الإيمان يدعو صاحبه إلى القيام بأعمال الإيمان: عملاً بالأمر، وتركًا للنهي، وتلقّي ذلك بالسمع والطاعة.وقد جاء بعد هذا النداء الأمر بعمل خير ألا وهو الصيام، وما على المؤمن إلا امتثال هذا الأمر.

وقد أتى رجلٌ عبدَ الله بن مسعود، فقال اعهد إليّ، فقال: "إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها سمعك؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه"(١).

وأما الشيء الثاني في الآية فهو الحكم والمحكوم به؛ فالحكم هو الإيجاب، وقد جاء بلفظ: "كتب" الذي هو صيغة من صيغ الوجوب التي تدل على الفرض والإلزام؛ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾[البقرة:١٧٨].

وأما المحكوم بوجوبه فهو الصيام الشرعي الذي هو: " الإِمساكُ عن المفطِّرات، بنيَّة التعبُّد لله تعالى؛ مِن طُلوعِ الفجر إلى غُروبِ الشمس"(٢).

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/٢٨٣).

(٢) الشرح الممتع على زاد المستقنع (٣/٥).

وأما التاريخ لهذا التشريع الواجب فهو قوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، فعُلِم منه أن الصيام شريعة واجبة في الأمم قبل هذه الأمة، وليست عليها وحدها. وهذا يبين أن عبادة الصيام عبادة صالحة لكل زمان، ولكل أمة.

وقد ساق الطبري بسنده إلى السدي فقال: "أما الذين من قبلنا: فالنصارى، كتب عليهم رمضان، وكتب عليهم أن لا يأكلوا ولا يشربوا بعد النوم، ولا ينكحوا النساءَ شهر رمضان. فاشتد على النصارى صيامُ رَمَضان، وجعل يُقَلَّبُ عليهم في الشتاء والصيف. فلما رأوا ذلك اجتمعوا فجعلوا صيامًا في الفصل بين الشتاء والصيف، وقالوا: نزيد عشرين يومًا نكفّر بها ما صنعنا! فجعلوا صيامهم خمسين"(١) تحريفًا وتبديلاً لشرع الله تعالى.

وأما الغاية من تشريع الصيام فهي في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ فالصيام عبادة شُرعت لهدف عظيم يجلب للمسلم السعادة في الدنيا والآخرة عبر بوابة التقوى؛ فإن الصيام لما كان تصبيراً للنفس على اجتناب المفطّرات التي حرمها الله تعالى على الصائم وقت صيامه، وتصبيراً للنفس على القيام بما يصح به الصيام من الطاعات، وتصبيراً للنفس على تحمل المكاره الناتجة عن ثقل الصيام من تعب وجوع وظمأ وكبح عن شهوات النفس، مع مراقبة لله تعالى وإخلاص له في ذلك؛ كان هذا كله من التقوى التي تعني: "ترك ما حرَّم الله، وأداء ما افترض"(٢).

وذكرُ هذه الغاية للصيام يبين أن للصيام أهدافًا وحِكَمًا عظيمة من تشريعه، فكما أن التقوى هي غايته الأصلية فإن هناك غايات فرعية أخرى أيضًا؛ فالصيام يربي

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٤١١).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢٠/ ٨).

المسلم على مراقبة الله تعالى والإخلاص له، ويدعوه إلى الإيثار والرحمة، ويُقيمه على صراط الخُلق الفاضل، والمعاملة الحسنة، ويربيه على ضبط النفس والسيطرة عليها، وكبح جماحها في شهواتها وغضبها وسوء تعاملها.

عباد الله، الآية الثانية من آيات الصيام: قول الله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٤].

وقد احتوت هذه الآية **على خمسة أمور**: بيان مدة الصيام، وبيان الأعذار المانعة منه، أو التي يشق معها الصيام، وبيان الحكم في حق من كان فيه عذر من هذه الأعذار، والترغيب في الزيادة على الفدية، والحث على أفضلية الصيام على الفدية، أو مع وجود المشقة المحتملة.

فالأمر الأول: أن الصيام الذي فرضه الله تعالى علينا معشر المسلمين إنما هو أيام قليلة، وليس مدة كبيرة؛ ولذلك ذكر المدة ووصفها بقوله: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ على جمع القلة؛ تشويقًا للصيام، وترغيبًا في الحرص عليه، قال بعض المفسرين: "وإنما عبّر عن رمضان بأيام وهي جمع قلة، ووصف بمعدودات وهي جمع قلة أيضًا؛ تهوينًا لأمره على المكلفين، والمعدودات كناية عن القلة؛ لأن الشيء القليل يُعدّ عداً؛ ولذلك يقولون: الكثير لا يُعَد"(١).

والأمر الثاني في الآية: بيان الأعذار المانعة من الصيام، أو التي يشق معها، فقال تعالى عنها: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾، فذكر تعالى المرض والسفر، فأما

---

(١) التحرير والتنوير (٢/١٥٩).

المرض الذي يمنع من الصيام فهو الذي يؤدي إلى زيادة الداء، أو تأخير الشفاء، أو يوصل إلى تلف النفس. وليس كل مرض عذراً للفطر، فالمرض اليسير الذي يمكن معه الصوم ولا يوصل إلى نتيجة من النتائج السابقة لا يمنع من الصيام.

وأما السفر فإنه عذر للفطر إذا كان إلى مكان عُدّ في عُرف الناس أنه سفر تقصر فيه الصلاة(١).

وإن استطاع المسافر الصيام في سفره خاصة إذا كان سفره مريحًا لا مشقة فيه فنفضل له الصيام على الفطر؛ أداء لحق الله، ومسابقة إلى الخير؛ لأن الإنسان لا يدري ما يعرض له في المستقبل.

وهناك صنف آخر من أصحاب الأعذار ذُكروا في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ وهم الذين يتكلفون الصيام ويشق عليهم مشقة غير محتملة؛ كالشيخ الكبير الفاني والعجوز الهرمة، والمريض مرضًا لا يرجى شفاؤه حتى يتمكن من القضاء عند الشفاء. ويلحق بهم المرأة الحامل، أو المرضع، إذا خافتا على نفسيهما أو ولديهما.

والأمر الثالث في الآية: بيان الحكم في حق من كان فيه عذر من هذه الأعذار؛ فأما المريض مرضًا يرجى شفاؤه، والمسافر فإن عليهما القضاء بعد رمضان؛ لقوله تعالى في الآية: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. فمن أفطر في رمضان لسفر أو مرض شُفي بعده فعليه قضاء ما أفطر من شهر رمضان. ولا يشترط التتابع في القضاء، بل يجوز التتابع والتفريق، كما لا يشترط أن يكون ذلك في شوال، بل يجوز تأخيره ولو إلى شعبان، لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان يكون عليّ الصوم من رمضان، فما أستطيع أن أقضي إلا في شعبان)(٢).

---

(١) الشرح الممتع على زاد المستقنع (٤/٣٥١-٣٥٢).

(٢) متفق عليه.

مع أن المبادرة أفضل، خاصة لمن يريد صيام الست من شوال.

ويلحق بالمريض والمسافر في وجوب القضاء: الحامل والمرضع، فإن عليهما القضاء فقط وليس عليهما فدية مع ذلك، على الصحيح(١).

وأما المريض مرضًا لا يُرجى شفاؤه، والإنسان الكبير في السن فهؤلاء عليهم مع الإفطار إطعام مسكين عن كل يوم أفطروه من رمضان؛ لقوله تعالى في الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾. ومقدار الإطعام: نصف صاع عن كل يوم، ويساوي ذلك كيلو ونصفًا، من غالب الطعام.

وفي قضية الإطعام تنبيهات: أولاً: أنه يجب أن تكون الفدية من الطعام ولا تجزئ من غيره، فلا يصح أن يُعطى المسكين نقوداً إلا إذا اشترى بها طعامًا، ولا تجوز الفدية بملابس أو دواء أو نحو ذلك.

ثانيًا: يجوز الإطعام في رمضان ويجوز بعده. ثالثًا: يجوز أن يُجمَع المساكينُ في آخر رمضان وبعده ويُطعَموا عدد ما أفطر المعذور، وكما يجوز جمعهم في وقت واحد يجوز أيضًا تفريقهم، حسب ما يتيسر للمطعم. رابعًا: ولو دُعي المسكين إلى البيت أو إلى مطعم فأُطعم وجبة كافية، سواء كان ذلك في رمضان أم غيره لكان أفضل.

وأما الأمر الرابع في الآية فهو: الترغيب في الزيادة على الواجب في الفدية، والحث على أفضلية الصيام على الفدية، أو مع وجود المشقة المحتملة. ففي الزيادة على الفدية يقول تعالى: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ يعني: "فمن زاد في قدر الفدية تبرعًا منه فهو خير له"(٢). أي: لو أطعم المسكين صاعًا بدل نصف ساعة، أو أعطاه أكثر من

(١) الشرح الممتع على زاد المستقنع (٦/ ٣٥٠).

(٢) التفسير الميسر (١/ ١٩٨).

وجبة فهو خير.

وللحث على أفضلية الصيام على الفدية، أو مع وجود المشقة المحتملة يقول تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: "وصيامكم خير لكم -مع تحمُّل المشقة- من إعطاء الفدية، إن كنتم تعلمون الفضل العظيم للصوم عند الله تعالى"[١].

أيها الأحباب الكرام، تأملوا في هاتين الآيتين الكريمتين كيف رغبنا الله تعالى في الصيام **بعدة أمور**[٢]:

أولاها: أن الصيام لم يُفرض علينا -أمةَ محمد- وحدنا، بل قد فُرض أيضًا على غيرنا من الأمم قبلنا، فيكون لنا بذلك أسوة، وهذا يخفف من ثقل العبادة لوجود القدوة.

ثانيها: أن الصيام عبادة لها غاية حميدة، وفائدة كبيرة، ألا وهي: التقوى، وهذا مما يشجع على القيام بعبادة الصيام.

ثالثها: أنه شُرِع أيامًا قليلة، وليس أيامًا كثيرة، وهذا ينشط المسلم على الصيام.

رابعها: أن هذه العبادة الواجبة لا يدخل في حكمها أصحاب الأعذار من مرض أو كِبَر أو سفر، وإنما تجب على الصحيح القادر المقيم، وهذا مظهر من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده، وتيسير العبادة عليهم.

فلله الحمد على نعمة الإسلام، ولله الحمد على نعمة الصيام، ولله الحمد على هذا التشريع الميسر في جميع الأحكام.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) بعض ما ذُكر مستفاد من كلام القفال، ينظر في: تفسير الرازي: مفاتيح الغيب(٥/ ٦٣).

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده،

أما بعد:

أيها المسلمون، والآية الثالثة من آيات الصيام هي قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥].

وفي هذه الآية الكريمة مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾، وهذا تحديد للزمن الواجب صيامه، بعد أن أُجمل في قوله تعالى:﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ ولم تبين الآية السابقة شهرَ الصيام، فجاءت هذه الجملة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ لتحدد أنه شهر هلالي من شهور السنة القمرية وتخصه من بين شهور السنة الاثني عشر بشهر رمضان.وقد اختار الله تعالى هذا الشهر وشرّفه بالصيام لِحكم يعلمها تبارك وتعالى.

وكما اصطفاه سبحانه للصيام فقد اصطفاه أيضًا بمزية أخرى ألا وهي نزول القرآن فيه، وهي المسألة الثانية.

المسألة الثانية: قوله تعالى:﴿الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾، فقد اجتبى الله تعالى شهر رمضان بنزول القرآن عند هذه الآية، قال ابن

كثير: "يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم... نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مباركة﴾ ثم نزل بعده مفرقاً بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ، هكذا روي من غير وجه عن ابن عباس "(١).

عباد الله، **وأما المسألة الثالثة** ففي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، ففيها التصريح بفرضية الصيام بشرطه، بعد تحديد شهره، وهذه الجملة من الآية -على قول جمهور العلماء- ناسخة للتخيير المذكور في قوله تعالى:﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، فقد "كان في ابتداء الأمر من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً"(٢)، ومما يدل على ذلك حديث سلمة بن الأكوع قال: لما نزلت: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾،كان من أراد أن يفطر ويفتدي، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها(٣).قال ابن كثير: "فحاصل الأمر أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه بقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، وأما الشيخ الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصيام، فله أن يفطر ولا قضاء عليه؛ لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيها من القضاء، ولكن يجب عليه فدية عن كل يوم، وعليه أكثر العلماء(٤).

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٦٨).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢٦٧).

(٣) متفق عليه.

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٢٦٨) بتصرف يسير.

عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، فقد ذكر الله تعالى في هذه الجملة من الآية من شروط وجوب الصيام: الإقامة، والسلامة من الأعذار، فقوله: ﴿شَهِدَ﴾ أي: حضر في الشهر، أي: لم يكن مسافراً، وهو المناسب لقوله بعده: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ...﴾ إلخ "(١).

وقوله: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، فيه شرط السلامة من عذر المرض ووجوب القضاء لمن أفطر لمرض أو سفر.

ووجه إعادة قوله: ﴿مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ مع تقدمه في الآية السابقة: حتى لا يظن ظان أن جميع ما ذُكر في الآية الماضية قد نُسخ كما نُسخ التخيير بين الصيام والإطعام مع القدرة، بل الرخصة بالفطر في حق المسافر والمريض باقية، ولكن عليهما وجوب القضاء لا الإطعام(٢).

أيها الإخوة الفضلاء، المسألة الخامسة: قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، فإن المتأمل في شريعتنا الغراء يجد أنها شريعة ميسرة، مبنية على دفع المشقة والعسر عن المكلف، فبعد أن ذكر الله تعالى بعض أحكام الصيام، خصوصًا الرخصة لأصحاب الأعذار في الفطر كالمريض والمسافر والعاجز، علَّل ذلك بأنه يريد بهذه الأحكام التيسير على عباده ودفع العسر عنهم. ومن نظر في عبادة الصيام وجد مظاهر كثيرة لهذا التيسير فيها، فمنها: ما ذُكر في الآية من مشروعية الفطر للمريض والمسافر والشيخ الكبير وما يلحق بهم من الحامل والمرضع، وكصحة صيام من أكل أو شرب ناسيًا، ومن أصبح جنبًا ولم يغتسل بعد، وكعدم وجوب الصيام على الصبي

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ١٧١).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢/ ١٧٢).

والمجنون، وعدم جواز الصوم من الحائض والنفساء، إلى غير ذلك من رخص الصيام الشرعية التي ذكرها أهل العلم.

المسألة السادسة: ثم ختم الله تعالى الآية الكريمة بتعليل الأحكام التي ذكرت فيها؛ فذكر سبحانه إكمال العدة، والتكبير لأجل الهداية، والشكر، فقال تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[البقرة:١٨٥]. **فبين** سبحانه أنه شرع القضاء بأيام أخر من أجل إكمال عدة رمضان للمريض والمسافر ونحوهما إن أفطرا، ليتم للإنسان أجر رمضان كاملاً. **كما بين** تبارك وتعالى أن التكبير الذي معناه: التعظيم والتبجيل جاء لما " أنعم عليكم به من الهداية التي خذل عنها غيركم من أهل الملل الذين كتب عليهم من صوم شهر رمضان مثل الذي كتب عليكم فيه، فضلُّوا عنه بإضلال الله إياهم، وخصَّكم بكرامته فهداكم له، ووفقكم لأداء ما كتبَ الله عليكم من صومه "(١).

"وفي لفظ التكبير عند انتهاء الصيام خصوصية جليلة وهي أن المشركين كانوا يتزلفون إلى آلهتهم بالأكل والتلطيخ بالدماء، فكان لقول المسلم: الله أكبر، إشارة إلى أن الله يُعبَد بالصوم وأنه متنزه عن مشابهة الأصنام "(٢).

" ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر من هذه الآية "(٣).إضافة لما ورد في السنة من استحباب ذلك.وجاء الشكر بعد ذلك تتويجًا للنعم الكثيرة التي منّ بها سبحانه على هذه الأمة فمن تفكر في الهداية لصيام هذا الشهر

---

(١) تفسير الطبري (٣/٤٧٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢/١٧٤).

(٣) تفسير ابن كثير (١/٢٧١).

وتيسير أحكامه وذهاب المشقة عنه كان ذلك أدعى لشكر الله تعالى.

قال بعض المفسرين: "فقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا﴾ علة الأمر بمراعاة العدة، ﴿وَلِتُكَبِّرُوا﴾ علة ما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ علة الترخيص والتيسير"(١).

هذا وصلوا وسلموا على من أمرتم بالصلاة والسلام عليه...

---

(١) تفسير الكشاف (١/ ٢٥٤).

في ظِلال آيات الصيام:

الجزء الثاني (١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الصائمون الفضلاء، وقفنا في الجمعة الماضية مع ثلاث آيات من آيات الصيام الخمس في سورة البقرة، وسنقف هذا اليوم -بعون الله- مع الآيتين الأخيرتين من تلك الآيات الخمس.

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ٩/رمضان/ ١٤٣٩هـ، ٢٥/٥/٢٠١٨م.

الآية الأولى قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقرة:١٨٦].

ففي هذه الآية الكريمة أمران:

الأمر الأول: إذا تأملنا في هذه الآية وجدنا أنها صُدِّرت بالسؤال الذي جرت عادة القرآن بأن يكون صدرُ جوابه بـ: قل؛ كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[الأنفال:١]. أو بقوله: فقل؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾[طه:١٠٥]. لكنه في هذه الآية لم يذكر ذلك؛ ولعل سبب ذلك بيان قرب الله تعالى من عبده عند الدعاء، فهو سبحانه لا يحتاج إلى واسطة أحد بينه وبين عبده؛ فلهذا على العبد أن يدعوه تعالى مباشرة.قال بعض المفسرين: " كأنه سبحانه وتعالى يقول: عبدي، أنت إنما تحتاج إلى الواسطة في غير وقت الدعاء، أما في مقام الدعاء فلا واسطة بيني وبينك "(١).

فسبحانه من إله قريب يدعوه عبده بأي لسان، ومن أي مكان، فيسمعه سبحانه ويعلمه! عن أبي موسى ﵁ قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال النبي ﷺ: (يا أيها الناس، ارْبَعُوا على أنفسكم(٢)؛ إنكم ليس تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعًا قريباً وهو معكم)(٣).

والأمر الثاني في الآية: أن الله تعالى ذكر هذه الآية ضمن الحديث عن الصيام ليرشد إلى أهمية الدعاء في زمان الصيام، قال بعض المفسرين: "وفي ذكره تعالى هذه

---

(١) تفسير الرازي (ص:٧٧٩).

(٢) أي: الزموا شأنكم ولا تعجلوا، وقيل: معناه: كفوا، أو ارفقوا. فتح الباري (١/ ١٢١).

(٣) متفق عليه.

الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام، إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة، بل وعند كل فطر "(١).

وفي هذه الآية إيماء إلى أن الصائم مرجو الإجابة، وإلى أن شهر رمضان مرجوة دعواته، وإلى مشروعية الدعاء عند انتهاء كل يوم من رمضان "(٢).

ومما يدل على أهمية الدعاء أثناء الصيام: قول رسول الله ﷺ: (ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر)(٣).

عباد الله، إن الصيام من أحسن الأزمان للدعاء، وحال العبد فيه من أحسن الأحوال لذلك، فحينما يعرف المسلم حق هذه العبادة وما ينبغي له فيها فإن روحه تقبل على ربها، فيخشع قلبه، وتستكين جوارحه، فتبدو عليه مخايل الإخبات والإقبال، والخضوع والانقياد، وعندئذ يكون قريبًا من ربه، موقنًا به، فإذا دعاه دعاه بتضرع وإكثار ويقين ورجاء وحسن ظن، وهناك يكون قريب الإجابة.

فما أحوجنا-أحبابي الكرام- إلى الدعاء، وما أفقرنا إلى اللجوء إلى رب السماء؛ إذ ما أكثر الآمال التي نرجو حصولها، والآلام التي نبغي رحيلها!

ومع عظم هذه المطالب إلا أن العجب يقف متحيراً عندما يلجأ أكثر الناس إلى الناس ويتركون رب الناس، الذي يقول في الحديث القدسي: (من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له؟)(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير (١/٢٧٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢/١٧٧).

(٣) رواه أحمد وابن حبان والترمذي، وهو صحيح.

(٤) متفق عليه.

وإذا ابتُلِيتَ بمِحْنَةَ فالبس لها ... ثوبَ السكوتِ فإن ذلك أسلمُ
لا تشكوَنَّ إلى العباد فإنما ... تشكو الرحيمَ إلى الذي لا يَرْحَم(١)

أيها المسلم، أكثرْ من الدعاء، ولا تستكثر على الله تعالى؛ فإنك تدعو من لا تنفد خزائنه، ولا ينتهي كرمه، ولا يثقل عليه إلحاح الملحين، بل يفرح بكثرة سؤال عبده له وإلحاحه عليه سبحانه وتعالى.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[فاطر:١٥]، (يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر)(٢).

لا تسألنَّ من ابن آدم حاجةً ... وسلِ الذي أبوابُه لا تُحجبُ
اللهُ يغضب إن تركتَ سؤاله ... وبُنيُّ آدمَ حين يُسئل يغضب(٣)

ومتى دعا المسلم بدعوة لم يعجّل الله له إجابتها لحكمة يعلمها سبحانه؛ فلا ييأس من الاستمرار رجاء الإجابة، فإن لم يُجب فله ربح آخر أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام.

قال النبي ﷺ: (لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل)، قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: (يقول: قد دعوت وقد دعوت، فلم أرَ يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء)(٤).

---

(١) عيون الأخبار (ص:٢٣٢).

(٢) رواه مسلم.

(٣) المستطرف (٢/١١٦).

(٤) رواه مسلم.

وقال رسول الله ﷺ: (ما من مسلم يدعو، ليس بإثم ولا بقطيعة رحم إلا أعطاه إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها)(١).

إن الدعاء المستجاب- يا عباد الله- يحتاج إلى شروط وآداب، فمن آداب الدعاء وشروطه: أن يكون الداعي حاضر القلب حال دعائه، مخلصًا لله فيه، موقنًا أنه لن يقضي حاجته سواه، وأن يكون متناولاً للحلال في أكله وشربه ولبسه، وأن يكون المدعو به مباحًا. وما أحسن أن يختار الأوقات المناسبة للدعاء كوقت السحر، وبين الأذان والإقامة، وحال الاضطرار. وأن يختار جوامع الدعاء التي تجمع بين خيري الدنيا والآخرة.

أيها المسلمون، والآية الأخيرة من الآيات الخمس هي قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[البقرة:١٨٧].

وقد تضمنت هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: الرخصة في معاشرة الزوجة في ليل الصيام دون نهاره فقال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ و" هذه رخصة من الله تعالى

---

(١) رواه الترمذي، والبخاري في الأدب المفرد، وهو صحيح.

للمسلمين ورفعٌ لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة، فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة"(١).

عن البراء ﵁ قال: كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائمًا فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وإنَّ قيسَ بن صرمة الأنصاري كان صائمًا فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها: أعندك طعام ؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك، وكان يومه يعمل فغلبته عيناه، فجاءته امرأته، فلما رأته قالت: خيبة لك! فلما انتصف النهار غُشي عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾. ففرحوا بها فرحًا شديداً ونزلت: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾(٢).

وأما قوله سبحانه: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ فهو يبين أن بعضهم كان يخون نفسه بإيقاعها في معصية الإفضاء إلى زوجته ليالي رمضان وكان ذلك محرمًا قبل النسخ، فرحم الله عباده بنسخ ذلك فتاب على من واقع قبل التحريم، وعفا عنهم بإباحة ذلك وترخيصه لليالي الصيام، فعن البراء ﵁ قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾(٣).

وتأملوا -أيها الأحباب الأفاضل- رقيّ الأسلوب القرآني في التعبير عن اللقاء بين

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٧٣).

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

الزوجين؛ فقد عبر عن ذلك بالرفث، كما هنا، وعبر عنه بالمباشرة في الآية نفسها في قوله: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ وقوله: ﴿وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ﴾، كما عبر عنه بالمس في قوله: ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾[البقرة:٢٣٦]، وباللمس في قوله: ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء:٤٣]، وبالإفضاء في قوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾[النساء:٢١].وبالطمث في قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾[الرحمن:٧٤].

وهذا يعلمنا استعمال التعبير اللطيف السامي في أقوالنا وكتاباتنا حينما نريد التعبير عما يتعلق بالنساء، ويرشدنا إلى الابتعاد عن الألفاظ الصريحة، والكلمات المثيرة.فإذا كان هذا في الكلمات فمن باب أولى البعد عما يثير الغرائز من الصور والمقاطع والحركات غير اللائقة.

وكذلك انظروا إلى حسن التمثيل البديع للقرب بين الزوجين حينما قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾، فعبر عن هذا القرب بلفظ اللباس الذي يحمل معنى الستر والحفظ والملاصقة.وهذا يعلم الزوجين أن يكون كل منهما حافظًا لأسرار صاحبه، ساتراً لعيوبه وعوراته.

المسألة الثانية: بينت الآية الكريمة أول زمن الإمساك عن المفطِّرات ونهايته، وذكرت أمد الإباحة لتناولها من وقت الليل.فقال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾، يعني: أن الصيام يبدأ من طلوع الفجر الصادق إلى دخول الليل بتحقق غروب الشمس.

قال رسول الله ﷺ: (إذا أقبل الليل من ها هنا، وأدبر النهار من ها هنا، وغربت الشمس فقد أفطر الصائم)(١).

(١) رواه البخاري.

قال بعض المفسرين: " و ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾ غاية اختير لها (إلى) للدلالة على تعجيل الفطر عند غروب الشمس؛ لأن (إلى) تمتد معها الغاية، بخلاف (حتى)، فالمراد هنا مقارنة إتمام الصيام بالليل "(١).

والخيط الأبيض: بياض النهار، والخيط الأسود سواد الليل؛ لحديث عدي بن حاتم ﵁ قال: لما نزلت: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ﴾. عمدت إلى عقال أسود، وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي، فجعلت أنظر في الليل فلا يستبين لي، فغدوت على رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك فقال: (إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار)(٢).

وفي قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾، إشارة إلى أن من أدركه الفجر وهو على جنابة لم يغتسل منها لم يفسد صومه بل عليه أن يغتسل ويواصل الصيام؛ لأنه "لو لم يجز ذلك لما جاز للصائم مد المباشرة إلى طلوع الفجر، بل كان يجب قطعها مقدار ما يسع فيه الغسل قبل طلوع الفجر "(٣). بل قد جاء التصريح بصحة الصوم مع هذا الفعل في حديث عائشة زوج النبي ﷺ قالت: قد كان رسول الله ﷺ يدركه الفجر في رمضان وهو جنب من غير حلم فيغتسل ويصوم(٤).

المسألة الثالثة: أشارت الآية الكريمة إلى استحباب السحور، ففي " إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور؛ لأنه من باب الرخصة،

---

(١) التحرير والتنوير (٢/١٨١).

(٢) رواه البخاري.

(٣) الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي (١/٣٦٧).

(٤) متفق عليه.

والأخذ بها محبوب؛ ولهذا وردت السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ بالحث على السحور "[١].

يقول رسول الله ﷺ: (تسحروا؛ فإن في السحور بركة)[٢].

وقال عليه الصلاة والسلام: (السحور كله بركة فلا تدعوه، ولو أن يجرع أحدكم جرعة من ماء؛ فإن الله عز وجل وملائكته يصلون على المتسحرين) [٣]. "وصلاة الله عليهم رحمتهم، وصلاة الملائكة استغفارهم لهم، وهذا ترغيب عظيم فيه "[٤].

وقال رسول الله ﷺ في السَّحور: (هو الغداء المبارك[٥])[٦].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه؛ إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/٢٧٦).

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أحمد، وإسناده قوي.

(٤) فيض القدير (٤/١٣٧).

(٥) قال العظيم أبادي: " والغداء: مأكول الصباح وأطلق عليه؛ لأنه يقوم مقامه. قال الخطابي: إنما سماه غداء لأن الصائم يتقوّى به على صيام النهار، فكأنْ قد تغدى، والعرب تقول: غدا فلان لحاجته إذا بكّر فيها، وذلك من لدن وقت السحور إلى وقت طلوع الشمس". عون المعبود (٦/٣٣٧).

(٦) رواه ابن حبان، وهو صحيح.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون، من المسائل التي ذكرتها الآية الكريمة: مسألة الاعتكاف؛ فذكرت أن الاعتكاف لا يكون إلا في المساجد، وذكرت مبطلاً من مبطلاته ألا وهو إتيان الزوجة حال الاعتكاف، فقال تعالى: ﴿وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾.

وقد اعتكف رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده؛ لنيل هذا الخير العظيم.

إن المعتكف يتأمل في هذه المدة اليسيرة في حاله ماذا قدم، وماذا سيقدم من الأعمال، فيتفكر في سالف أيامه: فإن كان محسناً يزد في إحسانه، ويعترف بتقصيره تجاه ربه.

وإن كان مسيئاً تضرع إلى الله تعالى ودعاه بغفران ذنبه، وستر عيبه، مع ندم صادق على زمان انقضى في التضييع والعصيان.

ويتفكر في مستقبل أيامه التي يكتنفها المجهول، فيعزم على الجد وترك التفريط والفتور، ويدعو الله تعالى بالتوفيق والسداد في القول والعمل.

فالاعتكاف فرصة للمراجعة والمحاسبة، وفرصة للتزود وشحذ الهمة الإيمانية، وطلب الصواب في قابل الأيام.

والاعتكاف فرصة لتعويض ما ضيع الصائم في أيام رمضان الأولى، فإن كان قد

جرح صومه بمخالطة الناس فلم يسلم صومه من غيبة أو تعدٍّ فالاعتكاف مكان للسلامة والمداواة.

وإن كان فاته القيام فيما مضى فالاعتكاف يعينه على المحافظة على القيام فيما بقي.

وإن كان قد شُغل عن كثرة قراءة القرآن وتدبره فالاعتكاف ظرف كريم لما فاته من ذلك.

ومن المناسبات الحسنة في ترتيب الأحكام في آيات الصيام: أن الله تعالى ذكر مسألة الاعتكاف آخر مسألة من مسائل الصوم لارتباطها بالعشر الأواخر من رمضان(١).

أيها الإخوة الأفاضل، وبعد أن ذكر الله تعالى أحكام الصيام وحِكمه قال سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ "أي: هذا الذي بيناه وفرضناه وحددناه من الصيام وأحكامه وما أبحنا فيه وما حرمنا وذكرنا غاياته ورخصه وعزائمه، حدود الله، أي: شرعها الله وبينها بنفسه ﴿فَلا تَقْرَبُوهَا﴾ أي: لا تجاوزوها وتتعدوها... ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ أي: كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله كذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يعرفون كيف يهتدون وكيف يطيعون"(٢).

---

(١) قال ابن كثير: " كان الفقهاء المصنفون يُتبعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف؛ اقتداء بالقرآن العظيم، فإنه نبه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم. وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبيه على الاعتكاف في الصيام أو في آخر شهر الصيام، كما ثبتت في السنة عن رسول الله ﷺ أنه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله عز وجل، ثم اعتكف أزواجه من بعده، أخرجاه من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها". تفسير ابن كثير (١/ ٢٧٩).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢٧٩).

ومن هذه الجملة الأخيرة من الآية نستفيد أموراً:

الأول: التحذير "من الجرأة على مخالفة الصيام بالإفطار غير المأذون فيه"[(١)]؛ لأن ذلك مجاوزة لحدود الله التي نهى عن قربانها.

الثاني: أن العبادات تحتاج إلى بيان أحكامها؛ حتى تؤدى على الوجه الصحيح، وعلى من عَلِمها أن يبلّغها من لا يعلمها.

الثالث: أن التقوى لا تتحقق إلا بعد البيان للمأمورات حتى تُمتثل، وللمنهيات حتى تُجتنب.

الرابع: تأملوا بعين التدبر إلى الكلمة التي خُتمت بها آخر آية من آيات الصيام الخمس، وأول آية من آياتها، ستجدون أنها كلمة التقوى، فقال تعالى أولاً: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وقال أخيراً: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

وهذا يدلنا على أهمية التقوى، وأن الصيام مرتع خصب لاكتسابها وتحصيلها.

فنسأل الله أن يجعلنا من المتقين.

هذا وصلوا وسلموا على القدوة المهداة....

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ١٨٤).

صوموا تَصِحُّوا(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الصائمون، إن الله تعالى شرع العبادات وجعل لها غايتين تتعلقان بالعابد: غاية أخروية، وغاية دنيوية، وكلتا الغايتين تعود على الإنسان بالفائدة: الآجلة والعاجلة.

فالغاية الأخروية للعبادة: الحصول على الأجور الموصلة إلى رضوان الله تعالى

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ١٦/رمضان/١٤٣٩هـ، ١/٦/٢٠١٨م.

ودخول الجنة، والنجاة من النار.

والغاية الدنيوية: إصلاح الروح والبدن، حتى تزكو نفس العابد، فيقوم بالغاية التي خُلق لأجلها، فيؤدي حق الله، ويؤدي حقوق خلق الله عليه.

فمن تلك العبادات العظيمة التي شرعها الله تعالى لغايات جسيمة: عبادة الصوم؛ فإن للصوم ثوابًا عظيمًا في الآخرة، فقد تكفل الله تعالى بأجر فاعله من غير حدٍّ لذلك الأجر، فقال رسول الله ﷺ: (قال الله عز وجل: كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به)(١).

ومما يدل على عظم أجر الصيام ومنزلة أهله عند الله تعالى: أنه سبحانه جعل بابًا خاصًا من أبواب الجنة الثمانية للصائمين، فقال النبي ﷺ: (إن في الجنة بابًا يقال له: الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أُغلق فلم يدخل منه أحد)(٢).

والغاية الأخروية للصيام هي التي ينبغي أن نراعيها، ونجعلها دافعنا الأساس للإقبال على هذه العبادة الشريفة.

غير أن الصيام يعطي أهله فائدة أخرى تفضلاً من الله وكرمًا منه، وهي الفائدة البدنية والنفسية.

وقد اشتهر على الألسنة خبر: (صوموا تصحوا)(٣). وهو وإن كان ضعيف

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الطبراني وأبو نعيم وابن عدي، وضعفه العراقي والشوكاني والألباني، وبالغ الصاغاني فحكم عليه بالوضع، وقال الهيثمي: "رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات". وينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (١/ ٤٢٠).

الإسناد إلا أن معناه صحيح؛ فإن الصيام له فوائد صحية عديدة، إذا صامه الإنسان على الطريقة الصحيحة، وليس عنده أمراض أو أحوال يضر معها الصيام.

أيها المسلمون، كثيراً ما يتكلم الخطباء والمحاضرون والدعاة عن الصيام من ناحية دينية، مبيِّنين حُكم الصيام وأحكامه وآدابه وشروطه، وحِكمه وثمراته.ولكن هناك جانب آخر عن الصيام يتحدث عنه بعمقٍ أطباء البدن، وأطباء النفس، فالصيام كما له فوائد أخروية له فوائد دنيوية كذلك. ولعل ذلك يستفاد من عموم بعض النصوص في بيان خيرية الصيام ونفعه من غير تقييد بالفائدة الأخروية فحسب. كقوله تعالى:﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:١٨٤]. فهو خير دينًا ودنيا.وقول رسول الله ﷺ لأبي أمامة رضي الله عنه حين جاءه فقال: يا رسول الله، مرني بعمل.قال: (عليك بالصوم؛ فإنه لا عدل له).قلت: يا رسول الله، مرني بعمل.قال: (عليك بالصوم؛ فإنه لا عدل له). قلت: يا رسول الله، مرني بعمل.قال: عليك بالصوم؛ فإنه لا مثل له)[١]. **وفي رواية** للنسائي: مرني بأمر ينفعني الله به.فقال: (عليك بالصوم؛ فإنه لا عدل له). وهذا يمكن أن يشمل النفع الديني والدنيوي، والله أعلم.

أيها الأحباب الفضلاء، إن الأطباء بعد دراسات وأبحاث قاموا بها وحالات مرضية عالجوها وصلوا إلى نتيجة مهمة ألا وهي: أن الجسم بحاجة شديدة إلى ممارسة الصيام، فقد" ثبت أن الصيام ظاهرة طبيعية يجب للجسم أن يمارسها حتى يتمكن من أداء وظائفه الحيوية بكفاءة، وأنه ضروري جداً لصحة الإنسان، تمامًا كالأكل والتنفس والحركة والنوم، فكما يعاني الإنسان بل يمرض إذا حُرم من النوم أو الطعام لفترات طويلة، فإنه كذلك لا بد أن يصاب بسوء في جسمه لو امتنع عن الصيام"[٢].

---

(١) رواه النسائي وابن خزيمة، وهو صحيح.

(٢) أسباب الشفاء من الأسقام والأهواء (ص:١٩).

وهذا في حق من لم يؤدِ به الصيام إلى الضرر لمرض فيه؛ ولهذا عذر الله المريض من الصيام فقال: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

عباد الله، إننا في رمضان نؤدي عبادة الصيام لمدة شهر كامل من السنة، وذلك يمثل إجازة للراحة لجهازنا الهضمي. ومن المتعارف عليه في واقع حياتنا أن الشركات والمؤسسات العامة والخاصة قد تعودت على أن تعطي موظفيها إجازة سنوية من شهر إلى شهرين، ومن غايات ذلك: إعطاؤهم فرصة زمنية للتخفيف من وطأة العمل وهمومه؛ حتى يجددوا نشاطهم في تلك الإجازة ليعودوا إلى العمل بحيوية وجِد.

وجهازنا الهضمي موظف نشط يعمل في أجسامنا ليل نهار، فهو يحتاج إلى إجازة أيضًا؛ فلذلك كان شهر رمضان إجازةَ العام لهذا الجهاز حتى يستريح، ليعود بعد ذلك إلى عمله بنشاط.

لكن هذا لا يتحقق إلا إن صام الإنسان صومًا صحيحًا؛ بحيث يقلل من الطعام والشراب في الليل، أما إذا أكثر من ذلك، وسامَ نفسَه في مراتع شهواتها التي تطلبها فإنه لم يعط لجهازه الهضمي إجازة حتى في رمضان!

أيها الصائمون، لقد ذكر الأطباء فوائد صحية عديدة للصيام، خصوصًا صيام رمضان، ولم يكن هؤلاء الأطباء من المسلمين فقط، بل ذكر ذلك أطباء كثر من غير المسلمين. بل حتى الأطباء والحكماء القدامى أمثال: سقراط وأفلاطون وأرسطو وجالينوس، فقد أكدوا أن الصيام هو الطريق الطبيعي للشفاء من الأمراض[(١)].

ونحن في الإسلام- ولله الحمد- لا نعرف الصيام في رمضان فحسب، بل الصيام

---

(١) روائع الإعجاز الطبي في القرآن والسنة (ص:٢٤).

مشروع لنا -نحن المسلمين- ومستحب طوال العام.ففي الأسبوع يستحب صيام الاثنين والخميس، وفي الشهر يستحب صيام ثلاثة أيام، وفي السنة يستحب صيام ست أيام من شوال، ويوم عرفة، ويوم عاشوراء، والإكثار من الصيام في محرم وشعبان، كما يستحب صيام يوم وإفطار يوم كغاية قصوى اتباعًا لسنة النبي ﷺ.

فلذلك تظل صحة المسلم متجددة بالصيام؛ لأن الجسم إذا بقي مستهلكًا للطعام خاصة من يستطيع أن يأكل ما يشاء بالقدر الذي يريد؛ فإن لذلك أضراراً كثيرة على بدنه.

لقد ذكر الأطباء فوائد صحية كثيرة للصوم، **فمنها:**

أنه "يساعد الجسم على القيام بعملية الهدم التي يتخلص فيها من الخلايا القديمة وكذلك الخلايا الزائدة عن حاجته"(١).

والصيام خير فرصة لخفض نسبة السكر في الدم إلى أدنى معدلاتها، وعلى هذا فإن الصيام يعطي غدة البنكرياس فرصة رائعة للراحة، فالبنكرياس يفرز الأنسولين الذي يحول السكر إلى مواد نشوية ودهنية تخزن في الأنسجة، فإذا زاد الطعام عن كمية الأنسولين المفرزة فإن البنكرياس يصاب بالإرهاق والإعياء، ثم أخيراً يعجز عن القيام بوظيفته، فيتراكم السكر في الدم وتزيد معدلاته بالتدريج حتى يظهر مرض السكر"(٢).

ومن فوائد الصيام الصحية: أنه أحسن علاج لمن يعانون من مرض السمنة وثقل

---

(١) موسوعة العلاج بالأعشاب (ص:١٣).

(٢) أسباب الشفاء من الأسقام والأهواء (ص:٢٢).

الوزن، فهو " أقدر طبيب تخسيس وأرخصهم على الإطلاق؛ فإن الصيام يؤدي حتمًا إلى إنقاص الوزن، بشرط أن يصاحبه اعتدال في كمية الطعام في وقت الإفطار، وألا يتخم الإنسان معدته بالطعام والشراب بعد الصيام، لقد كان رسول الله ﷺ يبدأ إفطاره بعدد من التمرات لا غير، أو بقليل من الماء، ثم يقوم إلى الصلاة، وهذا الهدي هو خير هدي لمن صام عن الطعام والشراب ساعات طوالاً، فالسكر الموجود في التمر يشعر الإنسان بالشبع؛ لأنه يمتص بسرعة إلى الدم، وفي نفس الوقت يعطي الجسم الطاقة اللازمة لمزاولة نشاطه المعتاد"(١).والإنسان حينما يبدأ الصيام" تبدأ الخلايا الضعيفة والمريضة أو المتضررة في الجسم لتكوِّن غذاءً لهذا الجسم حسب قاعدة: (الأضعف سيكون غذاءً للأقوى). وسوف يمارس الجسم عملية الهضم الآلي للمواد المخزنة على شكل شحوم ضارة، وسوف يبدأ بالتهام النفايات السامة والأنسجة المتضررة ويزيل هذه السموم"(٢).

ومن فوائد الصيام الصحية: أنه "يفيد في علاج الأمراض الجلدية والسبب في ذلك أنه يقلل نسبة الماء في الدم فتقل نسبته بالتالي في الجلد، **مما يعمل على:**

- زيادة مناعة الجلد ومقاومة الميكروبات والأمراض المعدية الجرثومية.

- التقليل من حدة الأمراض الجلدية التي تنتشر في مساحات كبيرة في الجسم مثل مرض الصدفية.

- تخفيف أمراض الحساسية والحد من مشاكل البشرة الدهنية.

- مع الصيام تقل إفرازات الأمعاء للسموم وتتناقص نسبة التخمر الذي يسبب

---

(١) أسباب الشفاء من الأسقام والأهواء (ص:٢٢).

(٢) روائع الإعجاز الطبي في القرآن والسنة (ص:٢٦).

دمامل وبثوراً مستمرة"[١].

ومن فوائد الصيام الصحية: " أنه يساعد على شفاء آلام الظهر والعمود الفقري والرقبة. وقد أوضحت دراسة نرويجية أن الصوم علاج ناجع لالتهاب المفاصل بشرط أن يستمر الصوم لمدة أربعة أسابيع "[٢].

وتأملوا - إخوة الإسلام- إلى هذا التحديد: أربعة أسابيع!! يعني: شهراً كاملاً كرمضان.

إن آلام المفاصل مرض يتفاقم مع مرور الوقت، فتنتفخ الأجزاء المصابة به، ويرافق الانتفاخَ آلام مبرِّحة... وقد ثبت بالتجارب العلمية في بلاد روسيا أنه يمكن للصيام أن يكون علاجًا حاسمًا لهذا المرض، وقد أرجعوا هذا إلى أن الصيام يخلص الجسم تمامًا من النفايات والمواد السامة، وذلك بصيام متتابع لا تقل مدته عن ثلاثة أسابيع، وفي هذه الحالة فإن الجراثيم التي تسبب هذا المرض تكون جزءاً مما يتخلص منه الجسم أثناء الصيام، وقد أجريت التجارب على مجموعة من المرضى وأثبتت النتائج نجاحًا مبهراً[٣].

أيها الإخوة الفضلاء، ومن فوائد الصيام الصحية: أنه يؤدي إلى نقص مادة الكوليسترول. فقد أكد كثير من الباحثين الطبيين وأغلبهم غير مسلمين أن الصوم لكونه ينقص من الدهون في الجسم فإنه يؤدي إلى نقص مادة "الكوليسترول". والكوليسترول" مادة تترسب على جدار الشرايين، وبزيادة معدلاتها مع زيادة الدهون

---

(١) روائع الإعجاز الطبي في القرآن والسنة (ص:٢٨).
(٢) موسوعة العلاج بالأعشاب (ص:١٦).
(٣) أسباب الشفاء من الأسقام والأهواء (ص:٢٥).

في الجسم تؤدي إلى تصلب الشرايين، كما تسبب تجلط الدم في شرايين القلب والمخ[١].

ومن فوائد الصيام الصحية: أنه "أفضل سلاح لاستئصال المواد السامة من الجسم؛ فإن الإفطار على التمر المقاوم للسموم هو بحق علاج متكامل للضعف والوهن الناتج من تراكم المواد السامة والمعادن الثقيلة في خلايا الجسم"[٢].

"**يقول** أحد الأطباء: يدخل إلى جسم كل واحد منا في فترة حياته من الماء الذي يشربه فقط أكثر من مئتي كيلو غرام من المعادن والمواد السامة!! وكل واحد منا يستهلك في الهواء الذي يستنشقه عدة كيلوغرامات من المواد السامة والملوثة مثل: أكاسيد الكربون والرصاص والكبريت"[٣].

وهذه السموم تنعكس سلباً على جسد الإنسان، وقد تكون سببًا لكثير من الأمراض، والعلاج لهذا هو استخدام سلاح الصوم الذي يقوم بصيانة هذه الخلايا وتنظيفها. والتنظيف المستمر للخلايا باستخدام الصيام يؤدي إلى إطالة عمر هذه الخلايا وبالتالي تأخر الشيخوخة لدى من ينتظم في الصيام. حتى إن حاجة الجسم من البروتين تخف خلال الصيام إلى الخُمس! وهذا ما يعطي قدراً من الراحة للخلايا[٤].

ومن فوائد الصيام على صحة البدن كذلك: أنه "وسيلة جيدة لعلاج الربو وأمراض الجهاز التنفسي"، وعلاج للأمراض القلبية وتصلب الشرايين، وعلاج لأمراض الكبد مهما كان نوعها، فقد أثبت الصوم قدرته على علاجها بدون آثار سلبية،

---

(١) أسباب الشفاء من الأسقام والأهواء (ص:٢٥).

(٢) روائع الإعجاز الطبي في القرآن والسنة (ص:١٩).

(٣) روائع الإعجاز الطبي في القرآن والسنة (ص:١٩).

(٤) روائع الإعجاز الطبي في القرآن والسنة (ص:٢٧،٢٤).

وهو وقاية من مرض الحصى الكلوية، وعلاج الأمراض للسرطان[١].

بل إن مرضى السرطان الذين يصومون ثلاثة أيام قبل خضوعهم للعلاج الكيميائي يساعد صيامهم على حماية خلايا الجهاز المناعي من التلف الذي يسببه العلاج.

ومما ذكره الأطباء أيضًا: أن الصوم يعتبر السلاح الأول في الطب الوقائي، فهو يحسن أداء أجهزة الدفاع لدى الجسم ويقوّي نظام المناعة، ويزيل عن الجسد المواد الضارة[٢].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه؛ إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) روائع الإعجاز الطبي في القرآن والسنة (ص:٢٧، ٢٤).

(٢) روائع الإعجاز الطبي في القرآن والسنة (ص:٢٩، ٢٨).

الخطبة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد.

أيها المسلمون، كما أن للصيام فوائد صحية على البدن، فإن له فوائد صحية كذلك على النفس يذكرها أطباء النفس والمتخصصون في دراسة علم النفس.

فالصيام "علاج للاضطرابات النفسية القوية مثل الفصام، حيث يقدم الصوم للدماغ وخلايا المخ استراحة جيدة، وبنفس الوقت يقوم بتطهير خلايا الجسم من السموم، وهذا ينعكس إيجابياً على استقرار الوضع النفسي لدى الصائم.حتى إن مدير وحدة الصوم في معهد موسكو النفسي-قد عالج أكثر من سبعة آلاف مريض نفسي-باستخدام الصوم، حيث استجاب هؤلاء المرضى لدواء الصوم فيما فشلت وسائل العلاج الأخرى، وكانت معظم النتائج مبهرة وناجحة! واعتبر أن الصوم هو الدواء الناجع لكثير من الأمراض النفسية المزمنة مثل مرض الفصام والاكتئاب والقلق والإحباط.

وقد أكدت إحدى المجلات الطبية اليابانية في دراسة لها أن الصيام يحسِّن قدرتنا على تحمل الإجهادات وعلى مواجهة المصاعب الحياتية، بالإضافة للقدرة على مواجهة الإحباط المتكرر–وما أحوجنا في هذا العصر-المليء بالإحباط أن نجد العلاج الفعال لمواجهة هذا الخطر!- كما أن الصوم يحسن النوم ويهدّئ الحالة النفسية"[1].

(١) روائع الإعجاز الطبي في القرآن والسنة (ص:٢٥).

ومن فوائد الصيام على صحة النفس: أنه ينمي قدرة الإنسان على التحكم في الذات ويدربه على ترك عادات سيئة ويمنحه الفرصة على اكتساب ضوابط جديدة في السلوك تنعكس إيجابيًا على شخصيته، وهناك قانون نفسي يقول: (كثرة التدرب على سلوك جديد يؤدي إلى ثباته).

ومن فوائد الصيام النفسية: أنه يعلمنا أن نتجاوز أنانية الذات، فنفكر في الآخرين من الفقراء والمحتاجين، وذلك عندما نحس بآلام الجوع وتعب فَقْد الحاجة، فنذكر غيرنا ممن يعانيها طوال السنة. وهذا يفيد في ضبط الرغبة، ويدعو إلى التضامن الاجتماعي، فيعمل ذلك على إنماء شخصية الإنسان وتكاملها لتكون على أجمل حالاتها في الصحة الروحية والعقلية، والجسدية والنفسية.

أيها الإخوة الفضلاء، ومن فوائد الصيام النفسية: أنه يقلل من النزعة الاستهلاكية التي أصبحت هي السائدة في نمط العيش الحديث، فلقد أشار بعض الأطباء النفسيين إلى سلبية خطيرة تنخر نفسية الإنسان تتمثل في طغيان رغبات التملك والاستهلاك المصحوبة بالقلق النفسي. ومن منظور نفسي أكدت بعض الأبحاث أن ارتفاع معدلات الاكتئاب يتناسب مع ارتفاع الاختيارات الاستهلاكية وتعددها، وعدم قدرة الناس على ضبط رغباتهم وكبحها؛ ولهذا نصحت الكثير من الأبحاث بالتدرب على كبح الشهوات الغريزية والسيطرة على الرغبات عن طريق الصوم.

ومن فوائد الصيام النفسية: أنه برنامج ارتقائي يعين على ضبط نوازع الشر داخل الإنسان؛ ولهذا أوصى رسول الله ﷺ الصائم بتجنب أخلاق سيئة، ولزوم أخلاق حسنة أثناء صيامه؛ **فعن** أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (قال الله عز وجل: كل عمل ابن آدم له، إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به. والصيام جُنَّة، فإذا كان

يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إني صائم إني صائم) (١).

وقال عليه الصلاة والسلام: (ليس الصيام من الأكل والشرب، إنما الصيام من اللغو والرفث، فإن سابك أحد أو جهل عليك فقل: إني صائم إني صائم)(٢).

وقال: (رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش)(٣).

ومن الجدير بالذكر أنه أُنشئت مراكز كثيرة في دول متعددة كأمريكا والصين وروسيا وكندا وغيرها، منطلقة من فكرة إثارة الانتباه إلى فائدة ضبط الشهوات والتحكم بها عن طريق الصوم.

بل وألِّفت مئات الكتب في علم النفس من مؤلفين غير مسلمين تحث على استخدام الصوم علاجًا نفسيًا.

أيها المسلمون، وبعد هذا العرض لفوائد الصيام البدنية والنفسية كما ذكر الأطباء من المسلمين وغير المسلمين **علينا:**

أولاً: أن نحمد الله تعالى على نعمة الإسلام، هذا الدين العظيم الذي تظهر روائعه للعالم يومًا بعد يوم، فقد بهر غير المسلمين على اختلاف تخصصاتهم بما فيه من التشريعات التي تشهد بصحتها أبحاثهم ودراستهم العلمية في مختلف المجالات.

وثانيًا: علينا أن نشكر الله تعالى على نعمة الصيام الذي شرعه ربنا لنا من أجل

(١) رواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما، وهو صحيح.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الحاكم وابن ماجه والنسائي، وهو حسن.

مصلحتنا في الدنيا والآخرة.

وثالثًا: علينا اتباع الهدي الشرعي الصحيح في عبادة الصيام، فنعتدل في تناول الغذاء في ليالي الصيام؛ لأن ذلك هو الطريق الصحيح للحصول على تلك الفوائد الصحية السالف ذكرها.

ورابعًا: علينا أن لا نجعل هذه الفوائد الصحية هي غايتنا من الإقبال على الصيام، بل نجعل غايتنا الكبرى القيام بعبادة الله تعالى ورجاء ثوابه وغفرانه، وتلك الفوائد الطبية جوائز معجلة قبل الجائزة الكبرى يوم القيامة.

هذا وصلوا وسلموا على خير البشرية...

عَشرُ الخير والمسابقة(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الصائمون، إن الزمان يمضي بلا وقوف، ويسرع دون بطء، ويذهب من غير عودة. والعاقل من اعتبر بسير زمانه وإسراع أوانه، فكشف عن عينيه غشاوة الغفلة، وكسر عن قدميه أغلال المعصية، وأزاح عن حياته رداء الكسل، فنظر إلى طريق الاستقامة، فارتدى ثوب العزم، وأطلق رجليه في ذلك الطريق؛ سباقًا إلى الخيرات،

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ٢٣/رمضان/١٤٣٩هـ، ٨/٦/٢٠١٨م.

واقتناصًا لنفائس الأوقات.

إن الحُذّاق من التجار لا تضيع منهم مواسم الربح الوفير؛ فلذلك يظلون ينتظرون تلك المواسم، فإذا حضرت حرصوا على تحصيل أعلى الأرباح فيها.

ألا وإن رمضان موسم العام لتجار الآخرة، الذين يرجون فيه تجارة عند الله لا تبور، ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور.

عباد الله، لقد مضى من موسم رمضان ثلثاه وتبقى ثلثه وهو خير أثلاثه، وأعظمها خيراً وأكثرها غنيمة.

فيا من فرّط فيما مضى- اغتنم ما بقي من رمضان؛ فأمامك متسع من الوقت لتعويض ما فات من الأجر، ومحو ما سبق من الوزر.

ويا من أبطأ في ثلثي شهره فهذا ثلثه الأخير يفتح مضمار السباق لك، فسابق؛ فلعلك أن تسبق غيرك؛ فليست العبرة بحسن البداءة، بل العبرة بحسن الانتهاء.

ويا من سابق وجدّ واجتهد في الثلثين الماضيين استمرْ وضاعفْ اجتهادك، وإياك والفتور؛ فإنما العبرة بالخواتيم، وإن الخير فيما بقي أعظم من الخير الذي قد سلف، والسابق من حاز قصب السبق في نهاية المضمار، وليس من تقدم سواه في أوله.

أيها المسلمون، إن الاستمرار في الطاعة هو ديدن المتقين، الراغبين في نيل الدرجات العلى، الذين يأخذون الأمر بعزم، ويقبلون على الخير بجِد في كل الأوقات، فكيف في أزمنة المضاعفة والبركة.

فلذلك هم مسابقون إلى الخيرات، منتهزون فرص الأعمال الصالحات التي لها مزية في الزمان أو المكان.

وقد حَداهم إلى هذه المسابقة أمرُ ربهم القائل: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران:١٣٣]. فالجنة غايتهم التي يرجون، وإلى منازلها العالية يسعون، وإلى رضوان الله فيها يعملون.

فإن من أراد الدار الآخرة لم تلهه الدنيا وأشغالها، ولم يحبسه عن ذلك الهدف لهوُ الحياة وشهواتها، ولم يقعده عن الإسراع في طريقها فتور ولا كسل، ولا قلة رغبة في أعمالها ووسائل السعادة فيها.

ومن تفكر فيما ينتظر العصاةَ بعد الدنيا لم ينم في حضن اللهو، ولم يستلن مهاد الغفلة، ولم يعش إلا على كف الحذر واليقظة، حتى يستقر في الجنة. قال رسول الله ﷺ: (من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل)(١).

أيها الأحباب الكرام، لقد أطلت علينا العشر الأواخر من شرفات رمضان تدعونا إلى النظر إليها والاعتناء بها. فهي عشر الخيرات والبركات، وزمن خصب بالطاعات والقربات.

إنها عشر السابقين التي تعرف فيها عزائم المجدِّين، وإقبال المتقين، وفيها يُعرف طلاب الآخرة من طلاب الدنيا، وأهل الاجتهاد من أهل الكسل.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل، وأيقظ أهله، وجدّ وشد المئزر)(٢).

وعنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في

---

(١) رواه الترمذي، وهو صحيح.

(٢) متفق عليه.

غيره)[١].

إن هذه العشر المباركة هي عشر العبادة، والعكوفِ في محراب الطاعة، والانشغال بالخالق عن الخلائق.

إنها عشر الأُنس بالله، وتفريغ القلب والفكر والوقت من كل شغل إلا الشغل برب العالمين، تقربًا إليه، وإقبالاً عليه.

إنها عشر هجر الدنيا التي عمر حبها القلوب، وأعمى الشغف بها العيون، وقطع وصالها الطريق إلى الودود، وخرّب تعميرُها البناءَ للآخرة.

فيا من شغلته الأيام والليالي بحاجات الدنيا طُوال عامه، تفرَّغْ من سَنتك هذه الأيام والليالي لتعمرها بالطاعة الخالصة الكثيرة؛ لتستدرك بها ما فات، وتسقط عن كاهلك ثقل السيئات، وتملأ صحيفة أعمالك بالحسنات، وتصقل قلبك من أدران الشهوات، وترقّي روحك إلى المنازل العاليات.

عن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: (يقول الله تعالى: ابنَ آدم، تفرّغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسدّ فقرك)[٢].

أيها المسلمون، إن هذه العشر الأخيرة من رمضان قد امتازت على غيرها بمزايا حسان، جعلتها خير الليالي، وأيامها من خير الأيام.

فمن مزايا هذه العشر: استحباب الاعتكاف فيها، حبسًا للنفس على عبادة الله تعالى زمنًا معينًا في مسجد جامع يتفرغ فيه العبد المعتكف للتقرب إلى الله سبحانه.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم، وهو صحيح.

والاعتكاف سنة من سنن رسول الله ﷺ؛ فعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ: (أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله، ثم اعتكف أزواجه من بعده)(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كان النبي ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يومًا)(٢).حرصًا منه ﷺ على إدراك الخير، وختم العمر بكثرة الطاعة والعبادة.

إن الاعتكاف–معشر المسلمين– عبادة مقصودها تفرغ القلب لله، وشغل الوقت بكثرة التقرب إليه.

قال ابن القيم: "لما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى متوقفاً على جمعيته على الله ولم شعثه بإقباله بالكلية على الله تعالى؛ فإن شعث القلب لا يلمه إلا الإقبال على الله تعالى، وكان فضول الطعام والشراب وفضول مخالطة الأنام وفضول الكلام وفضول المنام مما يزيده شعثًا، ويشتته في كل وادٍ ويقطعه عن سيره إلى الله تعالى، أو يضعفه أو يعوقه ويوقفه؛ اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده أن شرع لهم من الصوم ما يذهب فضول الطعام والشراب ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوقة له عن سيره إلى الله تعالى ، وشرعه بقدر المصلحة بحيث ينتفع به العبد في دنياه وأخراه ولا يضره ولا يقطعه عن مصالحه العاجلة والآجلة.وشرع لهم الاعتكاف الذي مقصوده وروحه عكوف القلب على الله تعالى ، وجمعيته عليه والخلوة به والانقطاع عن الاشتغال بالخلق والاشتغال به وحده سبحانه بحيث يصير ذكره وحبه والإقبال

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري.

بدلها ، ويصير الهم كله به والخطرات كلها بذكره والتفكر في تحصيل مراضيه وما يقرب منه، فيصير أنسه بالله بدلاً عن أنسه بالخلق، فيعده بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور، حين لا أنيس له ولا ما يفرح به سواه، فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم "(١).

أيها الإخوة الفضلاء، إن على المعتكف أن يشغل وقته بكثرة العبادة، ويملأ فراغه بأنواع الطاعة؛ ليحظى بتنوع التقرب، ويسلم من إقعاد السأم والفتور.

فما أحسن أن يقتطع من وقته نصيبًا وافراً لقراءة القرآن، قراءة يحضرها التدبر وطلبُ العمل بما تدعو إليه الآيات.

ويخص أيضًا صلاة النافلة بجزء من الوقت في ليل اعتكافه ونهاره، فقد كان بعض الصالحين يصلي في اليوم والليلة ثلاثمائة ركعة(٢).

كما على المعتكف أن يكثر من ذكر الله تعالى؛ من تهليل وتحميد، وتكبير وتسبيح، وحوقلة (قول: لا حول ولا قوة إلا بالله)، وحسبلة (قول: حسبي الله ونعم الوكيل).

ولا ينسى أن يجعل حظًا كبيراً من الوقت للدعاء والإلحاح على الله؛ فإنه قد لا يجد في أيام سنته وقتًا أصفى له من أيام الاعتكاف. وكم للإنسان من آمال يروم بلوغها، وآلام يطلب زوالها. وليكن أوفر دعائه فيما يبلغه رضوان الله وجنته، ويخلصه من عذابه وغضبه، فأما مطالب الدنيا فإنه لن ينساها.

عن عطاء رحمه الله قال: "إن مثل المعتكف مثل المُحرم ألقى نفسه بين يدي الرحمن فقال: والله لا أبرح حتى ترحمني! " (٣).

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٨٢).

(٢) كالعابد الجنيد، طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٢٦١)، صفة الصفوة (٢/ ٤١٦).

(٣) شعب الإيمان (٣/ ٤٢٦).

وما أجمل أن لا يخلو وقت المعتكف من زمن يخلو فيه بنفسه للتفكر والمحاسبة، فيتفكر في ماضيه فيصلح ما أفسد فيه، ويستغفر الله تعالى على ما اقترف في أيامه ولياليه، ويؤدي الحقوق التي عليه لأهلها. ويفكر في حاضره فإن كان على الجادّة استمر وثبت، وإن كان على غيرها عدّل سيره واستقام، ويفكر في مستقبله فيعزم على فتح صفحة بيضاء مع الله تعالى، صفحة مشرقة بالعمل الصالح، لا يقع عليها مداد الخطيئة، فإن وقع فيها في ساعة غفلة أو غلبة شهوة سارع إلى محوه.

وفي ذلك الجو المعمور بالإيمان ينبغي أن ينتقل باله إلى التأمل في قصر. هذه الحياة وذهابها بمجيء الموت الذي يرحل به من دار العمل إلى دار الحساب الذي يحاسب فيها على الصغيرة والكبيرة.

وليحذر المعتكف أن يضيع وقته الثمين في القيل والقال، والتلهي بسفاسف الأعمال، والحديث عن الناس وكثرة مخالطتهم والانشغال بهم. وليتجنب صرف وقته في التنقل بين صفحات الجوال، ومطالعة كل ما وصل إليه، وكثرة التواصل مع الآخرين؛ فإن ذلك سرقة لوقته الثمين، فإن كان لحاجة أو منفعة في وقت قصير فلا بأس.

فما أسعد معتكفًا عمر الزمان بالإسراع إلى الخير، والإبطاء عن الشر، والانشغال عن الناس برب الناس، وأبعد نفسه عن تضييع الزمان الشريف فيما لا يعود عليه بخير!

أيها الأحباب الفضلاء، ومن مزايا هذه العشر المباركة: حصول ليلة القدر فيها. هذه الليلة التي شرفها الله تعالى بنزول القرآن فيها من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، كما قال ابن عباس(١). فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:١]، وعظّم شأنها وفخّمه فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾[القدر:٢]، هذه الليلة

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٤٧).

التي جعلت العبادة فيها أفضل من العبادة في ألف شهر ليس فيها ليلة قدر، فقال: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[القدر:٣]، هذه الليلة التي يحصل فيها الاحتفال الكبير في الأرض ويحضره سكان السماء من الملائكة مع سيدهم جبريل، فيعمرون الأرض مؤمّنين على دعاء المؤمنين(١)، **قال** تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾[القدر:٤]، هذه الليلة التي يقدر الله فيها ما يكون للناس في سنتهم من الأرزاق والآجال والأعمال، كما روي ذلك عن غير واحد من السلف(٢). **قال** تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾[القدر:٤]، وقال: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾[الدخان:٤-٥].

هذه الليلة لأهل الإيمان ليلة خير وسلام، وبر وأمان، قال تعالى: ﴿سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[القدر:٥]، هذه الليلة بخيرها وبركاتها ليلة كاملة ممتدة من غروب الشمس إلى طلوع الفجر ﴿سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[القدر:٥].

هذه الليلة الموفّق من حاز فضلها وخيرها، والمحروم من حرم من ذلك، قال رسول الله ﷺ: (إن هذا الشهر قد حضركم، وفيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرمها فقد حرم الخير كله، ولا يحرم خيرها إلا محروم)(٣).

هذه الليلة من قامها بالعمل الصالح ابتغاء وجه الله، غفرت له ذنوبه السالفة، قال النبي ﷺ: (من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا، غُفر له ما تقدم من ذنبه)(٤).

فيا ربح من قام هذه الليلة، ويا لرفعة قدره عند ربه، ويا لشرفه بها يوم لقائه!

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠/١٣٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/١٦٨).

(٣) رواه ابن ماجه، وهو صحيح.

(٤) متفق عليه.

عباد الله، فعلى المسلم الحريص على خيرها أن يلتمسها ويتحراها، كما أمر رسول الله ﷺ بقوله: (التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، ليلة القدر في تاسعة تبقى في سابعة تبقى في خامسة تبقى)(١).

والخير كل الخير في قيامها في أوتار الليالي وشفعها جميعًا؛ إدراكًا لها من غير فوات، وزيادة في التقرب إلى الله تعالى في جميع تلك الأوقات بأنواع الطاعات. فقد أخفاها الله تعالى حتى يجتهد العباد في الطاعة، فمن قام جميع ليالي العشر. فقد ظفر بتلك الليلة وإن لم يعرف أية ليلة هي من تلك الليالي.

ومن العمل الصالح فيها: المداومة على الفرائض، واجتناب المناهي، وكثرة المسابقة إلى النوافل المتنوعة؛ من صلاة وتلاوة وجود وتضرع ودعاء. ومن الأدعية التي تقال فيها: ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن علمت ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: (قولي: اللّهم، إنك عفو تحب العفو فاعفُ عني)(٢).

فاحرص -أيها المسلم- على قيامها والتعبد فيها، وأجِّلْ من أجل خيرها شواغلَ دنياك إلى وقت آخر.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه؛ إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الترمذي، وهو صحيح.

الخطبة الثانية

الحمد لله الواحد الأحد، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون، إن مواسم الخيرات محكٌّ امتحان يُعرف به محبو الآخرة من محبي الدنيا، ويظهر فيها أهل الهمة العالية في طلب الجنة، وأهل العزم المتقد في طلب الحطام الفاني الذي آثروه على النفيس الباقي.

ففي هذه العشر -خاصة لياليها المباركة- يُعلم المسابق إلى الطاعة يومَ هجر دنياه وأقبل على أعمال أُخراه، فأصبح في حالة استنفار نحو العبادة ليس له شغل بسواها. فهو بين صلاة كثيرة يتنفل بها، وتلاوة طويلة يتفيأ تحت ظلال هداياتها، وأيدٍ ترفع إلى السماء دعوات إثر دعوات، وذكر على لسان لا تفتر عنه. يسابق هذا العابد الأوّاهُ ساعاتِ العشر ولحظاتها بما استطاع من العمل الصالح، لم يدع من وقته نصيبًا للعبث واللهو، ولا حظًا للفتور والوَنَى. فليله معمور بالسهر للطاعة، ونهاره مملوء بألوان العبادة، وإن كان له فيه من نوم فهو قليل، يحتسبه عند الله فيصير طاعة؛ لأنه يعينه على العبادة.

عباد الله، فشتان ما بين مَن هذه حاله في النُّسك والمسارعة، وبين من لم يجعل لهذه العشر مزية، ولا قدر لها قدرها، ولا عُرف له فيها نزوع إلى الطاعة، وهجران للمعصية. فهو ما زال على فراش الفتور مضطجعًا، وعلى ركوب صهوات الخطايا مجدًّا، وفي بحار الغفلة سابحًا، ولشهوات دنياه طالبًا حريصًا.

بعيد عن رياض الطاعة، غارق في لجج الخطيئة، أسير في قبضة الغفلة. فالمساجد لا تعرفه، والتلاوة لا تعهده، وصلاة الليل تجهله، وأما الدعاء والإلحاح فيه فلم يطرق له بابًا ولم يخطر له على بال.

لكنه ليس غائبًا، فهو بين أصدقاء الضياع حاضر، وأمام شاشات التلفاز والجوال عاكف، يتقلب من لهو إلى لهو، ومن جريرة إلى أخرى. والجميع في حصاد؛ فهو في حصاد السيئات، والصالحون في حصاد الخيرات.

فيا من كانت هذه حاله أَفِقْ مهرقًا كؤوس الفتور، واصحُ من سكر الغفلة، وعدّل سيرك المعوج، وأقبل على ربك تائبًا راغبًا في فضله عبر بوابة الطاعة والإنابة؛ فإنك ستجده بك رحيمًا، وبقدومك فرحًا، ولك مكرمًا، وعليك مسديًا فضله، وإليك سائقًا خير الدنيا والآخرة إن صدقت في الرجوع إليه.

هذا وصلوا وسلموا على خير البرية...

قاربُ نجاة في بحر اليأس (١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فَسِيلة(٢) فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها)(٣).

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ٢٠/٧/١٤٣٩هـ، ٦/٤/٢٠١٨م.

(٢) رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد وعبد بن حميد. وهو صحيح.

(٣) الفسيلة هي: النخلة الصغيرة تقطع من الأم أو تقلع من الأرض فتغرس. المعجم الوسيط (٢/٦٨٩).

ما أحسن هذا التفاؤل في هذا النص النبوي الشريف! إنه نور سطع من مشكاة النبوة ليضيء للناس طريق الفجر في حالكِ الظُّلَم.

أشرق بضيائه مرشداً الناسَ إلى استغلال فرصة الحياة ولو في آخر لحظاتها لتُستثمر فيما ينفع الأحياء، وإن لم يدرك الغارس ثمرة غرسه.

إن هذا النص الكريم -يحثك أيها المسلم- على العمل وترك الفتور والكسل، ولو كنت مشغولَ البال ذاهبَ الخيال في أمر عظيم كأمر علامات الساعة.فهو يقول لك: اعملْ وتحرك، ولا تشغلك عن العمل الأمورُ المهولة، وسارع إلى ما ينفع ولا تفكر في النتيجة والحصول على ثمرة الجهد.فلو كنتَ على بوابة القيامة ببدوِّ بعض أماراتها الكبرى كخروج الدجال وفي يدك نخلة صغيرة فاغرسها؛ فلعله أن ينتفع بها من يعيش بعدك.

عباد الله، إن هذا النص الكريم، والبيان النبوي العظيم أشرقَ على الحياة ليقول لأهلها: إن الإسلام دين إعمار وبناء، وعمل ونماء، لا يؤمن بالقعود والكسل، والفتور والانتظار، إنه دين يضخ دماء الأمل في شرايين الإنسان المشرف على نهاية الحياة، فكيف بمن لازال في عنفوان الحياة، وناصية العيش، وهو كذلك دين يبث التفاؤل في وجه المرء رغم ما يعترض طريقه من أعاصير الآلام الهوجاء، وأصوات اليأس والقنوط التي تصك سمعه في دربه تناديه: أنْ توقَّف!

هنا يحق لنا أن نفخر بديننا كل الفخر، ونسعى أن نكون ممتثلين له في واقع الحياة مهما تدثرت الدنيا بأسمال الكربات والمصائب، ونربأ بنفوسنا أن يكون مفارقو ديننا أحسنَ حالاً منا في التفاؤل والأمل.

لا شك أن واقعنا مرير، ومسيرة حياتنا يجاذبها عن مواصلة رحلة البناء جواذبُ

الأزمات المتلاحقة، والشدائد التي لا يزيدها مرور الأيام إلا عقداً إلى عقدها.ولكن هل يعني ذلك أن نضعف ونستسلم لها، ونقعد عندها، ونترك العمل الجاد لديننا ودنيانا، وننتظر قوارب الأقدار المنقِذة لتخلصنا من أمواج عيشنا المضطربة، دون أن نسعى لإنقاذ أنفسنا بما أعطانا الله من القدرات والقوى؟

يقول تعالى معلِّقًا على ما جرى في غزوة أحد من الجراح: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٣٩].

أيها الأحباب الفضلاء، إن من العقل أن لا نسمح لجحافل اليأس أن تقتحم نفوسنا فتفسدها علينا، حتى تدمر حاضرنا ومستقبلنا، فالعاقل لا ييأس مع الحياة مهما حاولت الحياة أن تقنطه من حسن ما فيها، وطِيب ما خلق الله تعالى عليها.

ينبغي أن نكون أكثر أملاً وتفاؤلاً من الكافرين الذين قد نرى من بعضهم جِدّاً واجتهاداً وتفاؤلاً وأملاً وهم في أحلك الظروف وأبأس الأحوال.ألسنا أولى بذلك منهم؛ إذ دينُنا يأمرنا بذلك؟.

أيها المسلمون، إن خيار اليأس والقعود عن العمل النافع دينًا ودنيا خيار لا يرضى به عاقل مسلم وهو يقرأ حياة رسول الله ﷺ وهو ينفخ روح الأمل والتفاؤل في نفوس أصحابه رضي الله عنهم وهم جميعًا في أشد الظروف ضراوة وبلاء، حتى يجعل من المحنة منحة، ومن البلاء نافذة متسعة يرى منها أيام النعماء الرخية.

فعن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ -وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة- قلنا له: ألا تستنصر.لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: (كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين،

وما يصده ذلك عن دينه. ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)[١].

فانظروا إلى هذه الكلمات المشرقة في جبين الأمل والتفاؤل ورياح البلاء تعصف ببناء الإيمان من كل جانب.

إنها كلمات عظيمة أودعها رسول الله ﷺ في قلب خباب رضي الله عنه الذي كان قد عذبه المشركون عذابًا شديداً. ولكنه بناءُ النفوس على الشدائد والمكاره حتى تنتصر عليها، وتستهين في سبيل الحق بآلامها حتى تبلغ آمالها.

وفي يوم الأحزاب الذي وصلت الكريهة فيه إلى هذا التعبير القرآني البديع: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[الأحزاب:١٠-١١].

يجتمع الكفار ويسيرون إلى المدينة النبوية كالبحر الهائج، ويحيطون بها من كل جانب، وتشتد برسول الله وأصحابه اللأواء، وتضيق عليهم الأحوال، ولكن مع كل ذلك انظر ماذا حدث: قال البراء: لما كان يوم الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول، فاشتكينا ذلك لرسول الله ﷺ، فجاء وأخذ المعول فقال: (بسم الله)، ثم ضرب ضربة، وقال: (الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأنظر قصورها الحمر الساعة) ، ثم ضرب الثانية فقطع آخر، فقال : (الله أكبر، أعطيت فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن) ، ثم ضرب الثالثة، فقال : (بسم الله)، فقطع بقية الحجر، فقال: (الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني

(١) رواه البخاري.

لأبصر أبواب صنعاء من مكاني)(١).

فتأملوا في هذه الكلمات المتفائلة وهمْ رضي الله عنهم في ذلك الظرف الحرج، إنها كلمات استشرافية لفتح البلدان بالإسلام وذهابِ الضيق والضعف عن المسلمين، إنه في ذلك الموقف العصيب لم يفكر بفتح الجزيرة وما حول المدينة وسائرِ بلاد العرب فحسب، بل بفتح الدنيا وهزيمة أباطرة الأرض في ذلك الزمان.

إن هذا التفاؤل العظيم الذي يبثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في درب الأمة الإسلامية درس يحث على الأمل والعمل وترك الكسل ومفارقة الاسترواح والدعة.ويدعو إلى الحركة النافعة حتى في أمور الدنيا، حيث يربي المسلم على أن يكون لبنة بناء في بنيان المجتمع، وليس معول هدم، ولا نموذج قعود وخمول.فالحياة لا تبنى بالكسالى ولا تعمر بالقاعدين، ولا تنهض بالخاملين.

إن هذا التفاؤل العظيم لدى رسولنا الكريم صلى الله عليه وآله وسلم قد سرى إلى نفوس أصحابه، فصاروا يعملون ولا يؤمنون بالفتور والكسل، ولا يميلون إلى القعود في أكناف الراحة، بل ويدْعون غيرهم إلى الجِد والحركة النافعة، حتى في أمور الدنيا.

فعن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي: ما يمنعك أن تغرس أرضك؟ فقال له أبي: أنا شيخ كبير أموت غداً.فقال له عمر: أعزم عليك لتغرسنها.فلقد رأيت عمر بن الخطاب يغرسها بيده مع أبي(٢).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إياكم والراحة؛ فإنها غفلة"(٣).

---

(١) الرحيق المختوم (ص:٢٧٧).

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة(١/ ٨).

(٣) البخلاء (٢/٧٨).

وعن الحارث بن لقيط قال: كان الرجل منا تنتج فرسه فينحرها فيقول: أنا أعيش حتى أركب هذه؟! فجاءنا كتاب عمر: أنْ أصلحوا ما رزقكم الله؛ فإن في الأمر تنفسًا(١).

وعن الحارث بن لقيط أيضًا قال: قال لي عبد الله بن سلام: إن سمعتَ بالدجال قد خرج وأنت على وَدِيَّة – نخلة صغيرة- تغرسها؛ فلا تعجل أن تصلحه؛ فإن للناس بعد ذلك عيشًا(٢).

قال الألباني رحمه الله: "ولذلك اعتبر بعض الصحابة الرجل يعمل في إصلاح أرضه عاملاً من عمال الله عز وجل، فروى البخاري في " الأدب المفرد " عن نافع بن عاصم أنه سمع عبد الله بن عمرو قال لابن أخ له خرج من الوَهْط- البستان وهي أرض عظيمة كانت لعمرو بن العاص بالطائف- : أيعمل عمالك ؟قال: لا أدري.قال: أما لو كنت ثقفيًا لعلمت ما يعمل عمالك ، ثم التفت إلينا فقال: إن الرجل إذا عمل مع عماله في داره (وقال الراوي مرة: في ماله)كان عاملاً من عمال الله عز وجل "(٣).

أيها المسلمون، إن تسليم المرء قيادَ نفسه للعجز والقنوط فشلٌ وضعف، وحمق وغَبن، وجهل وغفلة.

أفلا يدري اليائس البائس أن آثار يأسه وعجزه وبؤسه أشد عليه من صبره على مجاهدة نفسه على التفاؤل والأمل؟

فإنّ قدر الله جارٍ في الحياة على العباد، ولن يغيره اليأس، ولن يعيق حركته العجز

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، وصحح سنده الألباني.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد، وصحح سنده الألباني.

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة(١/ ٨). قال الألباني: وسنده حسن، إن شاء الله تعالى.

والفتور والانقباض وكثرة الهم والقلق.بل إن هذه الخصال تضاعف المصيبة وترهق النفس، وتُذبل البدن، وتكدِّر القلب، وتصدِّع الرأس من غير فائدة.

فدعْ-أيها الإنسان- إرادة الله تعالى تجري حيث أراد مولاك؛ فإنه يعلم وأنت لا تعلم، وما عليك إلا الصبر والرضا، والاستمرار على مسيرة حياتك المستقيمة ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

وسيرى المؤمن بعد انقشاع غبار الكرب عن آفاقه أن تدبير الله خير من تدبيره، وتقدير الله أحسن من تقديره، واختيار الله أفضل من اختياره.﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[النساء:١٩].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه؛ إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون، إن أنس بن النضر رضي الله عنه سطّر في كتاب الحياة صفحة مشرقة من صفحات العزم والجد، والكفاح والإقدام، والتفاؤل والأمل، وكان ذلك في وقت انتشار الإرجاف، وظهور أثره على القاعدين اليائسين. إنه رجل لم توهن عزيمته الصُلبة شائعةُ المصيبة، ولم يفتّ في عضده رؤيةُ من أثّرت عليهم الفاجعة حتى أقعدتهم عن الاستمرار في الإقدام.

بل حمله العزم المتألق، والروح المتقدة، والأمل الطموح إلى أن يقدِّم نموذجاً فذاً من نماذج العمل والكفاح والتفاؤل والنجاح.

ففي يوم أُحد مرَّ أنس بن النضر رضي الله عنه بقوم قد ألقوا ما بأيديهم فقال: ما تنتظرون؟ فقالوا : قُتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: ما تصنعون بالحياة بعده؟! قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال: اللّهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء- يعني: المسلمين- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء- يعني: المشركين- ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ، فقال: أين يا أبا عمر؟ فقال أنس: واهاً لريح الجنة يا سعد، إني أجده دون أُحد، ثم مضى فقاتل القوم حتى قُتل، فما عُرف، حتى عرفته أخته بعد نهاية المعركة ببنانه، وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم[١].

---

(١) الرحيق المختوم (ص:٢٣٦).

أرأيتم كيف يصنع الرجال المتفائلون العاملون المجدّون؟ ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[الأحزاب:٢٣].

أيها المسلم، اعملْ من العمل النافع ما استطعت، ولا تقعد ولا تجعل اليأس يتسلل إلى نفسك.

وفوّت على أعداء الحق رؤيتك ذابلاً غير عامل، ممسكًا عن نفع المجتمع غير باذل. فإن صانعي أزمات المسلمين من أغراضهم في هذا الكيد: أن يوقفوا المسلمين عن الإنتاج النافع لدينهم ودنياهم حتى لا يُرى مكانهم في سلّم النهضة والبناء. ومن أكثر ما يغيظهم ويؤجج حنقهم أن يروا المسلم نشيطًا متفائلاً لم تقيده الأزمات، ولم توقفه العقبات.

وإياك أن تقبل نصيحة الشيطان الخادعة إن جاءك وأنت منهمك في الإنتاج والعمل، متسلح بالتفاؤل والأمل فقال لك: إنك بارد الشعور نحو المكلومين، غافل عن أحزان المسلمين، لا تعنيك جراحاتهم وآلامهم!

وغايته من هذه النصيحة الكاذبة أن يوثق خُطاك في سجن الغم والأسى؛ ليبعدك عما أنت فيه من الخير.

أيها المسلم، اغرسْ فسائلَ العزم في داخلك، وروح المثابرة في حياتك، وتحرك لفعل ما يفيد، وانتصر على غموم الواقع ومشكلاته، واملأ الفراغ حتى لا يشغلك الفراغ بالهم والغم، فقد قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾[الشرح:٧]. وفي قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾ حل لمشكلة الفراغ التي شغلت العالم حيث لم تترك للمسلم

فراغًا في وقته؛ لأنه إما في عمل للدنيا، وإما في عمل للآخرة"(١).

عباد الله، ونحن إذ نوصي أنفسنا بالعمل النافع للدين وللدنيا فإن علينا أن لا نفكر في نتائج أعمالنا النافعة أننا سنجني ثمارها نحن في المدى القريب، بل علينا أن نغرس في نفوسنا أننا إن لم ننتفع بنتائج أفعالنا الصالحة في حياتنا فسيأتينا أجرُها إن شاء الله بعد مماتنا، وإن لم ننتفع بها في ثمرات دنيوية عاجلة فسينتفع بها غيرنا من بعدنا ونرجو الأجر عليها من ربنا.

يقول رسول الله ﷺ: (ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سُرق منه له صدقة، وما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أَكلت الطير فهو له صدقة، ولا يرزؤه -أي: ينقصه ويأخذ منه- أحدٌ إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة)(٢).

ذكر المناوي أن بعض الملوك الصالحين أخذ في إحياء أرض، وغرسِ نخل في آخر عمره، فقيل له فيه!-يعني: عابوا عليه ذلك وهو في تلك السن- فقال: ما غرسته طمعًا في إدراكه، بل حملني عليه قول الأسدي:

ليس الفتى بفتى لا يُستضاء به ولا يكون له في الأرض آثارُ

... وحكي أن كسرى خرج يومًا يتصيد فوجد شيخًا كبيراً يغرس شجر الزيتون فوقف عليه وقال له: يا هذا، أنت شيخ هرم والزيتون لا يثمر إلا بعد ثلاثين سنة، فلمَ تغرسه؟! فقال: أيها الملك، زرع لنا من قبلنا فأكلنا، فنحن نزرع لمن بعدنا فيأكل، فقال له كسرى: زه- وكانت عادة ملوك الفرس إذا قال الملك منهم هذه اللفظة أعطى ألف

---

(١) أضواء البيان (٨/٥٧٩).

(٢) رواه مسلم.

دينار- فأعطاها الرجل فقال له: أيها الملك، شجر الزيتون لا يثمر إلا في نحو ثلاثين سنة، وهذه الزيتونة قد أثمرت في وقت غراسها، فقال كسرى: زه، فأعطى ألف دينار، فقال له: أيها الملك، شجر الزيتون لا يثمر إلا في العام مرة، وهذه قد أثمرت في وقت واحد مرتين! فقال له: زه، فأعطى ألف دينار أخرى، وساق جواده مسرعًا وقال: إن أطلنا الوقوف عنده نفد ما في خزائننا[1].

هذا وصلوا وسلموا على خير البرية...

(١) فيض القدير (٣/ ٣٠).

قصة يونس عليه السلام
دروس وعبر(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، إن في قصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام عبراً وعظات، ودروسًا نافعات.ينظر المسلم فيها إلى خصال الخير من الرسل والمؤمنين بهم فيسعى إليها، ويقتدي بأهلها فيها، وينظر كذلك في خصال الشر-لمن كذب الرسل

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ١٣/١٢/١٤٣٩هـ، ٢٤/٨/٢٠١٨م.

فيحذرها، ويبتعد عن صفات أهلها.

ويتأمل فيما جرى لأهل الإيمان من العاقبة الحميدة، والجزاء الحسن، فيزداد بالطريق يقينًا، وبربِّه إيمانًا، وبالنهاية الطيبة التي تنتظره تفاؤلا.

وفيما حصل لأهل التكذيب والخطيئة يأخذ العبرة بمآل المعاصي والعصاة الذين أسرفوا ولم يرعووا، وضلوا ولم يتوبوا، مهما اتسعت دنياهم، واشتدت قواهم، وطال بهم زمن الإمهال فإن العاقبة الوخيمة كانت نهايتهم، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى.

عباد الله، من أنبياء الله تعالى الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم: يونس بن متّى عليه الصلاة والسلام، وقد سمى الله تعالى سورة من سور القرآن باسمه.

هذا النبي الكريم أرسله الله تعالى إلى أهل نينوى وهي من أرض الموصل في العراق، فدعاهم إلى توحيد الله فلم يؤمنوا، بل كذبوه واستمروا على كفرهم وعنادهم، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم، مغاضبًا لهم، ووعدهم حلول العذاب بهم، فلم ينيبوا، ولم يصبر عليهم كما أمره الله، وخرج مِن بينهم غاضبًا عليهم، ضائقًا صدره بعصيانهم، وظن أن الله لن يضيِّق عليه ويؤاخذه بهذه المخالفة. فابتلاه الله بشدة الضيق والحبس في بطن الحوت في البحر، وذلك أنه ركب سفينة في البحر مملوءة بالراكبين فاضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها، وكادوا يغرقون، فاشتوروا فيما بينهم على أن يقترعوا، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخففوا منه.فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس عليه السلام، لأمر يريده الله، فألقى نفسه في البحر.

فبعث الله عز وجل حوتًا عظيماً فالتقمه، وأمر الله تعالى الحوت أن لا يأكل له لحماً ولا يهشم له عظماً.فقضى يونس في بطنه وقتًا يعلمه الله تعالى، ثم أمر الله الحوت أن

يلقيه فألقاه في أرض خالية من الشجر والبناء، وهو ضعيف البدن، وأنبت عليه شجرة من القَرْع تظلُّه، وينتفع بها، حتى عاد إلى عافيته.

أيها المسلمون، وعَوداً إلى قوم يونس عليه السلام فإنه لما فارقهم، وتحققوا نزول العذاب الذي توعدهم به؛ قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم من تفريط وتكذيب، فعجوا إلى الله عز وجل، وصرخوا وتضرعوا إليه، وتمسكنوا بين يديه، وبكى الرجال والنساء والأطفال. فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم سببُه، ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم. فرجع يونس إليهم وكانوا مائة ألف أو يزيدون على ذلك، فآمنوا فمتعهم الله بالحياة إلى آجالهم المحتومة(١).

عباد الله، لقد ذكر الله سبحانه وتعالى قصة يونس عليه السلام في القرآن في سور: يونس، والأنبياء، والصافات، والقلم.

يقول تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنبياء:٨٧-٨٨].

والمعنى: واذكر ذا النون وهو يونس عليه السلام، والنون هو الحوت، نسب إليه لأنه التقمه، حين خرج عن قومه مغاضبًا لهم؛ إذ كان يدعوهم إلى الله فيكفرون حتى أدركه ضجر منهم فخرج عنهم، فظن أن لن يضيق الله عليه بعقوبة على هذا الفعل، فنادى في الظلمات، وهي ظلمة الليل والبحر وبطن الحوت، فنادى أن: لا إله إلا أنت

---

(١) ينظر: قصص الأنبياء، لابن كثير (١/٣٨٧)، التفسير الميسر (٦/٣)(٨/١٣٥)، فتح الباري لابن حجر (١٠/٢١٢).

سبحانك إني كنت من الظالمين. والظلم الذي اعترف به هو: كونه لم يصبر على قومه وخرج عنهم. فرحمه الله فاستجاب دعوته، فأخرجه من غم البقاء في بطن الحوت إلى البَر، وعاد إلى الحياة والأحياء. والإنجاءُ من الغموم ليس خاصًا بيونس عليه السلام بل هو كائن كذلك للمؤمنين إذا أتوا بأسبابه[١].

أيها الأحباب الكرام، في هذا المقطع البديع عظات بليغة، ودروس نافعة، **فمن ذلك:**

أن يونس عليه السلام من أنبياء الله الكرام، وما حصل من عتاب الله له وإيقاعه في الغم لا يدعو إلى تنقصه والإزراء به؛ فقد قال ﷺ: (لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى)[٢].

وقال ﷺ: (ولا أقول: إن أحداً أفضل من يونس بن متى)[٣]، وقال عليه الصلاة والسلام: (من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذَب)[٤].

"قال العلماء: هذه الأحاديث تحتمل **وجهين: أحدهما:** أنه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أنه أفضل من يونس، فلما علم ذلك قال: أنا سيد ولد آدم، ولم يقل هنا: إن يونس أفضل منه، أو من غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

والثاني: أنه ﷺ قال هذا زجراً عن أن يتخيل أحد من الجاهلين شيئًا من حطِّ مرتبة يونس ﷺ من أجل ما في القرآن العزيز من قصته، قال العلماء: وما جرى

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/ ٢٠٠)، بتصرف.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه البخاري.

ليونس ﷺ لم يحطه من النبوة مثقال ذرة"(١).

ومن عظات هذه الآيات: أهمية الصبر في الدعوة إلى الله تعالى وأنه من أسباب مراضي الله، فقد يضيقُ صدر الداعية بتصرفات الناس، ويقل احتماله لصدودهم، ولكنَّ الصبر والكظم أليق به، وبدعوته؛ لأن ذلك من آداب الدعوة، ووصول الأثر الحسن إلى قلوب المدعوين.

ومنها: أن ترك الصبر قد يكون سببًا للبلاء، وأن ابتلاء الله لعبده المؤمن وعتابه له لا يدعو إلى نقصه، وإنما هو تأديب من الله ليرقِّيَ عبده المؤمن إلى المراتب العالية؛ فإن البلاء قد يرد العبد إلى ربه، بل ربما رده إلى أفضل مما كان عليه، قال تعالى: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[النساء:١٩].

ومنها: أن الله تعالى اختص يونس بخصيصة تضاف إلى فضائله وهي أنه عبدَ الله تعالى في مكان لم يعبده فيه أحد من البشر.

ومنها: المسارعة إلى الابتهال إلى الله وقت البلاء، وفضل التضرع بين يديه والتوسل بتوحيده وتنزيهه، والاعتراف بالذنوب بين يديه تعالى، فذلك من وسائل إجابة الدعاء، وكشف الضراء.

أيها المسلمون، وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ *وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾[الصافات:١٣٩-١٤٨].

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٥/ ١٣٢).

في هذه الآيات الكريمة ذكر الله تعالى أن يونس عليه السلام من رسل الله تعالى، وأنه هرب إلى السفينة المملوءة بالراكبين، فاضطرب البحر وخاف الراكبون الغرق، فاتفقوا على تخفيف العدد الذي على متن السفينة لينجو بعضهم بهلاك آخرين، فجعلوا القرعة بينهم طريقًا إلى ذلك، فقارع يونس فخسر في القرعة فوقعت عليه، فألقى بنفسه من السفينة فابتلعه الحوت وهو آتٍ بما يلام عليه؛ لذهابه عن قومه بغير إذن الله له بذلك. فلولا أنه كان من المصلين المسبحين الداعين المعترفين بالذنب لكان بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة، لكن الله رحمه فأخرجه من بطن الحوت وهو ضعيف هزيل إلى أرض خالية وأنبت عليه شجرةَ القرع، فلما عوفيَ رجع إلى قومه داعيًا.

عباد الله، نستفيد من هذه الآيات الكريمة:

أولاً: حفظ الله لأوليائه وعباده الصالحين حتى في أوقات ابتلائهم.

ثانيًا: لم تذكر الآيات كم بقي يونس في بطن الحوت، ولم يذكره أيضًا النبي ﷺ؛ لذلك لا داعي للخوض في تحديد ذلك.

ثالثًا: بيان سعة علم الله تعالى وسمعِه وعظمة قدرته؛ فقد علم بموضع نبيه يونس وسمع دعاءه وتسبيحه وتوبته وهو في تلك الظلمات الثلاث. وبقدرته تعالى حفظ حياته وهو في تلك المهلكة، وأعاد إلى جسده رونق الحياة بعد حرِّ بطن الحوت، كما فيه بيان أن الكون كله مسخر لله تعالى يأمره بما شاء، كما أمر الحوت بالتقام يونس وحفظه ثم نبذه في العراء بعد ذلك.

رابعًا: أهمية عمل الطاعات في الشدائد، وأنها سبب نجاة منها.

خامسًا: استدل بعض العلماء بمساهمة يونس ومشاركته في الاقتراع على جواز

استعمال القرعة(١)، وذلك جائز عند الأمور المشكلة والمتساوية التي لا يوجد ترجيح لبعضها على بعض، وقد كان رسول الله ﷺ يقرع بين نسائه إذا أراد سفراً أو غزواً أيتهن خرج سهمها كانت معه(٢).

وهذا الاستدلال لجواز القرعة من قصة يونس إنما هو استدلال بأصل المسألة لا بجواز القرعة في مثالها الذي حصل؛ فإنه في شريعتنا لا يجوز إلقاء مسلم قصداً في الهلاك من أجل حياة غيره؛ فالنفوس عند الله كلها كريمة، قال بعض العلماء: " الاقتراع على إلقاء الآدمي في البحر لا يجوز، فكيف المسلم؟ فإنه لا يجوز لمن كان عاصيًا أن يُقتل، ولا يرمى به في النار والبحر؛ وإنما تجري عليه الحدود والتعزير على مقدار جنايته، وظن بعض الناس أن البحر إذا هال على القوم فاضطروا إلى تخفيف السفينة أن القرعة تضرب عليهم، فيطرح بعضهم تخفيفاً.وهذا فاسد؛ فإنها لا تخف برمي بعض الرجال، وإنما ذلك في الأموال، وإنما يصبرون على قضاء الله"(٣).

سادسًا: أن الله تعالى أكرم يونس عليه السلام عند إلقاء الحوت له إلى البر بشجرة اليقطين التي هي الدباء؛ لتكون سببًا لصحة بدنه وحمايته مما يضره. **وقد** اختيرت هذه الشجرة دون غيرها لأسباب؛ فقد أنبتها الله "فوقه لتظله وتقيه حر الشمس، وإنما خصه الله به لأنه-يعني الدباء- يجمع برد الظل، ولين اللمس، وكبر الورق، وأن الذباب لا يقربه؛ فإن لحم يونس لما خرج من البحر كان لا يحتمل الذباب"(٤)، ولأنه

---

(١) ينظر: الطرق الحكمية، لابن القيم (ص:٤١٧، ٤٢١)، بدائع الفوائد، لابن القيم (٣٦٧/٤)، البحر الرائق، لابن نجيم (١٧٣/٨)، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، لابن رشد (ص:٦١٣)، الأم، للشافعي (٣/٨)، المغني، لابن قدامة (٢٧٣/١٢).

(٢) متفق عليه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (٤٦/٧)، بتصرف.

(٤) البحر المديد، لابن عجيبة(٢٩٠/٦).

"أسرع الأشجار نباتاً وامتداداً وارتفاعاً، وأن ورقه باطنها رطبة"(١).

وقال ابن كثير: "وذكر بعضهم في القرع فوائد، منها: سرعة نباته، وتظليلُ ورقه لكبره، ونعومته، وأنه لا يقربه الذباب، وجودة أغذية ثمره، وأنه يؤكل نِيْئَاً ومطبوخاً بلبه وقشره أيضًا.

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يُحِبّ الدُّبَّاء، ويتتبعه من حَوَاشي الصَّحْفة"(٢).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/٤٣٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/٤٠).

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون، ويستمر الحديث عن قصة النبي الكريم يونس عليه السلام، فيقول الله تعالى في سورة القلم: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ* لَوْلا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[القلم:٤٨-٥٠].

في هذه الآيات الكريمة يأمر الله عز وجل نبينا محمداً ﷺ بالصبر على أذى قومه وتكذيبهم له؛ فإن الله سيحكم له عليهم، ويجعل العاقبة له ولأتباعه في الدنيا والآخرة، ونهاه سبحانه أن يكون في الغضب على قومه والعجلة عليهم كيونس عليه السلام الذي التقمه الحوت حينما غاضب قومه فخرج من بينهم من غير أن يصبر عليهم، فلما كان يونس في بطن الحوت مغمومًا مكروبًا دعا الله تعالى بالنجاة، فتداركه الله برحمته فنجاه من غمه وجعله من عباده المرسلين الصالحين.

أيها الأحباب الكرام، من هذه الآيات الكريمة نستفيد:

أن دعوة المعرضين عن الحق تحتاج إلى صبر وجَلَد، حتى تحصل ثمرة الدعوة، أو يعذر الداعية إلى ربه، وأن العجلة في قطف الثمرة لا تعين على الاستمرار، وأن الاعتدال مطلب من مطالب العبودية؛ ففي الغضب يجب أن لا يخرج المؤمن عن حدود المشروع إلى الممنوع، حتى ولو كان الغضب من أجل الله تعالى، وفي سبيله.

ومن ذلك: أن ما وجده يونس عليه السلام في نفسه من الغمِّ كان أكبر عليه مما لاقاه من المشاق والصعاب، إلى أن نجَّاه ربّه جلَّ وعلا من كلِّ ذلك.

فلما رجع يونس إلى قومه وجدهم قد آمنوا وهم جمع كبير تجاوز مائة ألف، فسلموا بذلك من عذاب الله تعالى، ورضي الله عنهم ورضي عنهم نبيهم، وهذه ميزة خاصة لهؤلاء القوم رحمهم الله، حيث لم تؤمن أمة كاملة بنبيها سواها؛ ولهذا يقول تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾[يونس:٩٨].

فما أحسن الإيمان وسيلة إلى رضوان الله، وسبيلاً إلى النجاة من المكاره، وطريقًا إلى السعادة في الدنيا والآخرة، ولله الحمد على رحمته بعباده، وحلمه عليهم؛ فإنه سبحانه لا يريد تعذيبهم، ولكنهم بذنوبهم يصلون إلى عذابه.

قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾[النساء:١٤٧].

هذا وصلوا وسلموا على خير البشرية...

مَن يرزقُنا في الرخص هو الذي يرزقُنا في الغلاء [1]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، إن الإيمان بقضاء الله وقدره ركن من أركان الإيمان لا يصح الإيمان إلا به، ولا شيء في هذا الوجود إلا وقد قدره الله في الأزل: علمًا وكتابة وخَلقًا ومشيئةً كونية.

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ١٤٣٩/١٢/٢٧هـ، ٢٠١٨/٩/٧م.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحج:٧٠].

وقال رسول الله ﷺ: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)(١).

فلا يخرج شيء في هذه الحياة من خير أو شر عن علم الله الشامل، وقدره السابق، وإرادته الكونية العامة.

والعلم متى ما صح بهذه القضية أورث صاحبه طمأنينة ويقينًا في كل أحوال حياته: خيرها وشرها، حلوها ومُرّها، وجعله متوكلاً على ربه، معلقًا جَنانه به في جلب نفعه ودفع ضره، وفي الوصول إلى آماله والتخلص من آلامه، حتى لا يكون في قلبه مكان لمخلوق يرجوه دون الله فيما يرغب، أو يخشاه فيما يرهب.

عباد الله، إن الحياة الدنيا ليست مجالاً للراحة التامة التي لا تعب فيها، ولا للسعادة الكاملة التي لا شقاء معها، ولا للفرح المستمر الذي لا يكدره حزن، ولا الصحة الوافية التي لا يهجم عليها سقم.

ليس الأمر كذلك، بل الحياة الدنيا فيها السراء والضراء، والهناء والعناء، والشدة والرخاء، والسرور والشقاء، فهي صباح ومساء، وضياء وظلماء، وابتسام ووجوم، وبهجة وهموم.

طُبعت على كدرٍ وأنت تريدُها ... صفواً من الأقذاء والأكدار
ومكلِّفُ الأيَّامِ ضدَّ طباعها ... متطلّبٌ في الماءِ جذوةَ نار

---

(١) رواه مسلم.

وإذا رجــــوتَ المســـــتحيل فـــإنما ... تبنـــي الرَّجـــاء عـــلى شـــفيرٍ هـــار

فـــالعيشُ نـــوم والمنيّـــة يقظـــة ... والمـــرءُ بيـــنهما خيـــالٌ ســـار[١]

وقال جعفر الصادق رحمه الله: "من طلب ما لم يخلق أتعب نفسه ولم يُرزق، قيل له: وما ذاك؟ قال: الراحة في الدنيا. وأخذ بعضهم هذا المعنى فقال:

تطلـــبُ الراحـــةَ في دار العنـــا ... خـاب مـن يطلـب شـيئاً لا يكـونْ"[٢]

وقال بعض الحكماء: "لا تستغرب وقوع الأكدار ما دمتَ في هذه الدار؛ فإنها ما أبرزت إلا ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها"[٣].

فيا أيها العاقل، إذا أردتَ رحيل نُزَّالِ الغموم والقلق عن بالك فتقبَّلِ الحياةَ بكل ألوانها بجميع أحوالها، ووطّن نفسك على تقلبات أيامها، وبلايا لياليها.

أيها المسلمون، إن من الأكدار التي جثمت على صدور الناس هذه الأيام: غلاءَ الأسعار، لتضاف أزمته إلى أزمات ما زالت معتكفة في محارب عيشنا بلا رحيل.

إن هذه البلية حلّتْ وجعًا على أوجاع، وغمًّا على غموم، فصادفت فقراً يتسع مداه، واضطرابًا تزداد مساحته يومًا بعد يوم، ونفوسًا مكدَّرة، وأحوالاً ضيقة، وبطالةً تبسط جناحيها على المجتمع.

فصار الإنسان الفقير حائرَ الفكر، شارد البال لا يدري ما يعمل بما قُسم له من الرزق القليل: هل يصرفه في قوته وقوت أسرته، أم في إيجار بيته، أم في حاجات زوجته

---

(١) ديوان علي بن محمد التهامي (ص:٢٧٦).

(٢) شرح الحكم العطائية (ص:٣٦).

(٣) شرح الحكم العطائية (ص:٣٦).

وأولاده، فكيف لو طرأ عليه أو على أهله مرض، أو حلّ في منزله ضيوف؟!

لقد صار غلاء الأسعار ونتائجه هو حديثَ الناس اليوم في بيوتهم ومجالسهم ولقاءاتهم وأسواقهم، وأصبحوا يفتحون آذانهم ينتظرون انخفاض أسعار العملات لتنخفض عن ذلك أسعار المواد الغذائية وغيرها من حاجات الحياة ومستلزمات العيش.

حتى غدا التبرم والضجر باديًا على الوجوه والكلمات، وقل أن يجد الإنسان في هذه الفاجعة الاقتصادية من يسلِّي أو يُطمئِن ليبعث في الناس الثقة والأمل، ويزيح عن عيونهم شبح الخوف والقلق.

أيها الأحباب الفضلاء، إن الناس حينما يتحدثون عن أسباب الغلاء كثيراً ما يذكرون الأسباب الدنيوية؛ كالأسباب السياسية والأسباب الاقتصادية مثل: الصراع، وقلة التصدير، والفساد المالي، والأمور المتعلقة بالعملة ونحو ذلك من الأسباب الحياتية.

وينسون السبب الحقيقي الذي نتج عنه هذا البلاء وكل بلاء في حياة الإنسان، فالسبب الحقيقي لغلاء الأسعار ولكل مصيبة تنزل بالعبد في كل مكان وزمان؛ هي الذنوب والمعاصي.

فالذنوب هي جالبة النقم، ورافعة النعم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾[الشورى:٣٠]. **قال** ابن القيم رحمه الله: "ومن عقوبات الذنوب: أنها تزيل النعم وتحل النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلا بسبب ذنب، ولا حلت به نقمة إلا بذنب، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا

رُفع بلاء إلا بتوبة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾[الشورى:٣٠]. وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[الأنفال:٥٣].

فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمته التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه؛ فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسبابَ رضاه بأسباب سخطه، فإذا غيّر غير عليه؛ جزاء وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد، فإن غير المعصيةَ بالطاعة غير الله عليه العقوبة بالعافية والذل بالعز، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾[الرعد:١١]، وفي بعض الآثار الإلهية عن الرب تبارك وتعالى أنه قال: وعزتي وجلالي لا يكون عبد من عبيدي على ما أحب ثم ينتقل عنه إلى ما أكره إلا انتقلت له مما يحب إلى ما يكره، ولا يكون عبد من عبيدي على ما أكره فينتقل عنه إلى ما أحب إلا انتقلت له مما يكره إلى ما يحب، **وقد أحسن القائل:**

إذا كنت في نعمة فارعَها ... فإن الذنوب تُزيل النعمْ
وحُطْها بطاعة رب العباد ... فربُّ العباد سريع النقمْ"[(١)]

وقال رسول الله ﷺ: (وإن الرجل ليُحرَم الرزقَ بالذنب يصيبه)[(٢)].

وتأملوا -عباد الله- فيما حلَّ بقوم سبأ من العقوبة وزوال النعمة، وما حلّ بأصحاب الجنة من زوال بهجة جنتهم، ألم تكن الذنوب هي سبب ذهاب رزقهم الوفير، وعطائهم الغزير؟

---

(١) الجواب الكافي (ص:٤٩).

(٢) رواه أحمد وابن ماجه وغيرهما، وهو حسن.

ألم تقرؤوا قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[النحل:١١٢].

أليست المعاصي هي سبب ذلك الجوع والخوف؟

ألم تمر عليكم- وأنتم تقرؤون القرآن الكريم- أخبارُ الأمم التي أهلكها الله تعالى، وعلمتم أن خطاياها كانت سبب هلاكها؟

قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[العنكبوت:٤٠].

أيها الفضلاء، تفكروا في هذا الحديث العظيم عن النبي الكريم ﷺ الذي يجلّي فيه الحقيقة بصورتها الكاملة؛ فيذكر أسباب البلاء وآثاره، ويشير بذلك إلى العلاج الذي تسلم الأمة إذا أخذت به من تلك الآثار السيئة.

عن عبد الله بن عمر قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم)(١).

---

(١) رواه ابن ماجه، وهو حسن.

أحبتي الكرام، إن المعاصي التي هي السبب الحقيقي لغلاء الأسعار؛ قد جاءت من كثرة التعلق بالدنيا، وقلة الرغبة في الآخرة.

ومما يدل على ذلك: أن خوف الناس وقلقهم وضجيجهم وصراخهم، وكثرة كلامهم؛ يكون حينما تحصل مصيبة دنيوية تكدر المعيشة، ولكن عندما تحل المصائب على الدين فإنه لا تُسمع تلك الأقوال الصارخة، والأعمال المستنكِرة! ولم يحزن حينها على مصيبة دين المسلمين إلا القليل من عباد الله!

وانظروا في قول عالم من علماء المسلمين قاله قبل تسعة قرون وكأنه يحكي واقعنا اليوم، يقول الإمام ابن عقيل الحنبلي المتوفى سنة: (٥١٣هـ): "من عجيب ما نقدتُ من أحوال الناس كثرةُ ما ناحوا على خراب الديار، وموت الأقارب والأسلاف، والتحسر على الأرزاق بذم الزمان وأهله، وذكر نكد العيش فيه، وقد رأوا انهدام الإسلام، وموت السنن، وظهور البدع، وارتكاب المعاصي وتقضي العمر في الفارغ الذي لا يجدي، والقبيح الذي يوبق ويؤذي، فلا أجد منهم من ناح على دينه ولا بكى على فارط عمره، ولا تأسّى على فائت دهره، وما أرى لذلك سببًا إلا قلة مبالاتهم بالأديان، وعظم الدنيا في عيونهم، ضد ما كان عليه السلف الصالح يرضون بالبلاغ، وينوحون على الدِّين"(١).

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) ذكر ابن عقيل هذا القول في كتابه " الفنون" ونقله عنه ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣/٢٢٩).

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده،

أما بعد:

أيها المسلمون، إن غلاء الأسعار مشكلة اجتماعية تحتاج إلى علاج، وهذا العلاج نوعان: علاج ديني، وعلاج دنيوي.

فما أحسنَ حال المسلمين لو أخذوا جميعًا- رعاةً ورعية- هذا العلاج؛ حتى يكشف الله ما حل بهم من مصيبة.

فأما العلاج الديني فيكون بأمور:

الأول: التوبة إلى الله تعالى من جميع الذنوب، والرجوع إليه رجوعًا صادقًا، فهذا هو الباب الأعظم الذي تخرج من خلاله كل نقمة، وتدخل منه كل نعمة.

الثاني: كثرة الاستغفار بالليل والنهار، استغفاراً صادقًا باللسان والجَنان وتصدِّقه الجوارح والأركان.

قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾[نوح:١٠-١٢].

وقال علي رضي الله عنه: "العجب ممن يهلك ومعه النجاة، قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار"، وكان يقول: "ما ألهم الله سبحانه عبداً الاستغفار وهو يريد أن يعذبه"[١].

الثالث: تحقيق تقوى الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٣١٣).

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[المائدة:٦٥].

الرابع: أداء الزكاة على من وجبت عليه زكاة كما وجبت.

الخامس: صلة الرحم.

قال رسول الله ﷺ: (من سرّه أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره فليصل رحمه)(١).

السادس: الثقة بالله، وحسن الظن به، فمن قام بحق الله فعلاً لأوامره وتركًا لزواجره فليكن على اطمئنان وثقة بأن الله معه ولن يضيعه ولن يختار له إلا ما هو خير له، وإن كره العبد المؤمن أوائل الأقدار فسيحمد عواقبها.

السابع: اليقين بأن كل شيء لا يخرج عن علم الله وقضائه وقدره، فما للإنسان والسخط من شيء قدّره الله على عباده لحِكم بالغة وغايات حميدة، ومن حِكم تلك المصائب كغلاء الأسعار: إرجاعُ الناس إلى ربهم بعد شرودهم عنه، وظهور من يلجأ إلى الله في مصيبته ممن يلجأ إلى غيره.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم:٤١].

قال بعض العلماء: "فالغلاء بارتفاع الأسعار، والرخص بانخفاضها هما من جملة الحوادث التي لا خالق لها إلا الله وحده؛ ولا يكون شيء منها إلا بمشيئته وقدرته؛ لكن هو سبحانه قد جعل بعض أفعال العباد سببًا في بعض الحوادث كما جعل قتل

---

(١) متفق عليه.

القاتل سببًا في موت المقتول، وجعل ارتفاع الأسعار قد يكون بسبب ظلم العباد، وانخفاضها قد يكون بسبب إحسان بعض الناس"(١).

الثامن: اليقين بأن الرزق بيد الله تعالى، وليس بيد أحد من خلقه، وما من مخلوق إلا قد كتب الله له رزقه المقسوم قبل أن يولد إلى هذه الحياة، ولن يستطيع أحد أن يغير ذلك المكتوب مهما فعل.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[هود:٦]، وقال: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[العنكبوت:٦٠].

وقال رسول الله ﷺ: (يا أيها الناس، اتقوا الله، وأجملوا في الطلب؛ فإن نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حَل، ودعوا ما حرم)(٢).

يذكر عن أبي حازم أن بعض الناس أتوه فقالوا له: يا أبا حازم، أما ترى قد غلا السعر! فقال: وما يُغِمُّكم من ذلك؟ إن الذي يرزقنا في الرخص هو الذي يرزقنا في الغلاء(٣).

التاسع: التوكل على الله تعالى في طلب الرزق، قال رسول الله ﷺ: (لو أنكم تتوكلون على الله تعالى حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا)(٤).

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٢٠).

(٢) رواه ابن ماجه والحاكم، وهو صحيح.

(٣) حلية الأولياء (٣/ ٢٣٩).

(٤) رواه أحمد والترمذي والحاكم، وهو صحيح.

العاشر: التفكر في رحيلنا عن هذه الدنيا، وتركنا لما فيها، ومصيرنا إلى الدار الآخرة التي لا ينفعنا هناك إلا أعمالنا الصالحة.

قال بشر بن الحارث: (إذا اهتممت لغلاء السعر فاذكر الموت؛ فإنه يذهب عنك همَّ الغلاء "[1].

أيها الأحباب الكرام، وأما الأسباب الدنيوية التي **تعالَج بها مشكلةُ الفقر فيكون بأمور:**

منها: التخفيف من التوسع في الكماليات ومظاهرِ الترف، والبعدُ عن الإسراف والتبذير.

ومنها: البعد عن كثرة استماع الأخبار المهيّجة على الخوف من الفقر وشدة الحاجة جراء غلاء الأسعار؛ فإن للشيطان في ذلك نصيبًا من نزع الثقة والاطمئنان من القلوب، وزرع الهلع والقلق.

قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٦٨].

قال بعض الصالحين: "من لم يصبر لم يظفر، وإن لإبليس وثاقينِ ما أُوثق بنو آدم بأوثق منهما: خوف الفقر، والطمع "[2].

ومنها: أن نعلم أن غلاء الأسعار ليس عندنا وحدنا، بل هو ظاهرة قد انتشرت عند غيرنا؛ في دول أكثر منا أمنًا، وأرغد عيشًا، وأحسن حالاً، فلنُسلِّ أنفسنا بالتأسي.

---

(١) حلية الأولياء (٨/٣٤٧).

(٢) حلية الأولياء (١٠/٣٢٥).

ومنها: سعي المسلمين لأن يكون لهم اقتصاد حر مستقل غير تابع لغيرهم؛ فإن أعداء الإسلام اليوم هم الذين يسيطرون على مفاصل الاقتصاد، حيث يفعلون باقتصاد المسلمين ما يريدون.

ولكننا لن نصل إلى ذلك الاقتصاد المرجو إلا إذا عدنا إلى ديننا، فرزقنا الله عند ذلك العزة والنصر والاستقلال عن التبعية لأعدائنا.

هذا وصلوا وسلموا على الهادي البشير...

حديثُ القرآن عن سيد الخلق ﷺ

الجزء الأول[(١)]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، لقد منَّ الله تعالى على آخر الأمم وخيرها بمنن كثيرة، وأسبل عليها نعمًا غزيرة فكان أعلاها منّة، وأعظمها نعمة إنزال القرآن الكريم، وبعثة النبي الهادي الأمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ١٤٣٩/١٢/٢٠هـ، ٢٠١٨/٨/٣١م.

أما القرآن فهو كلام الله الصادق، وكتابه المعجز الخالد، الذي تكفل بحفظه من كل سوء يعتريه، ومن كل شين يمكن أن يحصل فيه، فلا تحريف يصيبه ولا تبديل، ولا زيادة عليه ولا نقصان منه. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

قد احتوى هذا الكتاب العظيم الدلالةَ على كل خير، والتحذير من كل شر، فهو مصدر النور والهدى، ومنبع الشفاء من كل داء، وهو دليل الفالحين في الدنيا والدين، ومعراج الوصول إلى رب العالمين ، فمن أخذ به قاده إلى صلاح الحال، والفوز بالجنان والرضوان يوم المآل.قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[الإسراء:٩].

وأما رسول الله محمد ﷺ فهو سيد ولد آدم وأشرفهم، وأجلُّهم وأعظمهم، وخيرهم وأفضلهم، خاتم الأنبياء والمرسلين، وصاحب المقام المحمود يوم الدين، وذو الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة في الجنة، وصاحب الشفاعات المتعددة يوم القيامة، وأول من تنشق عنه الأرض، وأول من يجوز الصراط، وأول من يستفتح باب الجنة، وهو دليلنا إلى الله، وضياؤنا الذي رأينا به الحق الذي يهدينا إلى الصراط المستقيم.

عباد الله، إن القرآن الكريم قد زخر بالحديث عن أشياء كثيرة، فتعالوا بنا اليوم للنظر في حديثه عن نبينا ﷺ: كيف أخبر عنه، وماذا كان قوله العظيم فيه، وعن أي الجوانب تحدث عن نبينا الكريم؟

فحديث القرآن عن سيد الخلق لاشك أنه حديث غزير قد تناول قضايا متنوعة تتعلق برسول ﷺ.

فمن تلك القضايا:

أنه أثنى عليه ثناء كثيرا، ومدحه مدحًا وفيرا؛ فوصفه بأجمل الصفات الحميدة وأزكاها، ونعته بأحسن النعوت الكريمة وأسماها، سواء ما تعلق منها بشخصه الكريم، أم برسالته التي هدت إلى الدين القويم.

فقد وصف الله تعالى نبينا الكريم بكونه مِنَّةً منه على المؤمنين، وكونه معلمَ هداية جاء لتزكيتهم وتعليمهم، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[آل عمران:١٦٤].

ووصفه بالنور الذي يهدي إلى سبل السلامة من كل شر في الدنيا والآخرة، ويخرج متبعيه من ظلام الجهل والضلال إلى نور الهداية والعلم، فقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[المائدة:١٥-١٦].

ووصفه سبحانه بأنه شاهد على أمته بالبلاغ، ومبشر للمؤمنين به بالخير والجنة، ونذير لمن عصاه بالشر والنار، وأنه سراج ينير للناس الطريق إلى ربهم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[الأحزاب:٤٥] ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾[الأحزاب:٤٦].

وأثنى عليه بكونه آمراً بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، مُحلًّا للطيبات، محرِّمًا للخبائث والمنكرات، ميسّراً على العباد عبادة الله، ولما كان كذلك دعا الله تعالى إلى الإيمان به، وتعظيمه ونصره، وبين أن من فعل ذلك معه نال الفلاح العظيم، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف:١٥٧].

وأثنى عليه بأنه برهان منه للناس كلهم وهذا البرهان هو " الدليل القاطع للعُذْر، والحجة المزيلة للشبهة "(١)، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾[النساء:١٧٤].

ومدحه بكون رسالته رحمة للعالمين، "فمن آمن بك سَعِد ونجا، ومن لم يؤمن خاب وخسر "(٢).

فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء:١٠٧].

وأثنى عليه سبحانه بكون رسالته عامة للخلق أجمعين، وهذا أعظم لأجره، وأشهر لفضله وذكره، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[سبأ:٢٨].

وأعلى الله تعالى شأنه ثناءً ومدحًا بكونه رسوله الذي ختم به رسالات رسله، وأتم به النبوة بين عباده، فقال عز وجل: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[الأحزاب:٤٠].

قال رسول الله ﷺ: (إن مثلي ومثل الأنبياء مِن قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٤٨١).

(٢) التفسير الميسر (٦/٢١).

وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين)[١].

وأثنى عليه أيضًا بكمال الأدب في ليلة المعراج بأنه "ما مال بصره يميناً ولا شمالاً، ولا ارتفع فوق الحد الذي حدد له"[٢]، فقال تعالى:﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾[النجم:١٧].

عباد الله، ما أجمل الثناء عليه ﷺ من الله تعالى يوم وصفه بكثرة الرحمة والرأفة بأمته، وبحرصه الكبير على إيصال الخير لها، وبأنه يشق عليه ما تلقى من المكروه والعنت، فقال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨].

فلما علم الله تعالى كمال شفقة رسوله ﷺ بأمته، ونصحه الأمين لهم، جعله أولى بهم من أنفسهم، وجعل حكمه فيهم مُقَدّمًا على اختيارهم لأنفسهم[٣]، فقال سبحانه: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾[الأحزاب:٦].

وعندما كانت العبودية لله تعالى أسمى وسام للإنسان وصفه سبحانه وتعالى بها في أعلى المقامات، ففي مقام إنزال القرآن عليه قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[الفرقان:١].

وفي مقام الإسراء قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الإسراء:١].

وفي مقام الدعوة قال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[الجن:١٩].

---

(١) متفق عليه.

(٢) أيسر التفاسير للجزائري (٥/ ١٩٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٨٠).

وحينما كان ﷺ قد كمل في عبوديته، وبلغ أعلى مراتب طاعة ربه أثر ذلك على من معه من أصحابه رضي الله عنهم حينما سمعوا أقواله ورأوا أفعاله، فوصفه الله مع أولئك الأخيار من المؤمنين بالشدة على الكافرين، والرحمة بالمؤمنين ، وبكثرة العبادة، والثناء الجزيل عليه وعليهم المسطر في التوراة والإنجيل، فقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[الفتح:٢٩].

فما أعظم أن يكون ﷺ قدوة لأمته في قوله وفعله بعد هذا الثناء الصادق في وصفه، والمدح الناطق بكمال نعته؛ فلذلك قال تعالى في حقه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب:٢١].

أيها المسلمون، فما بعد هذا الثناء والمدح والوصف لنبينا وحبيبنا محمد ﷺ في القرآن إلا أن نثني عليه ونمدحه، ونصفه بما وصفه الله به، وأن نتبعه فيما دعانا إليه، ونحبه حبًا عظيمًا أكثر من حبنا لأنفسنا ووالدينا وأولادنا وأموالنا، فحبُّه دِين وربح وإيمان، ومعصيته ضلال وهلاك وخسران.

عباد الله، ومن حديث القرآن عن البشير النذير والسراج المنير ﷺ: تزكيته عليه الصلاة والسلام في أقواله وأفعاله، وصفاته وخِلاله، وتعديله فيما جاء به من الحق، ونفي كل تهمة وجهت إليه من قبل المشركين المعاندين، والمكذبين المعرضين.

فقد زكّاه الله تعالى في منهجه الذي دعا الناس إليه؛ فأخبر أن ما جاء به إلى الناس هو الحق من عنده سبحانه، وأنه الهدى الذي لا ضلال فيه أبداً، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء:١٧٠]. وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[الفتح:٢٨].

وشهد له الله تبارك وتعالى بسلامة مصدره الذي يدعو الناس به إليه، بأنه كلام الله حقًّا، ولم يأت به من قبل نفسه، أو من قول شاعر اقتبسه، أو سجع كاهن منه أخذه، أو قول شيطان التمسه، أو علم معلم أعجمي تلقاه عنه، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾[الشعراء:١٩٢-١٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾[يس:٦٩]، وقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الحاقة:٤٠-٤٣]، وقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾[التكوير:٢٥-٢٦]. وقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ. لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾[النحل:١٠٣].

وزكاه سبحانه وتعالى في عقله الذي نافَ على كل العقول زكاءً ورجاحة، وسداداً وسلامة، فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾[التكوير:٢٢].

وزكاه كذلك في خلقه الكريم، الذي بلغ في حسنه النهاية، وفي دماثته الغاية، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤].

وزكاه في خبره بأنه صدقٌ لا كذب فيه ولا خُلف، فقال: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٢٢].

وزكاه تعالى في دينه وقوله ودعوته، فما " حاد محمد ﷺ عن طريق الهداية والحق، وما خرج عن الرشاد، بل هو في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد، وليس نطقه صادرًا عن هوى نفسه"(١). فقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[النجم:١-٤].

فلما كان ﷺ معدَّلاً من عند ربه في منهجه ومصدره، ودينه وخبره، وعقله وخلقه؛ ومنطقه ونصحه، فقد شهد له تبارك وتعالى بأنه داعٍ مخلص إلى صراطه القويم، فيكون أهلاً للاتباع والطاعة، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[المؤمنون:٧٣]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾[الشورى:٥٢-٥٣].

كما عدَّله سبحانه في سلامة قصده في الدعوة، وكونه لا يدعو إلى شخصه، أو لمصلحة دنيوية لذاته، ولم يتحرك إلى دعوة الناس من قبل نفسه، وإنما بأمر ربه، ونفى عنه أن يجيء بما جاء به بكذبه وافترائه، فقال تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾[الأحزاب:٤٦]، وقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[سبأ:٤٧]، وقال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[ص:٨٦].

كما زكاه تعالى في ذات السياق كذلك بكمال أمانته في تبليغه؛ حيث لم يكتم شيئًا أُمر

---

(١) التفسير الميسر (٩/ ٣٥٠).

بإعلام الناس به بخلاً منه، فقال: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[التكوير:٢٤]، أي: ببخيل.

ومن ثَمّ حكم سبحانه بعد هذا على من لم يتبع منهجه بأنه متبع لهواه، ضال عن الحق، ظالم لنفسه، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[القصص:٥٠].

أيها المسلمون، وأمام هذه التزكية الربانية، والتعديل لنبينا من قبل رب البرية، لا يسعنا إلا طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا نعبد الله إلا بما شرع(١).

بارك الله لي ولكم بالقرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه؛ إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) الأصول الثلاثة (ص:٨).

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

أيها الأحباب الكرام، ومن حديث القرآن الكريم عن النبي العظيم ﷺ: بيان نعم الله عليه، وآلائه التي أسداها إليه، نِعم دينية، ونعم دنيوية، ونعم عاجلة، وأخرى آجلة، فكم لله عليه من نعمة عظيمة، ومنّة كريمة! زادته رفعة إلى رفعته، وسمواً إلى سموه.

فمما أنعم الله عليه به: أنه كان عليه الصلاة والسلام يتيمًا فآواه الله ورعاه، بعيداً عن العلم فعلّمه سبحانه من لدنه العلم وأعطاه، وكان فقيراً فأغناه، وما أبغضه -جلّ وعلا- بانقطاع الوحي عنه يوم انقطع ولا قلاه، ووعده سبحانه بأنه سيعطيه من أصناف الإنعام ما يبلغ به رضاه، فقال تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى *وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾[الضحى:٣-٨].

ومما أنعم عليه سبحانه به: أنه تعالى وسع صدره لتحصيل العلم وتنويره بالحكمة والمعرفة(١)، وغفر له جميع ذنوبه، وجعله سبحانه في منزلة سامية رفيعة، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[الشرح:١-٤].

ومما أنعم الله عليه به: أنه عصمه سبحانه من قدرة المبطلين على إزاغته عن طريق

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى (٣/٣٣٧).

الحق، وصرْفه عن القرآن الذي أنزله عليه، وثبته على الحق الذي أرسله به، وحال بين المشركين وما يشتهون من إضلاله، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[النساء:١١٣]، وقال: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾[الإسراء:٧٣-٧٤].

ومما أنعم عليه سبحانه به: فتحُ البلاد، وكثرة إسلام العباد، ونصرُ دينه على ما سواه من الأديان، وغفران ذنبه ما تقدم منه وما تأخر، فقال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[الفتح:١-٣]، وقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[النصر:١-٣].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه، قالت: فقلت: يا رسول الله، أراك تكثر من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه؟ فقال: خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾[النصر:١]: فتح مكة، ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[النصر:٢-٣])(١).

(١) رواه مسلم.

ومما أنعم الله عليه به: إعطاؤه الأجرَ الكثير الذي لا ينقطع؛ على ما بلّغ من الرسالة، وصبر على الأذى في طريق الدعوة، ولما أوصل من الخير إلى الأمة، فما عملنا من خير فله من ذلك نصيب من الأجر، وما تجنبنا من شر كان له كفل من الثواب، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾[القلم:٣].

عباد الله، ومما أنعم الله عليه به في الآخرة: إعطاؤه المقام المحمود يوم القيامة، والمقام المحمود، في قول أكثر أهل العلم: هو المقام الذي هو يقومه ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس؛ ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدّة ذلك اليوم(١)، قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾[الإسراء:٧٩]. **عن** أبي هريرة قال: أُتيَ رسولُ الله ﷺ يومًا بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس منها نهسة فقال: أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون بما ذاك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر. وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون وما لا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: ائتوا آدم فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً اشفع لنا إلى ربك، ألا

---

(١) تفسير الطبري (١٧/٥٢٦).

ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي، نفسي نفسي اذهبوا إلى إبراهيم ﷺ، فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم إبراهيم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، وذكر كذباته، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى ﷺ فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله فضلك الله برسالاته وبتكليمه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى ﷺ: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفسًا لم أومر بقتلها، نفسي. نفسي. اذهبوا إلى عيسى ﷺ، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله وكلمت الناس في المهد، وكلمةٌ منه ألقاها إلى مريم وروح منه، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: ﷺ: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر له ذنبًا، نفسي. نفسي. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ، فيأتوني فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدًا لربي، ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه لأحد قبلي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع)(١).

ومما أنعم الله تعالى به عليه ﷺ: أنه أعطاه الكوثر، فقال: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ

---

(١) متفق عليه.

الْكَوْثَرَ﴾[الكوثر:١]، **فعن** أنس ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسمًا فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: أنزلت علي آنفًا سورة فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾[الكوثر:١-٣]، ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير، وحوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم)(١).

أيها المسلمون، إن هذا الأنعام العظيم من الرب الكريم على النبي الأمين يدعونا إلى زيادة معرفة فضل نبينا عليه الصلاة والسلام، وعظم مكانته عند الله تعالى، وهذا يحثنا على مزيد حبه وتعظيمه، والمسارعة إلى اتباعه، والاجتهاد في طاعته، والعمل بما جاء به. وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

هذا وصلوا وسلموا على سيد الخلق أجمعين....

---

(١) متفق عليه.

حديث القرآن عن سيد الخلق ﷺ

الجزء الثاني[١]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، ما زال الحديث متصلاً بحديث القرآن الشيِّق عن سيد الخلق ﷺ، وسمعنا في الجمعة الماضية حديث القرآن عن الثناء عليه، وعن تزكية الله له، وعن إنعامه عليه.

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ٤/١/١٤٤٠هـ،١٤/٩/٢٠١٨م.

واليوم-بعون الله تعالى- سنأخذ جوانب أخرى من حديث القرآن عن نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام.

عباد الله، ومن حديث القرآن عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله: حديثه عن حماية الله له، ودفاعه عنه.

فقد حدثنا القرآن العظيم أن الله تعالى قد تكفل بحراسة رسوله، وتأييده بنصره، ومنعِ أعدائه من أن يصلوا إليه بكيد أو مكر أو خداع أو خيانة أو سوء، وقد دبروا كل ذلك، ولكن الله حال بينهم وبين ما يشتهون من بلوغ ما دبّروه إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام؟

فمن حمايته تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام كما أخبر القرآن الكريم: أنه نجاه يوم الهجرة، حينما اتفقت قريش على قتله، فأرصدت على بابه ليلاً أحد عشر رجلاً ليقتلوه قتلة رجل واحد، ولكن الله أنقذه من مكرهم؛ فقد طمس الله على أبصار أولئك المترصدين حينما خرج رسول الله عليه الصلاة والسلام مخترقًا صفوفهم حتى مضى إلى سبيله سالمًا، وسمى الله تعالى هذا الإنجاء له نصراً منه تفضل به عليه، فقال تعالى(١): ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[الأنفال:٣٠].

وقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:٤٠].

---

(١) ينظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٤).

ومـن حمايتـه لـه: أن الله كفـاه خـداع الخـادعين مـن المعاهـدين الكـافرين الـذين عاهدوه، وأيده بنصره عليهم، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال:٦٢].

ومن حمايته له: أنه كفاه خيانة الأسرى الذين أطلقهم عقب غزوة بدر، حيث لم تصل إليه يد خائن منهم أو من أقاربهم بالضرر، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال:٧١].

ومـن حمايتـه لـه ونصره إياه: أنـه لعـن مـن آذاه بـأي بـأذى، وتوعـد ذلـك المـؤذي بالعـذاب الألـيم، فقـال تعـالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾[الأحزاب:٥٧]، وقـال: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة:٦١].

أيها الأحبة الكرام، ومن حماية الله ودفاعه عن رسوله عليه الصلاة والسلام كما تحدث القرآن: أنـه كفـاه المستهزئين بـه، فـانتقم لـه منهم، قـال تعـالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾[الحجر:٩٥]، ذكر ابن إسحاق في سيرته: أن عظماء المستهزئين من قريش كانوا خمسة، فلما تمادوا في الشر، وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء، سلط الله عليهم ما كف استهزاءهم به بإصابة بعضهم بأوجاع شديدة كفّتهم عن الإيذاء، وبنزول ميتة السوء بالبقية الباقية منهم[1]، قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[الأنعام:١٠]. وهـذه الآيـة مصيبةٌ كـلَّ مستهزئ برسول الله عليه الصلاة والسلام في كل زمان ومكان.

(١) سيرة ابن هشام (١/٤٠٨).

ومن حماية الله ودفاعه عنه: أن الله جعل مبغضه وعدوه هو الأقل والأذلّ المنقطع دابره(١)، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾[الكوثر:٣]، **عن** ابن عباس رضي الله عنهما قال: "لما قدم كعب بن الأشرف مكة، قالت له قريش: أنت حَبْر أهل المدينة وسيدهم؟ قال: نعم.قالوا: ألا ترى إلى هذا الصُّنبور المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج وأهل السِّدانة وأهل السِّقاية؟ قال: أنتم خير منه.قال: فأُنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾[الكوثر: ٣]"(٢)، فذهب أولئك المستهزئون الشانئون إلى الجحيم، وخلفوا وراءهم ذكر السوء.

وكما حصل لأولئك السابقين من المستهزئين مصرع السوء، ولعنة الدنيا والآخرة حصل لأبي جهل، وأبي لهب، فعن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسولَ الله ﷺ وهو يصلي زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فَجِئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، قال: فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار، وهولاً وأجنحة! فقال رسول الله ﷺ: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضوًا) قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى، إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى، أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى، عَبْدًا إِذَا صَلَّى، أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى، أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى، أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ -يعني: أبا جهل- ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى، كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ، نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ، فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ، سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ، كَلَّا لا تُطِعْهُ﴾(٣). وفي غزوة بدر كانت نهايته البئيسة المعلومة.

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/٦٥٦).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٨/٤٦٦)، وصححه الألباني، صحيح السيرة النبوية (ص:٢٢٥).

(٣) رواه مسلم.

وقال تعالى في أبي لهب وزوجته أم جميل اللذين كانا يعاديانه ويؤذيانه: "﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾[المسد:١-٥].

قال بعض أهل العلم: "ومن سنة الله أن من لم يمكّن المؤمنون أن يعذبوه من الذين يؤذون الله ورسوله؛ فإن الله سبحانه ينتقم منه لرسوله ويكفيه إياه ...وقد كتب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر وكلاهما لم يسلم، لكن قيصر أكرم كتاب النبي ﷺ وأكرم رسوله فثبت ملكه، فيقال: إن الملك باق في ذريته إلى اليوم، وكسرى مزق كتاب رسول الله ﷺ واستهزأ برسول الله ﷺ فقتله الله بعد قليل، ومزق ملكه كل ممزق، ولم يبق للأكاسرة ملك. وهذا -والله أعلم- تحقيق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾[الكوثر:٣]، فكل من شنأه وأبغضه وعاداه فإن الله يقطع دابره، ويمحق عينه وأثره"(١).

ومن مظاهر دفاع الله عنه وتأييده له عليه الصلاة والسلام: أنه وعده بإعلاء دينه والنصر في الدنيا على أعدائه، كما وعده بالكفاية من كيد خصومه ومكرهم به، فكم قد حاولوا قتله واغتياله والله يحول بينهم وبين ذلك، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾[الحج:١٥]، وقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[الزمر:٣٦]. وكيف يستطيعون غِيلته وهو بعين الله وحفظه الذي قال له: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾[الطور:٤٨].

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَل نجد فلما قفل رسول

---

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص:١٧١).

الله ﷺ قفل معه فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس في العضاه يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة فعلق بها سيفه. قال جابر: فنمنا نومة، ثم إذا رسول الله ﷺ يدعونا فجئناه، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: (إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتًا فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله، فها هو ذا جالس). ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ(١).

وعند أحمد بسند صحيح: عن جابر بن عبد الله، قال: قاتل رسول الله ﷺ محارب خصفة بنخل، فرأوا من المسلمين غِرة، فجاء رجل منهم يقال له: غورث بن الحارث، حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: من يمنعك مني؟ قال: (الله)، فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ فقال: (من يمنعك مني؟) قال: كن كخير آخذ، قال: (أتشهد أن لا إله إلا الله؟)، قال: لا، ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله.

وعن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل منزلًا نظروا أعظم شجرة يرونها فجعلوها للنبي ﷺ فينزل تحتها، وينزل أصحابه بعد ذلك في ظل الشجر، فبينما هو نازل تحت شجرة وقد علق السيف عليها إذ جاء أعرابي فأخذ السيف من الشجرة ثم دنا من النبي ﷺ وهو نائم فأيقظه فقال: يا محمد، من يمنعك مني؟ فقال النبي ﷺ: (الله)، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[المائدة:٦٧](٢).

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الهيثمي في موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، وهو حسن.

وعن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[المائدة:٦٧]، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة فقال لهم: (يا أيها الناس، انصرفوا؛ فقد عصمني الله)(١).

بل حتى حماه تعالى من أعين المشركين الخبيثة كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾[القلم:٥١]، يعني: "لينفذونك بأبصارهم، أي: ليعينونك بأبصارهم، بمعنى: يحسدونك؛ لبغضهم إياك، لولا وقاية الله لك، وحمايته إياك منهم"(٢).

عباد الله، فانظروا إلى هذه الكفاية التامة، والحماية العامة، من كل كيد ومكر، وإضرار وفتك! فمن تولاه الله برعايته فلن يستطيع أحد أن يصيبه بمكروه لم يرده الله به، ولو اجتمع عليه كل من في الأرض، فثقوا بالله ما دمتم من أهل تقواه.

أيها المسلمون، إن دعوة رسول الله عليه الصلاة والسلام لم تُستقبل لدى المشركين بالحب والترحاب، والإقبال والانقياد، بل قوبلت بالإعراض والعناد، والصد والتكذيب والإيذاء، إلا من هداه الله فاستجاب لما جاء به النبي الكريم من الحق.

فلذلك الرفض والعداء والإيذاء والصد والإعراض عن قبول الحق كان رسول الله يغتم ويحزن، ويزداد خوفه على قومه من العقوبة، وكان هذا حرصًا منه وشفقة عليهم، ﷺ.

ولكن الله تعالى أحب لنبيه الحبيب أن يكون مطمئن النفس، مرتاح البال، خاليًا من الحزن والغم، كثير الاطمئنان والسكينة والأمان؛ فلأجل هذا:

---

(١) رواه الترمذي، وهو حسن.

(٢) تفسير ابن كثير (٨/٢٠١).

نهاه سبحانه وتعالى عن الحزن عليهم لما أدبروا عنه ولم يقبلوا عليه، وحين بقوا في كهوف الضلال دون أن يخرجوا إلى نور الإسلام، فقال تعالى: ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾[النمل:٧٠]، ﴿وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران:١٧٦].

وسلَّاه تعالى عن حزنه بأن غيره من الرسل قبله قد عانوا ما عانى، ولقوا ما لقي، فقال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾[الأنعام:٣٣-٣٤]، وقال: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾[آل عمران:١٨٤]، وبين تعالى له أن حرصه على هدايتهم، وبذله أقصى جهده في انتشالهم من ضلالهم لا يهديهم مادام قد كتب عليهم الضلال، فلا ينبغي له أن يحزن والحال هذه، قال تعالى: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[النحل:٣٧]. وأراحه من حزن عدم تصديقهم لرسالته بأن شهادة الله بصدقه تكفيه شهادة، إضافة إلى شهادة علماء أهل الكتاب الذين أسلموا، فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[الرعد:٤٣].

كما أزال الله تعالى عنه وطأة المبالغة في الحرص على إسلامهم بأن قال له: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[فاطر:٨]، وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ

نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[الكهف:٦] يعني: فلا تفعل ذلك.

ولقد كان مما يحزن رسولَ الله ﷺ ما يسمعه من المشركين من كلمات الكفر، والطعن بالقرآن، فأراحه الله من ثقل ذلك عليه فقال له: ﴿وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[يونس:٦٥]، وقال: ﴿فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[يس:٧٦]. ومن ثَم بين له أن نزول القرآن عليه كان لراحته وليس لشقائه حزنًا على قوم مكذبين معاندين فقال تعالى له: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[طه:٢].

حتى وصل التطمين والتسكين من الله تعالى لرسوله إلى نتيجة: أن عليه أن يؤدي البلاغ إلى الناس وتلك مهمته، فمن اهتدى فعائدة هدايته بالخير على نفسه، ومن ضل فليس عليه هدايته، ولا له الحزن عليه، فقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾[النمل:٩٢].

عباد الله، إن من مظاهر إيصال الله الراحة لرسوله عليه الصلاة والسلام، ورفع الحرج عنه: ما أباحه له من أصناف النساء؛ فأباح له الزواج بزوجةِ متبناه بعد أن يطلقها وتعتد، وأن يتزوج من النساء زيادة على أربع، وأن يتزوج من غير مهر ولا ولي ولا شهود إذا شاء، وأن يصير القَسم بين نسائه غير واجب عليه، بل له أن يضم إليه من يشاء منهن، ويؤخر من يشاء، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾[الأحزاب:٣٨]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ

عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾[الأحزاب:٥٠-٥١].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول: وتهب المرأة نفسها؟! فلما أنزل الله عز وجل: ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾[الأحزاب:٥١]. قلت: والله ما أرى ربك إلا يسارع لك في هواك)(١). **يعني**: "ما أرى الله إلا موجداً لما تريد بلا تأخير، منزلاً لما تحب وتختار"(٢)، و"يخفف عنك ويوسع عليك في الأمور"(٣).

وقال أيضًا لزوجاته: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾[التحريم:٥].

أيها الفضلاء، وهذا الإنعام الكبير على نبينا عليه الصلاة والسلام بإزالة كل حزن وغم عنه، وطلب راحته، وإذهاب المشقة عنه، ومحبة أن يبقى سالمًا من كدر إعراض المعرضين؛ يدل على مدى عناية الله به، ومحبته له.

أقول قولي، هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه؛ إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) متفق عليه.

(٢) فتح الباري(٨/٥٢٦).

(٣) شرح النووي على مسلم (٥/١٩٩).

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

أيها المسلمون، ومن حديث القرآن الكريم عن النبي الأمين عليه الصلاة والسلام: أنه تحدث عن مهمته التي أرسله الله لأجلها، ووظيفته السامية التي كلفه بها؛ ألا وهي: مهمة البلاغ، ووظيفة دعوة الخلق إلى الله تعالى.

فقد تحدث الذكر الحكيم عن ذلك حديثًا طويلاً، وذكر عن ذلك أموراً عديدة، **فمن ذلك:**

أنه تعالى أمره بالقيام بالدعوة وأرشده إلى بعض عوامل نجاحها فقال له: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾[المدثر:١-٧].

ومن ذلك: أنه أمره بإبلاغ جميع ما أنزل إليه من غير تقصير ولا كتمان، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[المائدة:٦٧]، **عن** مسروق عن عائشة أنها قالت: من حدثك أن النبي ﷺ كتم شيئًا من الوحي فلا تصدقه؛ إن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[المائدة:٦٧][(١)]، **وعند** مسلم : (قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئًا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية).

---

(١) متفق عليه.

ولذلك بلغ رسول الله عليه الصلاة والسلام كل ما أنزل إليه، ولم يكتم شيئًا أمره الله تعالى بإبلاغه؛ ومما يدل على ذلك: إعلام الأمة بالآيات التي نزلت في عتابه؛ مثل قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾[التوبة:٤٣]، **قال** بعض السلف: "هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾"(١).

وقوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب:٣٧]، يعني: "وتخفي في نفسك ما أوحى الله به إليك من طلاق زيد لزوجه وزواجك منها، والله تعالى مظهر ما أخفيت، وتخاف المنافقين أن يقولوا: تزوج محمد مطلقة متبناه، والله تعالى أحق أن تخافه"(٢).

عن أنس ﷺ قال: (جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: (اتقِ الله وأمسك عليك زوجك).قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا لكتم هذه)(٣).

أيها الأحباب الكرام، ومن ذلك أيضًا: أنه أمره بسلوك أساليب دعوية في تبليغ الناس الرسالة ومنها: الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن فقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

ومن ذلك أيضًا: أنه أمره أن يخبر من كذبه بأنه ليس أول رسول أرسل إلى الناس،

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/١٥٩).

(٢) التفسير الميسر (٧/٣٤٧).

(٣) رواه البخاري.

بل هناك رسل قبله جاءوا بمثل ما جاء به من الدعوة، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[الأحقاف:٩].

ومن ذلك أيضًا: أن القرآن تولى الإجابة عن بعض الأسئلة التي وجهت إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام حينما لم يحط علمًا بإجابتها، مثل قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء:٨٥]، وكان السائلون له ثلاثة أصناف: المشركون، وأسئلتُهم أسئلة تعجيزية؛ كالسؤال عن الساعة، واليهود وكانت أسئلتهم أسئلة امتحانية؛ كسؤالهم عن الروح، والصحابة وكانت أسئلتهم أسئلة استعلامية للاستفادة من الجواب عنها في التشريع؛ كالأسئلة الواردة في الأحكام الشرعية.

ومن ذلك: أنه تعالى دله على الطريق لجواب طلبات المشركين المتعنتين مثل قولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ فقال الله له: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾[الإسراء:٩٠-٩٣].

ومن ذلك أيضًا: أنه أرشده إلى الموقف الذي يكون عليه إذا رأى إعراض المشركين وعنادهم، وتوليهم وعدم استجابتهم وهو أن يعلم أن حسابهم ليس عليه، بل على الله الذي خلقهم، وليس عليه إلا البلاغ المبين، وأن يتاركهم في نهاية الأمر، ويفاصلهم، **فقال:** ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا

الْبَلاغُ﴾[الشورى:٤٨]، **وقال:** ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[النحل:٨٢]، **وقال:** ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[الشورى:١٥].

عباد الله، وبعد معرفة المهمة التي جاء لأجلها رسول الله ﷺ، والعلم ببعض الجوانب التي تحدث عنها القرآن عن هذه الوظيفة؛ **فإن علينا:**

أولاً: أن نحمد الله تعالى على نعمة الرسالة التي جاءنا بها رسول الله ﷺ وأوصلها إلينا كما أمره ربه من غير كتمان ولا نقصان، فالحمد لله على هذه النعمة.

ثانيًا: أن نزداد حبًا وتعظيمًا لهذا النبي الكريم الذي تحمل في سبيل هذه المهمة صنوف العناء والشدة.

ثالثًا: علينا أن نعمل بهذا الدين كما جاء إلينا؛ فلا نترك العمل به لغرض دنيوي، ولا نأخذ منه ما يوافق أهواءنا، وندع ما يخالفها؛ فإن ذلك ليس من اتباعه والاهتداء بهديه.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

هذا وصلوا وسلموا على النبي الهادي...

حديث القرآن عن سيد الخلق ﷺ

الجزء الثالث[(١)]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، ما زال الحديث متصلاً بحديث القرآن الجميل عن سيد الورى ﷺ، وقد سمعنا في جمعتين سابقتين حديث القرآن عن ثناء الله عليه، وعن تزكيته له، وعن إنعامه عليه، وعن دفاعه سبحانه عنه وحمايته له، وعن إراحته وتطمينه وإذهاب الحزن

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ١١/١/١٤٤٠هـ، ٢١/٩/٢٠١٨م.

عنه، وعن مهمته التي أرسله الله تعالى لأجلها.

واليوم -بعون الله تعالى- سنأخذ جوانب أخرى مهمة تتعلق بالنبي عليه الصلاة والسلام تحدث عنها القرآن الكريم، وبها نختم حديث القرآن عنه، وإن كان حديث كتاب الله عن خير الأنام أوسع وأكثر مما ذكرنا وسنذكر، ولكن ما تطرقنا له هو إشارات تبرز عناية الذكر الحكيم بالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

عباد الله، فمن حديث القرآن عن النبي ﷺ: أوامره ونواهيه له، وهذا الجانب نال حظًا وافراً من آيات القرآن الكريم في مجالات متعددة وموضوعات مختلفة، منها أوامر ونواهٍ للرسول عليه الصلاة والسلام وهي لأمته معه كذلك، ومنها أوامر ونواهٍ خاصة به ﷺ.

وقد استجاب رسول الله عليه الصلاة والسلام لتلك الأوامر فعمل بها، ولتلك النواهي فتجنبها.

فمن تلك الأوامر الكثيرة العامة: أنه أمره بالاستقامة على دينه كما أمره تعالى، فقال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[هود:١١٢]. فعلينا أن نستقيم كما استقام رسول الله ﷺ.

وأمره بالصبر في مواضع عديدة؛ بالصبر على أذى قومه، وأقوالهم الباطلة فيه وفي القرآن، والصبر على إعراضهم عنه، والصبر على انتظار حكم الله فيهم، والصبر على مجالسة المؤمنين الضعفاء، والصبر على مشقة الدعوة وعلى أمور أخرى.

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾[الروم:٦٠]، **وقال:** ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ

الْغُرُوبِ﴾[ق:٣٩]، **وقال:** ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[هود:١١٥]، **وقال:** ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[يونس:١٠٩]، **وقال:** ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[الكهف:٢٨]. فعلينا أن نكون صابرين غير جزعين.

وأمره تعالى أيضًا: بأمر أهله بالصلاة، وبالاصطبار عليها، فقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾[طه:١٣٢]. فعلينا أن نأمر أهلنا وأولادنا بالصلاة ونصبر على أمرهم بذلك.

وأمره سبحانه أيضًا: بالتوكل عليه في آيات كثيرة؛ قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾[الفرقان:٥٨]. فعلينا أن نتوكل على الله كما توكل رسول الله ﷺ.

وأمره بتقواه واتباع وحيه فقال له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾[الأحزاب:١-٣]. فعلينا أن نتقي الله ونتوكل عليه.

وأمره بقيام الليل وترتيل القرآن، فقال له: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾[المزمل:١-٤].

أيها المسلمون، وأما النواهي التي نهي عنها رسول الله في القرآن فقد نهاه سبحانه وتعالى عن أشياء متعددة، **فمن ذلك:**

أنه تعالى نهاه عن اتباع الكفار: المشركين والمنافقين واليهود وطاعتهم في أهوائهم، **فقال** تعالى: ﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾[الأحزاب:٤٨]، **وقال:** ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[المائدة:٤٩].

ونهاه جل وعلا عن الغم لمكر المشركين وكيدهم، وليجعلْ صدره خاليًا من الضيق بذلك، **فقال** تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾[النحل:١٢٧].

ونهاه تبارك وتعالى عن تمني ما لدى الكفار من متاع الدنيا الزائل؛ وأخبره أن ما عنده له خير من الدنيا كلها وأبقى، فقال تعالى: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[طه:١٣١].

ونهاه سبحانه عن استعجال العذاب على قومه، فقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾[الأحقاف:٣٥]، **وقال:** ﴿فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾[مريم:٨٤].

عباد الله، فعلينا أن نعمل بأوامر الله تعالى ونسارع إلى امتثالها كما فعل قدوتنا عليه الصلاة والسلام، وأن ننكف عن نواهي الله ونحذر القرب منها، كما كف عنها رسولنا ﷺ؛ فإنه لا سعادة ولا فلاح إلا بفعل أوامر الشرع وتجنب نواهيه.

أيها المسلمون، ومن حديث القرآن الكريم عن نبينا ﷺ: حديثه عن وجوب طاعته واتباعه. فطاعة رسول الله مع طاعة الله هي التكليف الذي كلِّفنا به؛ وبه صلاح حالنا ونجاتنا في الدنيا والآخرة. وقد تحدث القرآن الكريم عن طاعة رسول الله في آيات كثيرة بعبارات مختلفة؛ فتارة يعبر عن ذلك بلفظ الطاعة، وتارة بلفظ الاستجابة،

وتارة بلفظ الاتباع، وتارة بلفظ الأخذ، وتارة بالأمر بهذا كله، وتارة أخرى بالنهي عن معصيته ومخالفته، وترك قبول حكمه.

ولهذا جاء حديث القرآن عن الأمر بطاعة رسول الله ﷺ عبر أساليب مختلفة، **فمن ذلك:**

الأمر بأخذ كل ما جاء عن رسول الله من أمر ونهي، **فقال** تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[الحشر:٧].

ومن ذلك: الأمر بطاعة الله وطاعته، وردِّ الأمور عند التنازع إليهما، وبيان أن ذلك الرد إليهما خير للناس وأحسن عاقبة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[النساء:٥٩].

ومن ذلك: أنه نفى الإيمان عمن لم يقبل حكم رسول الله، أو قبله ولكن في نفسه كراهية له، فقال تعالى:﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء:٦٥].

ومن ذلك: بيان أن طاعته عليه الصلاة والسلام طاعة لله، وأن من أطاعه فقد أطاع الله، قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[النساء:٨٠].

قال رسول الله ﷺ: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله)[1].

---

(١) متفق عليه.

ومن ذلك: أنه سبحانه يأمر بطاعته وطاعة رسوله مقرونتين بالعطف، **وهذا قد جاء على أنحاء شتى:**

فأحيانًا يأمر بطاعته وطاعة رسوله فمن تولى عن ذلك فليس أهلاً لمحبة الله تعالى، مبينًا أنه ليس على رسوله عتاب، فما عليه إلا البلاغ وقد أداه، **كما قال** تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[آل عمران:٣٢]، **وقال:** ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[التغابن:١٢].

وأحيانًا يأمر بطاعته وطاعة رسوله ومعقبًا ذلك بأن معصيتهما مبطلة للعمل؛ كما **قال** تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد:٣٣].

وأحيانًا يأمر بطاعته وطاعة رسوله مشيراً إلى أن التزام طاعتهما عاصمة من التنازع المؤدي إلى الضعف وتفرق الكلمة، **كما قال** تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[الأنفال:٤٦].

وأحيانًا يأمر بطاعته وطاعة رسوله مبينًا أن التزام ذلك من أمارات الإيمان، كما **قال** تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال:١].

ومن ذلك: أنه بيَّن ثمرة طاعة رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ فمن تلك الثمرات: مرافقةُ خاصةِ عباد الله الصالحين في الجنة، **كما قال** تعالى:﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾[النساء:٦٩].

ومن تلك الثمرات: نيل الفوز العظيم، **كما قال** تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[النور:٥٢]. **وقال:** ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧١].

ومن تلك الثمرات: نيل رحمة الله التي تقي من عذابه، **كما قال** تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[آل عمران:١٣٢]. **وقال** تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:٧١].

ومن تلك الثمرات: الوصول إلى الفلاح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[النور:٥١].

ومن تلك الثمرات: نيل محبة الله، وغفران الذنوب، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[آل عمران:٣١].

ومن تلك الثمرات: الحصول على الهداية، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[النور:٥٤].

ومن تلك الثمرات: إصلاح الحياة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[الأنفال:٢٤].

ومن تلك الثمرات: دخول الجنة، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[النساء:١٣].

قال رسول الله ﷺ: (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى). قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: (من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى)(١).

ومن حديث القرآن عن طاعة رسول الله: بيان أن معصية رسول الله مع معصية الله سبب لكل ضرر في الدنيا والآخرة:

فمعصيتها سبب للضلال، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِينًا﴾[الأحزاب:٣٦].

ومعصيتها سبب لدخول النار، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[النساء:١٤]، كما بين تعالى أن معصية رسوله عليه الصلاة والسلام على الخصوص سبب للمحن والمصائب والعذاب الأليم، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣].

عباد الله، لقد سمعتم هذه الآيات الكثيرة الحاثّة على طاعة رسول الله ﷺ، والمحذرة من معصيته، فما علينا بعد هذا إلا صدق الالتزام بطاعته ﷺ، والحذر الشديد من معصيته، وأن لا نجعل أهواءنا وشهوات نفوسنا حائلاً يمنعنا من التمسك بطاعته، فمن أطاعه كما أمر الله في أمره ونهيه فقد ربح خير الدنيا والآخرة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه البخاري.

الخطبة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

أيها المسلمون، ومن حديث القرآن عن نبينا ﷺ: حديثه عن الأدب معه.

فقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم آيات عديدة تدعو المسلم أن يكون على أدب جم مع رسول الله ﷺ في حياته وبعد مماته.

فمن الأدب الذي أدب الله به المؤمنين معه حالَ حياته: أنه نهى أن يخاطَب بكلمة نهى الله عنها معه؛ ككلمة "راعنا" التي كان يقولها اليهود قاصدين بها سبَّه، عليهم لعائن الله وغضبه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[البقرة:١٠٤].

ومن الأدب الذي أدب الله به المؤمنين معه حال حياته: أنه نهى عن الانصراف من مجمع جَمع المسلمين مع رسول الله ﷺ حتى يُستأذن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[النور:٦٢].

ومن الأدب معه عليه الصلاة والسلام: أن لا ينادى باسمه المجرد، بل يشرّف بندائه بـ يا رسول الله، يا نبي الله، قال تعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾[النور:٦٣].

ومن الأدب معه عليه الصلاة والسلام: الابتعاد عن كل سبب يؤدي إلى التثقيل

عليه، أو يوصل إلى إيذائه، فقد أدب الله المؤمنين السابقين بأن لا يثقلوا عليه مثل دخولهم بيوت رسول الله لتناول طعام إلا بإذنه، فإذا دعوا إلى ذلك فعليهم أن لا يطيلوا البقاء حال كراهية رسول الله ﷺ لذلك، كما أنه تعالى جعل من الأدب مع رسوله الكريم أن لا يتزوج أحدٌ إحدى نسائه من بعده، وأن لا يؤذيه أحد فيهن؛ لأنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٥٣].

ومن الأدب معه عليه الصلاة والسلام: أن يصلى ويسلم عليه خصوصًا عند ذكره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٥٦].

قال رسول الله ﷺ: (من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشرا)(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: (أكثروا الصلاة عليّ يوم الجمعة وليلة الجمعة)(٢). ﷺ.

ومن الأدب معه عليه الصلاة والسلام: أن لا يقدم على قوله وتشريعه قولٌ ولا رأي ولا قانون، وأن لا يرفع صوت فوق صوته، وأن لا ينادى باسمه كما ينادى غيره،

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البيهقي، وهو حسن.

فمن رفع صوته فوق صوته وقدم قولاً على قوله، وقلّ أدبه معه؛ فذاك لا عقل له، وقد يؤدي ذلك إلى حبوط عمله.

وأما من التزم الأدب معه في هذه الأمور فذلك دليل على تقوى قلبه، وسبيل إلى مغفرة ذنبه، وحصوله على الأجر العظيم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[الحجرات:١-٥].

فعلينا -عباد الله- التزام الأدب مع الرسول ﷺ فلا نقدم قول أحد على قوله، ولا نرفع أصواتنا عند ذكره أو سماع شيء من سنته.

أيها المسلمون، إن نبينا ﷺ رجل من البشر يصيبه ما يصيبهم من مرض وموت، ووصول قدراته إلى حد معلوم، فهو رسول الله وخيرته من خلقه، لكنه لا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله منه، ولا يستطيع أن يملك لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعًا إلا بإذن الله تعالى.

ولذلك تحدث القرآن عن هذا الجانب من شخصيته عليه الصلاة والسلام.

فقد بيّن سبحانه وتعالى أن الضر والنفع ليس بيد رسوله، وأنه عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب إلا ما علمه الله تعالى، وأنه لو كان يعلمه لتجنب كل سبب

يوصله إلى السوء، غير أن الله تعالى أعلى شأنه على غيره بالوحي والرسالة، **قال** تعالى: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف:١٨٨]، **وقال:** ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾[الأنعام:٥٠]، **وقال:** ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[ص:٦٩-٧٠]، **وقال:** ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا * إِلَّا بَلاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾[الجن:٢١-٢٣]، **وقال:** ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾[فصلت:٦].

وقال النبي ﷺ: (إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحوٍ مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذ؛ فإنما أقطع له قطعة من النار)(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك وعكًا شديداً-أي: يحم- فمسسته بيدي فقلت: يا رسول الله، إنك لتوعك وعكًا شديدًا؟ فقال رسول الله ﷺ: (أجلْ، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم) فقلت: ذلك أن لك أجرين؟ فقال رسول الله ﷺ: (أجلْ)(٢).

وبيّن الله تعالى أن نبيه عليه الصلاة والسلام سيموت كما يموت غيره من الأحياء

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

حينما نزلت عليه آيات إعلان الوداع، **قال تعالى:** ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾[الزمر:٣٠]، **وقال:** ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِينْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[آل عمران:١٤٤]. ثم مات ﷺ كما يموت كل حي من المخلوقين.

فعن أنس رضي الله عنه قال: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة عليها السلام: واكرب أباه! فقال لها: (ليس على أبيك كرب بعد اليوم).فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب ربا دعاه، يا أبتاه مَن جنةُ الفردوسِ مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه(١).

نعم، لقد مات رسول الله –يا عباد الله– ولكن لم يمت دينه ولن يموت وقد وعد الله بإظهاره على الدين كله، ولم يمت هديه الذي ما زال يهدي الناس في كل زمان ومكان.

قال حسان رضي الله عنه:

فَبَيْنَا هُمُ في ذلكَ النّورِ إذْ غَدَا ... إلى نُورِهِمْ سَهْمٌ من المَوْتِ مُقصِدُ
فأصبحَ محموداً إلى اللهِ راجعاً ... يبكّيهِ جفنُ المرسلاتِ ويحمدُ
وأمستْ بِلادُ الحَرْمِ وَحشاً بقاعُها ... لِغَيْبَةِ ما كانَتْ منَ الوَحْيِ تعهدُ
فَبَكّي رَسولَ الله يا عَينُ عَبْرَةً ... ولا أعرفنْكِ الدهرَ دمعكِ يجمدُ
ومالكِ لا تبكينَ ذا النعمةِ التي ... على الناسِ منها سابغٌ يتغمّدُ
فَجُودي عَلَيْهِ بالدّموعِ وأعْوِلي ... لفقدِ الذي لا مثلهُ الدهرِ يوجدُ
وَمَا فَقَدَ الماضُونَ مِثْلَ مُحَمّدٍ ... ولا مثلهُ حتى القيامةِ يُفقدُ

---

(١) رواه البخاري.

أعــــفَّ وأوفى ذمــــةً بعــــدَ ذمــــة وأقْــــرَبَ مِنْــــهُ نــــائِلاً لا يُنكَّــــدُ
وأكــــرمَ حيــــاً في البيــــوتِ إذا انتمــــى وأكــــرمَ جــــداً أبطحيــــاً يســــوّدُ
وأثْبَــــتَ فَرْعــــاً في الفُــــرُوعِ وَمَنْبِتــــاً .وَعُــــوداً غَــــداةَ المُــــزْنِ فــــالعُودُ أغيَــــدُ
مــــعَ المصــــطفى أرجــــو بــــذاكَ جــــوارهُ وفي نيــــلِ ذاكَ اليــــومِ أســــعى وأجهــــدُ(١)

فيا أيها الأحباب الكرام، يا أمة محمد، يا من تحبون رسول الله ﷺ، كونوا على عناية كبيرة بنبيكم وبما جاء به؛ فقد سمعتم عناية القرآن العظيمة بهذا النبي الكريم ﷺ ، فبرهنوا على ذلك بتعظيمه وحبه، واتباعه ولزوم طاعته، ودافعوا عن دينه وشِرعته، وأحبوا من أحب، وأبغضوا من أبغض، وسيروا على منواله حتى اللقاء به في يوم جوائز المؤمنين، وفرحِ اللقاء برب العالمين.

هذا وصلوا وسلموا على سيد الخلق أجمعين..

(١) ديوان حسان بن ثابت (ص:٤٧).

يوم في بيت النبوة(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، إن الله تعالى قد أنعم علينا فجعلنا من أمة محمد ﷺ، سيدِ ولد آدم وأفضلِهم، وأزكاهُم وأتقاهُم، الذي جعله الله تعالى لنا قدوة نقتدي به في سلوك الصراط المستقيم، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب:٢١]. **فمن كان يريد نيل رضوان الله**

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ٢٥/١/١٤٤٠هـ، ٥/١٠/٢٠١٨م.

سبحانه والسعادة في الدنيا والآخرة فليسلك الطريق الذي سلكه رسول الله ودعا إليه، وليكن الاقتداء به عليه الصلاة والسلام هو منطلقَه الذي ينطلق منه إلى كل جهات حياته المختلفة.

عباد الله، سنرحل في هذا اليوم بخلَدِنا -بعون الله- إلى بيت النبي ﷺ، فنعيش وقتًا يسيراً ننظر فيه ماذا كان رسول الله يعمل في يومه وليلته داخل ذلك البيت الطاهر، وكيف كان حاله فيه؛ فبعض الناس قد تختلف أحوالهم داخل البيت وخارجه حيث يحصل فيها تضاد أو قصور.

لذلك كانت حال الإنسان في بيته أصدقَ وصفًا لباطنه وظاهره من حاله خارج منزله؛ وذلك لأن السلامة من الازدراء، وفوات المصالح الدنيوية مضمونان للإنسان في بيته بين أهله، بخلاف الحال خارج المنزل فقد يعمل المرء أعمالاً ويتصنع أخلاقًا تخالف حقيقة حاله؛ هروبًا من تحقير الناس، وظفراً بالمصالح بينهم. ولأن طول المخالطة- داخل البيت- الذي تنتج عنه قلة الهيبة، ونشوب الخلاف قد يغير من أخلاق بعض الناس؛ فلذلك فإن من حسنتْ حالُه في البيت وطاب فيه قوله، وزكا عمله كانت حاله خارجه أفضل، غالبًا. وهكذا كان حال رسول الله ﷺ في كمال عمله وخُلقه في بيته بين أهله، وفي خارجه مع سائر الناس، قال ﷺ: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)(١).

أيها الفضلاء، إن الغرض من هذه الزيارة الخاصة إلى بيت رسول الله ﷺ: هو النظر في عمله بيته لنعمل كذلك في بيوتنا، وفي تعامله مع أهله وأولاده وزوّاره لنتعامل مع أهلنا وأولادنا وزوارنا أيضًا؛ فهو ﷺ قدوتنا، ونورنا الذي نهتدي بضياء أقواله

---

(١) رواه ابن حبان وابن ماجه، وهو صحيح.

وأعماله في دروب هذه الحياة.

أيها المسلمون، لقد كان بيت رسول الله ﷺ ليلاً ونهاراً بيتَ صلاح وعبادة، وبيت زهد وتواضع، وبيت كرم وضيافة، وبيت تربية وتعليم وحسنِ معاملة، وبذلك جمع ذلك البيتُ الطاهر كلَّ خير، وأبعدَ عنه كل شر، فكان هو المثالَ الكامل الصالح للاقتداء به في جانبي الدين والدنيا.

أيها الأحباب الكرام، لقد كان رسول الله ﷺ يستعد لصلاة الفجر، فإذا أذن المؤذن أمسك عن الطعام إن أراد الصيام، ثم صلى سُنة الفجر في البيت، فيركع ركعتين خفيفتين، وقد يضطجع على شقه الأيمن منتظراً مجيء بلال بن رباح رضي الله عنه ليُعلِمه بإقامة الصلاة، وربما ركع سنة الفجر ومكث يتحدث مع بعض أزواجه حتى يأتيه المؤذن للإقامة.

فعن حفصة رضي الله عنها قالت: (إن النبي ﷺ كان إذا أذن المؤذن صلى ركعتين، وحرّم الطعام)(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سكت المؤذن بالأولى من صلاة الفجر قام فركع ركعتين خفيفتين قبل صلاة الفجر بعد أن يستبين الفجر، ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المؤذن للإقامة)(٢).

وفي الصحيحين عنها أيضًا: (أن نبي الله ﷺ كان يصلي ركعتين بين النداء والإقامة من صلاة الصبح) **يعني**: في البيت. وعنها رضي الله عنها قالت: (كان النبي ﷺ إذا

---

(١) رواه أحمد، وهو صحيح.

(٢) متفق عليه.

صلى ركعتي الفجر فإن كنت مستيقظة حدثني، وإلا اضطجع)[١].

ففي هذا لنا قدوة في الاستعداد لصلاة الفجر، وصلاة سنتها في البيت، وحسن العشرة للزوجة.

ثم ينطلق رسول الله ﷺ عندما يأتيه بلال رضي الله عنه إلى المسجد فيصلي الفجر، فيبقى في المسجد يذكر الله حتى تطلع الشمس بيضاء نقية قبل أن يرجع إلى أهله.فعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: (كان النبي ﷺ إذا صلى الفجر تربّع في مجلسه حتى تطلع الشمس حسناء)[٢].

وعند الطبراني في المعجم الصغير: (جلس يذكر الله حتى تطلع الشمس).

وبعد ذلك يعود ﷺ إلى بيته وقد يجد بعض زوجاته جالسة في المكان الذي صلت فيه صلاة الفجر تذكر الله تعالى، فعن جويرية بنت الحارث رضي الله عنها أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها-يعني: في المكان الذي تصلي فيه من البيت-، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال: ما زلتِ على الحال التي فارقتكِ عليها؟ قالت: نعم، قال النبي ﷺ: (لقد قلتُ بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وُزنتْ بما قلتِ منذ اليوم لوزنتْهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته)[٣].

وكان ﷺ عند دخوله المنزل يبدأ بالسواك، كما كان يفعل ذلك أيضًا أولَ ما يقوم من نومه لقيام الليل، **فعن** شريح بن هانئ قال: (قلتُ لعائشة رضي الله عنها: بأي شيء كان يبدأ

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أبو داود، وهو صحيح.

(٣) رواه مسلم.

النبي ﷺ إذا دخل بيته؟ قالت: بالسواك)[١].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: (كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك)[٢].

فإذا رجع عليه الصلاة والسلام إلى البيت طلب طعام الإفطار الذي يُعرف في لغة العرب بطعام الغداء، وهو الذي يؤكل صباحًا، فإن وجد عندهم طعامًا أكل وإلا عقد الصيام، وهذا يدل على قلة ما كان لديه من الدنيا، ويدل أيضًا على حسن عشرته لأهله عليه الصلاة والسلام، **فعن** عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: دخل عليّ النبي ﷺ ذات يوم فقال: هل عندكم شيء؟ فقلنا: لا، قال: فإني إذن صائم، ثم أتانا يومًا آخر فقلنا: يا رسول الله، أُهدي لنا حيس[٣] فقال: أرينيه، فلقد أصبحت صائمًا، فأكل)[٤].

وفي رواية عن عائشة قالت: (كان رسول الله ﷺ يجيء ويقول: هل عندكم غداء؟ فنقول: لا، فيقول: إني صائم)[٥].

ويخبر أزواج النبي ﷺ عن هديه في الصيام، فيذكرن أن بيته كان معموراً بالصيام؛ فقد كان عليه الصلاة والسلام يكثر من الصيام، وربما تحرى أيامًا خاصة من أيام الأسبوع، **فعن** عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم، وما رأيت رسول الله ﷺ استكمل صيام شهر قط

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) الحيس: تمر وأقط وسمن تخلط وتعجن وتسوى كالثريد. المعجم الوسيط(١/ ٢١١).

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه الترمذي والنسائي، وهو حسن صحيح.

إلا شهر رمضان، وما رأيته في شهر أكثر صيامًا منه في شعبان)(١).

وعنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يتحرى صوم الاثنين والخميس)(٢).

أيها المسلمون، وكان من هدي رسول الله ﷺ أنه كان يجعل المسجد لصلاة الفريضة، ويجعل البيت لصلاة النافلة القبلية والبعدية للصلوات الخمس فينطلق إلى المسجد بعد صلاة، ويرجع إلى البيت إلى صلاة، كما كان أيضًا يصلي في البيت النوافل الأخرى كصلاة الضحى وصلاة الليل.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (أن رسول الله ﷺ كان يصلي قبل الظهر ركعتين وبعدها ركعتين، وبعد المغرب ركعتين في بيته، وبعد العشاء ركعتين، وكان لا يصلي بعد الجمعة حتى ينصرف فيصلي ركعتين)(٣).

وعن أم سلمة رضي الله عنها، قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ بعد العصر، فصلى ركعتين، فقلت: يا رسول الله، ما هذه الصلاة، ما كنت تصليها ؟ قال: (قدم وفد بني تميم، فحبسوني عن ركعتين كنت أركعهما بعد الظهر)(٤).وعن نافع قال: (كان ابن عمر يطيل الصلاة قبل الجمعة، ويصلي بعدها ركعتين في بيته، ويحدث أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك)(٥).

ولما كان عليه الصلاة والسلام في آخر عمره صلى السُنَّة جالسًا، **فعن** حفصة رضي الله عنها

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وهو صحيح.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه أحمد، وهو صحيح.

(٥) رواه أبو داود وابن حبان، وهو صحيح.

أنها قالت: (ما رأيت رسول الله ﷺ صلى في سُبحته قاعداً، حتى كان قبل وفاته بعام فكان يصلى في سبحته قاعداً، وكان يقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها)(١). **والسبحة:** صلاة السُنة.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (لما بدن رسول الله ﷺ وثقل كان أكثر صلاته جالسًا)(٢).

وكذلك كان يصلي في البيت صلاة الضحى وصلاة الليل، **فعن** معاذة قالت: سألت عائشة: أكان رسول الله ﷺ يصلي الضحى ؟ قالت : نعم، أربع ركعات ويزيد ما شاء الله(٣).

وأما صلاة الليل وعبادته فيه فكان لرسول الله في ذلك شأن عظيم، فقد ذكرت زوجات رسول الله ﷺ عنه في ذلك عجبًا؛ فإنه عليه الصلاة والسلام كان إذا ذهب إلى نومه ذكر الله تعالى ونام على شقه الأيمن، **فعن** حذيفة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول: (اللّهم باسمك أموت وأحيا). وإذا استيقظ قال: (الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور)(٤).

وعن عائشة رضي الله عنها: (أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مضجعه نفث في يديه، وقرأ بالمعوذات ومسح بهما جسده)(٥).وعن حفصة رضي الله عنها: زوج النبي ﷺ قالت: (كان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعه، وضع يده اليمنى تحت خده الأيمن، وكانت يمينه

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه ابن حبان، وهو صحيح.

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه البخاري.

لطعامه وطهوره، وصلاته وثيابه، وكانت شماله لما سوى ذلك)(١).

وعن عائشة رضي الله عنها: أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: (أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً). فلما كثر لحمه صلى جالسًا فإذا أراد أن يركع قام فقرأ ثم ركع(٢).

وعن عبيد بن عمير قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: فسكتت ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي قال: (يا عائشة، ذريني أتعبد الليلة لربي) قلت: والله إني لأحب قُربَك وأحب ما سرّك، قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي قالت: فلم يزل يبكي حتى بلّ حَجْره، قالت: ثم بكى، فلم يزل يبكي حتى بل لحيته، قالت: ثم بكى، فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، فجاء بلال يُؤْذِنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله، لمَ تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ قال: (أفلا أكون عبداً شكوراً، لقد نزلت علي الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾) الآية كلها(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها: قالت: فقدتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة من الفراش، فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد-تعني: مكان الصلاة من البيت- وهما منصوبتان وهو يقول: (اللّهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك)(٤).

---

(١) رواه أحمد، وهو صحيح.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه ابن حبان، وهو صحيح.

(٤) رواه مسلم.

أيها المسلمون، إن رسول الله ﷺ كان دائمَ الحرص على نوافل العبادة والطاعة في بيته فلا يتركها إلا لعذر، ولكنه لم يَصل فيها إلى حد الإفراط المفضي- إلى الملل والترك، أو الخروجِ عن حدود المشروع، فكان هديُه بذلك الاعتدالِ أكملَ هدي وأقومَه.

فعن عائشة ﵂ قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وعندي امرأة فقال: (من هذه؟ فقلت: امرأة لا تنام، تصلي، قال: عليكم من العمل ما تطيقونه؛ فوالله لا يمل الله حتى تملوا، وكان يقول: أحب العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه وإن قل)[(١)].

وعن علقمة قال: سألت أم المؤمنين عائشة قلت: يا أم المؤمنين، كيف كان عمل النبي ﷺ: هل كان يخص شيئًا من الأيام؟-يعني: بالعبادة ثم ينقطع في الأيام الأخرى- قالت: لا، كان عمله دِيمة، وأيكم يستطيع ما كان النبي ﷺ يستطيع؟)[(٢)].

وعن أنس بن مالك ﵁ قال: جاء ثلاث رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبروا كأنهم تقالّوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني)[(٣)].

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

وفي رواية لمسلم: (أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر).

عباد الله، لقد كان رسول الله ﷺ أزهدَ الناس في بيته وطعامه وفراشه؛ فلم يعش عيشة المترفين، ولم يحيا حياة المنعمَّين بشهوات الدنيا، ولا بنى القصور الشاهقة ولا الحصون العالية، بل أخذ من الطعام ما قل وجشُب، ومن الفراش ما غلظ وخشن، وبنى من الحُجَر لسكنه ما كنَّ وسَتر، فأخذ بذلك من الدنيا القليل، واكتفى منها بالنزر اليسير، وقد عَرضت عليه الدنيا نعيمَها فردَّه، ومدت إليه أيدي ترفها فلم يقبله.لقد كان لرسول الله عليه الصلاة والسلام حجرات صغيرة لكل زوجة حجرة منها، وفيها من الفراش ومتاع البيت الشيء اليسير.ففي الصحيحين أن عمر رضي الله عنه دخل والنبي عليه الصلاة والسلام على حصير ما بينه وبينه شيء وتحت رأسه وسادة من أدَم حشوُها ليف، وإن عند رجليه قرظًا مضبوراً وعند رأسه أُهباً معلّقة(١)، قال: فرأيت أثر الحصير في جنب رسول الله ﷺ فبكيت فقال: (ما يبكيك ؟ فقلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله ؟!! فقال رسول الله ﷺ: أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة)؟

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثّر في جنبه فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء؟ فقال: (ما لي وما للدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها)(٢).

وأما طعامه فلم يكن في بيته عليه الصلاة والسلام ما لذ وطاب من الأطعمة

---

(١) المضبور: المجموع، وقوله: أهبًا: الأهب: جمع إهاب وهو الجلد.

(٢) رواه الترمذي، وهو صحيح.

وأصنافها المتعددة، ولم يكن هو وزوجاته ممن يبلغون التخمة، بل لم يكونوا ينالون الشبع دائمًا، فحاله في طعامه كما تذكر زوجاته حالُ زهد وقلة. **فعن** عائشة ﵂ قالت: (ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام بُرٍّ ثلاثَ ليال تباعًا حتى قُبض)(١).

وعن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال: (ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟) قالا: الجوع، يا رسول الله، قال: (وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا) فقاموا معه فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبًا وأهلاً فقال لها رسول الله ﷺ: (أين فلان ؟) قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافًا مني، قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بُسر وتمر ورُطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المُدية فقال له رسول الله ﷺ: (إياك والحلوب) فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: (والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة؛ أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم!)(٢).

وعن عائشة ﵂ أنها قالت لعروة: ابنَ أختي، إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أُوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار.فقلت: يا خالة، ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء)، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهم فيسقيناه(٣).

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

ولقلة ما عنده عليه الصلاة والسلام كان ربما يأتيه السائل ولا يجد إلا تمرة فيُعطَى إياها، وكان يستضيف الضيوف فيطعمهم مما عنده، وفي بعض الأحايين قد لا يجد في أبياته ما يطعم ذلك الضيف.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (دخلت عليّ امرأة ومعها ابنتان لها تسأل فلم تجد عندي شيئًا غير تمرة واحدة فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئًا)(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مجهود(٢)، فأرسلَ إلى بعض نسائه فقالت: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، فقال: (من يضيف هذا -الليلة رحمه الله-؟) فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله...) (٣).

ولكن الحال حسنت قليلاً بعد فتح خيبر، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (ما شبعنا حتى فتحنا خيبر)(٤).وعن عائشة رضي الله عنها قالت:(لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر)(٥).

قال ابن حجر: " أي: لكثرة ما فيها من النخيل، وفيه إشارة إلى أنهم كانوا قبل فتحها في قلة من العيش "(٦).

---

(١) متفق عليه.

(٢) أي: أصابني الجهد، وهو المشقة والحاجة وسوء العيش والجوع. شرح النووي على مسلم (١١/١٤).

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخاري.

(٥) رواه البخاري.

(٦) رواه مسلم.

عباد الله، إن رسول الله ﷺ لم يكن في بيته جباراً ولا متكبراً، بل كان متواضعًا رحيماً، حتى إنه ليقوم ببعض أعمال البيت تواضعًا منه عليه الصلاة والسلام وتعاونًا مع أهله.

فعن الأسود بن يزيد قال: سألت عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: (كان يكون في مهنة أهله -تعني: خدمة أهله- فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة)(١).

وسُئلت رضي الله عنها: ماذا كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته؟ قالت: (كان بشراً من البشر؛ يَفْلي ثوبه، ويحلب شاته)(٢).وزاد أحمد وابن حبان: (ويخدم أهله).

وعن عروة عن عائشة أنها سئلت: ما كان النبي ﷺ يعمل في بيته؟ قالت: (كان يخيط ثوبه، ويخصف نعله، قالت: وكان يعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم)(٣).وزاد ابن حبان: (ويرقع دَلوه).

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) فتح الباري (٧/ ٤٩٥).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد، وأحمد وابن حبان، وهو صحيح.

(٣) رواه أحمد وابن حبان، وهو صحيح.

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

أما بعد.

أيها المسلمون، لقد كان بيت رسول الله ﷺ مَشرِقَ قدوة، ومطلع أُسوة في حسن التعامل مع الناس؛ مع خَدَمه ونسائه وأولاده وضيومه ومن يأتيه من أصحاب الحاجات، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي: أفاً قط، ولا قال لي لشيء: لمَ فعلت كذا ؟ وهلا فعلت كذا(١).

وأما زوجاته رضي الله عنهن فقد كان عليه الصلاة والسلام منارَ هداية في حسن التعامل معهن، وتربيته لهن، وتعليمهن ما ينفعهن، فقد كان يجيب على أسئلتهن، ويراجعنه في بعض المسائل فيبين لهن بجوابه الصائب إبهام ما أشكل عليهن، **فعن** أم سلمة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، إني امرأة أشد ضفر رأسي أفأنقضه لغسل الجنابة ؟ قال: (لا، إنما يكفيك أن تحثي على رأسك ثلاث حثيات ثم تفيضين عليك الماء فتطهرين)(٢).

وعن ابن أبي ملكية: أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئًا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: (من حوسب عُذِّب) .قالت عائشة: فقلت: أو ليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[الانشقاق:٨]؟!.قالت: فقال: (إنما ذلكِ العرض، ولكن من نوقش الحساب يهلك)(٣).

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

وإذا رآهن ﷺ على خطأ صحّحه لهن وبين لهن الصواب، وإن وجد منهن معصية حذرهن منها، **فعن** عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ فرأى في يدى فتخات من وَرِق فقال: (ما هذا يا عائشة؟!. فقلت: صنعتهن أتزين لك يا رسول الله. قال: (أتؤدين زكاتهن؟). قلت: لا، أو ما شاء الله. قال: (هو حسبك من النار)(١). وهذا الحديث اشتمل على قضية مهمة وهي: أن بعض النساء تحرص على إرضاء زوجها عنها بالتزين له، وقد تتزين بشيء محرم كالنمص والتشبه بالكافرات في زينتها أو لباسها، فهذا الحديث وأمثاله يحذرها من إرضاء زوجها بسخط الله تعالى، فعليها أن تتقي الله وتترك ذلك.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا، قال بعض الرواة: تعني: قصيرة، فقال: (لقد قلتِ كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته)، قالت: وحكيتُ له إنسانًا فقال: ما أحب أن حكيت لي إنسانًا وأن لي كذا وكذا(٢).

وكان عليه الصلاة والسلام حريصًا على تنشيطهن على العبادة كصلاة الليل، **فعن** أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزعًا يقول: (سبحان الله ماذا أنزل الله من الخزائن، وماذا أنزل من الفتن! من يوقظ صواحب الحجرات؟- يريد أزواجه؛ لكي يصلين - رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة)(٣).

ولما اعتنى رسول الله ﷺ بزوجاته رضي الله عنهن هذه العناية الروحية والإيمانية، والتربوية والعلمية كان لذلك أثره العظيم؛ فقد نقلن للأمة من الدِّين شيئًا عظيمًا مما كان يفعله

---

(١) رواه أبو داود، وهو صحيح.

(٢) رواه أبو داود والترمذي، وهو صحيح.

(٣) رواه البخاري.

رسول الله ﷺ في البيت من الخير، ويتجنب من الشر ولا يطلع عليه الناس، فما نفعل اليوم من الحسنات ونبتعد عن السيئات في بيوتنا اقتداءً برسول الله؛ فلزوجاته الطاهرات أجر عظيم من ذلك؛ لأنهن هن اللاتي نقلن لنا ذلك، فرضي الله عنهن وأرضاهن.

أيها المسلمون، وكان رسول الله ﷺ ذا اهتمام كبير بأولاده، يعتني بهم ويحسن تربيتهم، **وكان له من الأبناء ثلاثة: القاسم**، و**إبراهيم**، و**عبد الله** الذي كان يلقب بالطيب الطاهر، **ومن البنات أربع: رقية** و**أم كلثوم** و**زينب** و**فاطمة**، وماتوا كلهم جميعًا في حياته، ما عدا فاطمة رضي الله عنها، فقد تأخرت وفاتها إلى ستة أشهر بعد وفاته عليه الصلاة والسلام.

ومما يدل على عنايته بأولاده، وحسن تعامله معهم عليه الصلاة والسلام: ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كن أزواج النبي ﷺ عنده لم يغادر منهن واحدة، فأقبلت فاطمة تمشي ما تخطئ مشيتها من مشية رسول الله ﷺ شيئًا، فلما رآها رحبّ بها فقال: (مرحباً بابنتي، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم سارّها فبكت بكاء شديداً، فلما رأى جزعها سارها الثانية فضحكت، فقلت لها: خصك رسول الله ﷺ من بين نسائه بِالسِّرَارِ ثم أنت تبكين؟! فلما قام رسول الله ﷺ سألتها: ما قال لك رسول الله ﷺ ؟ قالت: ما كنت أفشي على رسول الله ﷺ سرَّه، قالت: فلما توفي رسول الله ﷺ قلت: عزمت عليك بما لي عليك من الحق لَمَا حدثتِني ما قال لك رسول الله ﷺ ؟ فقالت: أما الآن فنعم، أما حين سارّني في المرة الأولى فأخبرني أن جبريل كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة وإنه عارضه الآن مرتين، وإني لا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري؛ فإنه نِعمَ السلف أنا لكِ، قالت: فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جزعي سارني الثانية فقال: يا فاطمة، أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة؟ قالت: فضحكت ضحكي الذي رأيت)[1].

---

(١) متفق عليه.

وعنها أيضًا قالت : (ما رأيت أحداً أشبه سمتاً ودلًّا وهديًا برسول الله ﷺ في قيامها وقعودها من فاطمة بنت رسول الله ﷺ، قالت: وكانت إذا دخلت على النبي ﷺ قام إليها فقبّلها وأجلسها في مجلسه، وكان النبي ﷺ إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبلته وأجلسته في مجلسها ...)[١].

وكان ﷺ يرقّ لوجع أولاده، ويبكي عليهم إن فارقوا الحياة بالموت، **فعن** أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القَين وكان ظِئراً[٢] لإبراهيم عليه السلام فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبّله وشمّه ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟! فقال: (يا ابن عوف، إنها رحمة).ثم أتبعها بأخرى، فقال ﷺ: (إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزنون)[٣].

فيا أيها المسلمون، لتكن بيوتنا كبيتِ رسول الله ﷺ نقاءً وطهارة، وصلاحًا وعبادة، وزهداً وكرمًا، ومعاملة وحسن عشرة، فما أحسن بيوت المسلمين إذا أُضيئت بأنوار الاقتداء بسيد الرسل والأنبياء في حاله في بيته! وما أقربَ السعادة إليها، وأبعد الشقاء عنها إذا كان هدي رسول الله هو الذي يعمرها ويحل فيها!

هذا وصلوا وسلموا على خير البرية....

(١) رواه الترمذي، وهو صحيح.

(٢) أي: زوج مرضعته وهي خولة بنت المنذر الأنصارية النجارية.

(٣) متفق عليه.

فهرس المحتويات

المقدمة ٥

الحياة في ظل معرفة الله، جل جلاله ٧

الخطبة الثانية ١٩

الحياة في ظل الاهتداء بكتاب الله تعالى ٢٢

الخطبة الثانية ٣١

الحياة في ظل اتباع رسول الله، ﷺ ٣٣

الخطبة الثانية ٤١

الحياة في ظل العمل بالإسلام ٤٤

الخطبة الثانية ٥٣

قصة مريم في القرآن ٥٥

الخطبة الثانية ٦٥

آداب النذر وأحكامه ٦٧

الخطبة الثانية ٧٩

آدابُ اليمين وأحكامُها ٨٢

الخطبة الثانية ٩٣

إصلاح الحياة الزوجية من سورة النساء ٩٧

الخطبة الثانية ١٠٦

الإحسان إلى اليتامى أهميته وفضله وأثره ١٠٩

الخطبة الثانية ١٢١

التوكل على الله تعالى حقيقته ومواطنه وثمراته **١٢٦**
الخطبة الثانية ١٣٣
قومُ سبأ والنعمة التي لم يشكروها **١٣٥**
الخطبة الثانية ١٤٢
الغَيرةَ الغيرةَ يا أمة محمد! **١٤٥**
الخطبة الثانية ١٥٦
الفهم السليم، والفهم العقيم منطلقات وغايات **١٦٢**
الخطبة الثانية ١٧٠
اليقين بحُسن فعل ربِّ العالمين **١٧٤**
الخطبة الثانية ١٨٢
قصة أصحاب الجنة **١٨٥**
الخطبة الثانية ١٩٢
أمانةُ الوُدِّ القديم **١٩٥**
الخطبة الثانية ٢٠٥
حمد الله تعالى معناه، وفضائله، ومواضعه **٢٠٧**
الخطبة الثانية ٢١٥
خير الناس، وشر الناس **٢١٩**
الخطبة الثانية ٢٢٧
سلوة المغموم **٢٣٠**
الخطبة الثانية ٢٣٨
في ظلال آيات الصيام: الجزء الأول **٢٤٠**
الخطبة الثانية ٢٤٨

في ظِلال آيات الصيام: الجزء الثاني **٢٥٣**
الخطبة الثانية ٢٦٢
صوموا تَصِحُّوا **٢٦٥**
الخطبة الثانية ٢٧٤
عَشرُ الخير والمسابقة **٢٧٨**
الخطبة الثانية ٢٨٧
قاربُ نجاة في بحر اليأس **٢٨٩**
الخطبة الثانية ٢٩٦
قصة يونس عليه السلام **٣٠٠**
الخطبة الثانية ٣٠٨
مَن يرزقُنا في الرخص هو الذي يرزقُنا في الغلاء **٣١٠**
الخطبة الثانية ٣١٧
حديثُ القرآن عن سيد الخلق ﷺ الجزء الأول **٣٢٢**
الخطبة الثانية ٣٣١
حديث القرآن عن سيد الخلق ﷺ الجزء الثاني **٣٣٦**
الخطبة الثانية ٣٤٦
حديث القرآن عن سيد الخلق ﷺ الجزء الثالث **٣٥٠**
الخطبة الثانية ٣٥٨
يوم في بيت النبوة **٣٦٤**
الخطبة الثانية ٣٧٧
فهرس المحتويات **٣٨١**